رقرقة الأحلام الملحيّة

إدوار الخرّاط

رواية

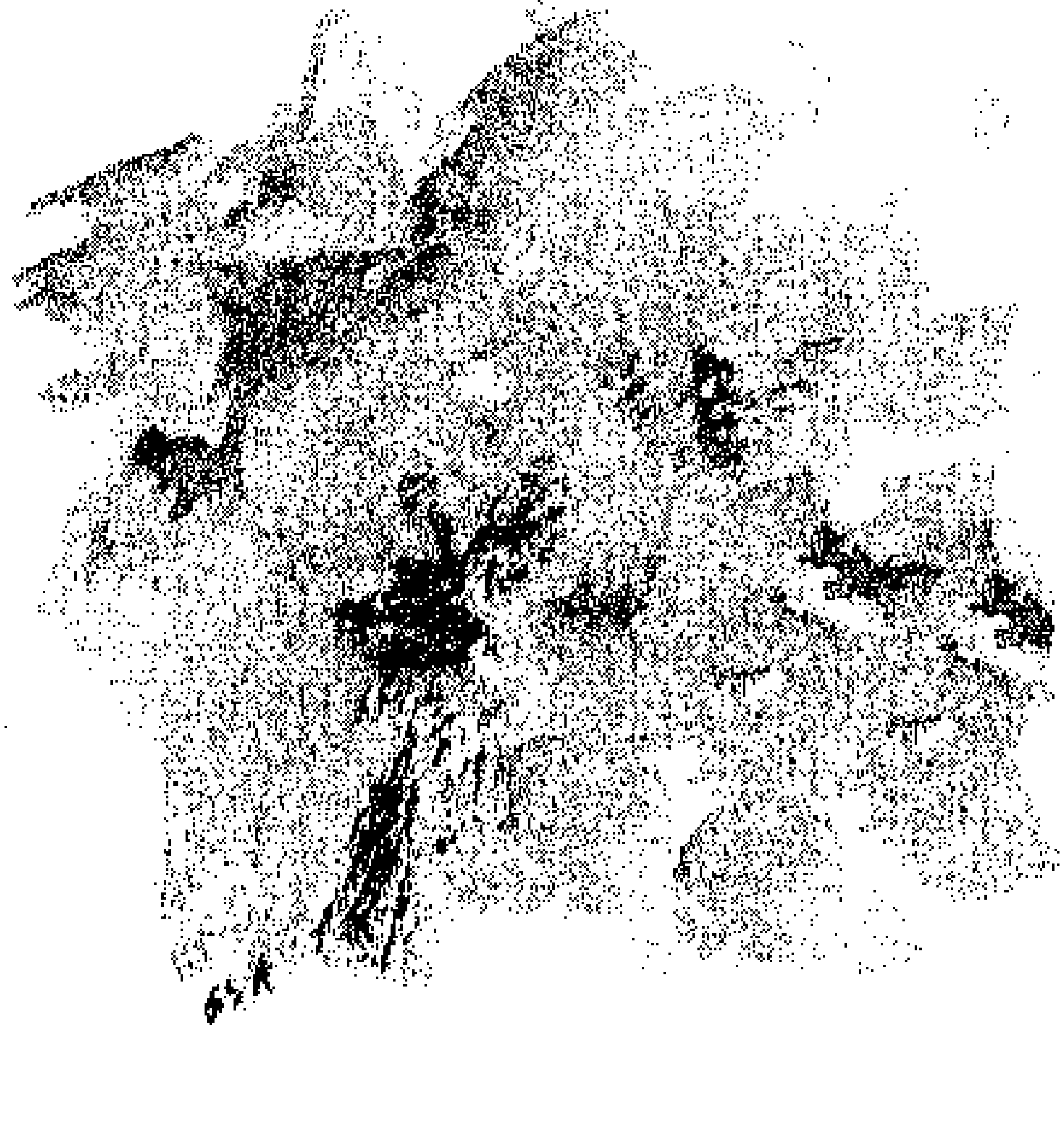

رقرقة الأحلام الملحبة

ادوار الخرّاط

رقرقة الأحلام الملحيّة

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٤

(١)

صفحات رومانتيكيّة قديمة

١١ أبريل ١٩٤٠

ومع ذلك فليس الشقاء في كلِّ شيء. هـذا مايـراه المرء. كحقيقـة كبيرة. ومهما بلغ من حدّة هذه الحمّى ومن ثقل وطأتها فهل هي حقّـاً شخصيّة. فقط؟ أم هل هي أرض مشـتركة يجب عـلى المرء أن يبحث عن سكّانها؟ لا أن يدفن رأسه في ذاته باستمرار؟.

الشّقاء هو إحدى ميزات العصر. نعم. إنَّ أحـداً الآن غير سعيـد فيما أتصوّر. كلّنا نحسّ بتفاهـة الحياة وتعسهـا. لأنّنا في نهايـة جيل. لأنّنـا نحن آلام المخاض الجـديد. دعنـا نأمـل على الأقـلّ أنَّ الميـلاد سيكون جديراً بهذه الآلام، أنَّ هذا الشّقاء كلّه لن يضيع سدى، أنّه سيأتي عالم افضل. دعنا نأمل في قلب اليأس.

لكنّنا الآن إذا عرفنا الشّقاء فيجب معه أن ندركـه وأن نفهمه، أن نبتسم منه أحياناً. ألا يستغرقنا هوله.

كنت أظنّ أن الألم العقليّ والنفسيّ هو الألم الحقيقي البشع الذي لا يفـوقه شيء. الألم الـذي يولّـده النظر إلى الكـون من زاوية خـاصّة، خـاطئة ربمـا، من يعرف؟ ولكن هنـاك أيضاً «الألم» الاجتـماعيّ. إنّنا نُشقي أنفسنا بهذا النظام الأعمى الهائل الذي أقمناه أو سرنا وراء من أقاموه. نظام الآلات المندفعة اللّاهثة. نظام الاستغـلال النهم. أعود للقـول إنّها آلام المخاض وهي مخيفـة حقّـاً وممزِّقـة. ولكنْ علينـا أن نحتمل، بأن نحاول أن ندرك.

وعنـدما نتحـدّث إلى إخوتنـا سكّان هـذه الأرض المشتركـة فلننسَ

قليلاً هذا الشقاء، هذه الرذيلة الراقدة في أعماق الدماء. هذه الحقيقة التي هي اشتباك مع الوجود، ولنحاول أن نتلمّس ما يخفّف قليلاً هذه الظلمة. أن نبحث عمّا نسمّيه «الجمال» و«الصدق»، تلك الكلمات القديمة القديمة. المتجدّدة أبداً. هذا ما كنت قد صرخت به في البداية. يتكشّف لي بوضوح. في شكل صراع.

قلت لنفسي: لا يجب أن أرقد تحت أقدام هذا الشقاء. لا يجب أن أستسلم. هناك كبرياء عميقة فيّ. لا أموت. أن أنظر دائماً إلى السماء. ولو كان رأسي يدوّم بثقل لا يطاق. ولو كانت عيناي مقفلتين.

٢٠ أبريل ١٩٤٥

أشعر أنه يجب عليّ أن أتخذ هذه الكلمات لشيء أكثر من مجرّد صِمام للأمان. نفثات حارة من لحظات متخمة أريد أن أجعلها «سجلاً» تسوده فكرة واحدة. لأنني أريد أن أجعل من أيامي هدفاً لشيء ما. شيء أحسّ أنه كبير. أنّ فيه نوعاً من التملّك للمصير- بدلاً من الخضوع الأعمى لتيارات اللحظة، بدلاً من الاستسلام لنفحات الريح العابرة وهبّات الشرر. أريد أن أبني حياتي. أريد أن ألمّ من حطام الآلام الحمقاء المخرّبة وشتات زبد الأمنيات والأحلام شيئاً ما. ألجأ إليه وأعرفه وأحاول أن أفهم نفسي في ضوئه. «أبنوا بعضكم بعضاً».

ذهبت إلى حسن اليوم وتركت له ورقة كي يأتي. ولم يأتِ. هذه هي عادتهم الآن. أتساءل دائماً - وساظلّ - هل صوتي لا قيمة له إلى هذا الحدّ لديهم؟ لعلني جعلت نفسي مكروهاً إلى حدٍّ ما، إلى حدٍّ كبير أو إلى آخر الحدّ، لست أدري، ليست غلطتهم - كلّها على الأقل.

حسن الآن لديه عالمه الخاص. ليس لي محلّ في حياة الكثيرين. أتساءل أحياناً هل لي محلّ في حياة أيّ أحد؟

كانت آخر مرة مشيت معه في الليل، بعد محاضرة الدكتور إبراهيم ناجي. ضللنا نحن الإثنين في طرق محرّم بك وكان يحدّثني عن موقف وفيق ووديع منه. لماذا يسخرون ـ كلّهم ـ من حبه ومن إخلاصه الساذج في حرارته، الصبياني في اندفاعه. أحب هذا الولد لأنه طفل بإزاء الحياة. لأن له أفكاراً عواطفية عتيقة. ولكنّه مخلص ومؤمن بالحياة.

يحلو لي أن أرقب نَفْسَه. أن فيها نوعاً من النقاء.

أذكر يوم أن كنت معه. كنت في إحدى الحالات الكثيرة ـ الكثيرة إلى أبعد من اللزوم ـ ولست أدري لماذا أجد اغراء لا يقاوم في أن أفتح له صدري بكل شيء عندي أن أخبره بكل خاطرة ـ يعني ـ أن أقصّ عليه حكايات حياتي الجدباء. حكاية نفسٍ لا تثق بشيء ولا تؤمِّل. بل تحلم أيامها أحلاماً سوداء. وقلت له ترجمةً لشعوري القديم المتأصِّل المنبعث عن مفتاح قديم صدىء، هل يُقدّر لي يوماً أن أعرف ما هو الحبّ؟ هل هناك فتاة تستطيع ـ في هذا العالم، في كل هذا الوجود ـ أن تعرف أي عمق من الحاجة إلى الرُّفقة يثوي في ظلمات نفسي؟ هل هناك فتاة تستطيع أن تفهم هذا الجوع المُرّ وأن تجد نفسها تحبني بشكلٍ ما؟ وكانت إجابته أنّ هذا ممكن بالطبع لأن فيّ عناصر هذا الحبّ. لأنّه لا مانع من أن أجد ما أصبو إليه. هل تبدو هذه هي الإجابة البديهيّة؟ ولكني أتساءل دائماً من غير ضرورة. أحسست أنّها صادقة وحقيقيّة.. هو نفسه ربّما نسي هذه الكلمة ولكنّه لا يدري أي خير لروحي كان في هذه الإجابة. أبتسم من

نفسي كلما ذكرت هذا.. أبتسم من أنني أنا نفسي أكون شخصاً عواطفياً ذا أفكار عتيقة.

ومع ذلك فهذه الحاجة إلى الفهم، الحاجة إلى رُفْقَة.. هذا الجوع..

لأنه لا محلّ لي في أيّ مكان. في العمل وفي الجامعة وفي البيت وفي أي جماعة من الناس. في كل مكان أجد نفسي غريباً غير مفهوم خارجاً عن النغمة. لست أستطيع أن أملك هذا. كم أريد أن أكون مع الناس كما يعيشون، كم أتمنّى أن لا يحسّ أحد أنني غريب، ولكني أجدهم مع ذلك يحسّونه. وأجد نفسي خارج الأسوار. دائماً في عتمة باردة وحيداً في طريق الرياح.

ألا تضرب النغمة الرومانتيكية هنا أكثر بكثير من أيّ شيء له معنى؟

ليس هذا ما أريد أن أكتبه. ماذا يهمّ لو لجأت إلى ظلمتي في أول الليل. أقفلتُ باب غرفتي. وتركت نفسي لعاصفة الدمع تمزّق هذه الأحلام؟ أحلام المحبة مع الإخْوة من الناس إنّه ليس هناك محبّة وليس هناك إلا الظُلم والوحدة.

وهذه الدموع التي تخرب النفس يجب ألاّ أستسلم لها. الضحكة المرّة المتحشرجة التي تنبثق دائماً مع الدموع ليست ضحكة سخرية ومرارة. أبتسم إبتسامة أتصوّرها عن فهم وتسامُح بإزاء الضعف الذي يعيش فيَّ، هذا الضعف الراقد في دمائي، هذه الأنّات الرثّة. يجب أن أصارعه.

هذا هو ماأريد أن أجعل هذه الأوراق وسيلة إليه. ليس مجرّد الأوراق بل الحياة التي تصوّرها. بالطبع.

لتستعدّ إذن لتراب الطريق ورياحه. لصخوره والهُويّ التي على جانبيه. أنظرُ دائماً إلى الأفق. وعندما أكون متعباً فلأجلسْ إلى جانب الطريق قريباً من شجرة ولآكلْ لقمتي بالحقّ. ولأبكِ أحزان الحياة. النوم في جانب الطريق تحت النجوم وبجانب شجرة. هو حلم في ذاته. حلم جميل، بعد الدموع المضناة التي تعمر النفس كآبةً صادِئةً مُدْرِكةً باستسلام للحقيقة، كأنّه صورة من سيسيلي أو تيرنر. كأنّه بيت شعر من لامارتين.

يجب أن أسير.. وأن أصارع الحقيقة على الأرض لا في السماء كما صارع يعقوب الملاك، دون أن أنكر لا الدموعَ ولا الحلمَ.

١٩ مايو (السبت)

سلسلة من المواقف السوداء. لا فائدة مطلقاً. قرأت ماكتبه منير.

٢٧ مايو

ليس لديَّ ماأفعل. قرأت ساعتين. جاءتني نوبة عدم الإحتمال المعتادة. لا يمكن أن أقرأ أكثر. مستحيل. أتثاءب. وثمّ نسيم رقيق يهبّ من السماء الزرقاء الشاحبة. سألت نفسي. أتريد أن تتسلّى؟ لنتكلمْ عن قصة واقعية. وأجابتني نفسي: فليكُنْ!

أذكر ذلك الصباح الشتويّ من ديسمبر سنة ١٩٤٢. أعتقد أن المحاضرة لم تكن قد راقت لي فخرجت أمشي مع حسن. كانت صداقتنا ماتزال نابتة قريباً. ناشئة. كان قد قرأ الأحدب «(قصّتي الشيخ عيسى في إحدى صورها الأولى) وطار إعجاباً بها، في ذلك الصباح كانت السماء أمطرت قليلاً ثم أقلعت وكان الجو رطباً. وثمّة نوع من اللذع في الهواء.

كان حسن مصاباً ببرد أيضاً. وما يفتأ ينفخ أنفه. وقد بـدأ يقصّ لي قصته الواقعيـة. كـان يحكي كيف أحسّ بسُمَيّـة أول مـرة. كـان يعرفها بالطبع في الكلية ولكن كما يعرف كل البنات الأخريات يعني: من بعيـد كـده. وكـانت سُمَيّـة في أول الأمـر نـوعـاً من «الحـدث» الخـارق، ظـاهـرة لا تصـدق. كـان مجـرد وجـودهـا في الكليـة قسم الإنجليزي سنة أولىٰ مع الأولاد حدثاً: بنت الدكتور أبو نـادي الذي كان شخصية تقرأ عنها وتعرفها من الشعر والكتابة والنّحالـة فقط، لا إنساناً يوشك أن يقع في الخمسين. تخين وطويـل وبكرش مستـدير. وطربوش. دائماً الطربوش. وحديثـه ـ في مجمله وكما سمعتـه ـ تافـه. لا، لم يكن هذا الدكتور أبو نادي بل كان أبو نادي هو الشاعر مؤلف «الآلهة» و«إيماني» ومؤسس جماعة «ضد ديونيـزيوس» وصـاحب مجلتها وراعي حركة التجديد في الشعر.

في أول يوم سألهـا الأستاذ إنـرايت مُدَرّسُهُم: كم كتـاباً قـرأتِ في الصيف وما نوعها؟ فكانت الإجابة حدثاً أيضـاً تناقلتـه الرواة في كـل كليات الجامعة من أدنىٰ ربوة العباسية إلى أقصاها، قالت إنها لا تذكر كم كتاباً قرأتْ. إنّها قرأت عشرات ويمكن مئات. كان معنىٰ إجـابتها أنها قرأت كل الكتب التي في العالم. حسناً إذن.

كـان حسن وقدال في الفصـل فيما بـين المحاضرات. والأحـاديث بالطبع تطنّ. ولابدّ أن شخصاً كـان يخطّ شيئاً عـلى السبّورة السـوداء وطلبـة يدخلون ويخـرجون ويتنـاقشون ويضحكـون. وكل هـذا الجو الذي يعرفه الطلبة بين المحاضرات. كان حسن يريد أن يشرح لقدال نقـطةً ما. فجلس عـلى كرسيّ الأستـاذ ليقوم بهـذه المهمّـة. ولكنّـه لم يجلس في الواقع ـ تماماً ـ كما تواضـع الناس عـلى الجلوس، بل انقلب فجـأة لأن قدال كـان قد أزاح الكـرسي إلى جـانب بسرعـة وصمت ـ

تلك الخدعة القديمة. حسن يتشبّث بالمائدة ورجلاه في الهواء. وجهه بالطبع تعبير عن الفزع والخوف والمفاجأة التي يجعل وجوه الناس في مثل هذه المواقف مضحكة بذاتها. وفي تلك اللحظة المسرحية بالذات دخلت البطلة. دهشت سُمَيّة بالطبع. وكان الكثير يضحكون بصوت عالٍ بينما أخونا منقلب إلى الأرض يطوّح ويضرب برجليه الطويلتين جداً، في الهواء.

ما إن دخلتْ حتى كانت لحظة اضطراب وصمت. ونهض المسكين يتعثّر ووجهه بالطبع كالفطيرة المكبوسة وحمراء فوق البيعة.

كانت سُمَيّة اسبور وكانت تعرف الأولاد زملاءها في الفصل واحداً واحداً وأظنّ أنها لم تضحك.

وفي تلك الأيام كانت سُمَيّة قد بدأت تظهر في حياة الأولاد: أول فتاة عرفوها. كلهم بالطبع عشّاق مساكين. كانت أول فتاة تحدّثهم ببساطة وصراحة وتمشي معهم وتناقشهم وتخرج معهم أيضاً بعد الجامعة ـ كان ذلك عصرهم الذهبيّ. أمسيات المعهد البريطاني. يتهافتون على المعهد مساء كل ثلاثاء ليسيروا معها في الشارع جماعة تثرثر وتتناقش، بأسلوب مهذّب، عن الأدب وعن الشعراء. وتقفز في حديثهم تلك الكلمات الإنجليزية التي عرفوها حديثاً وذاكروها بالأمس عن الدراما والشعر والنغم والقافية والوزن والأسلوب. . تتواثب مُعْرِبة عن خواطر نصف مولودة ونصف ميتة. وتتواثب معها ضحكات مضطربة وهم يحاولون أن يظهروا أنهم مستمتعون بأنفسهم. كان ذلك في البداية. وفي البداية كان ذلك. ولم يكن أحد يعرف على الأرجح ماذا ستكون النهاية.

أذكر في تلك الأيام كيف كانت تقصّ على بدوي قصة. قصة حفنة من البنات يتنافَسْنَ في السرّ على انتخابات اتّحاد الجامعة، أو

شيء من هذا القبيل، ويحتفِظْنَ طول الوقت بمظهر عدم المبالاة ويَقُمْنَ بأدوار التضحية وإيثار الغير. . إلى آخره إلى آخره، تحكي، صوتها رفيع بناتي ـ كتلميذة في الإبتدائي ـ وعلى أنفها نظارتها المدوَّرة المكبوسة على عينيها، شعرُها مفروشٌ على كتفيها نازلٌ إلى الوراء ـ ولست أدري ربما كان مضفوراً في ضفيرتين طويلتين متدلّيتين على ظهرها. فستانها يصل إلى نصف ساقها من تحت، حذاؤها صغير كأحذية الأطفال. وهي تهرول على الرصيف وإلى جانبها بدوي وخلفها الشلّة. . بنت تلميذة نصف إنجليزية بنظارة سلك وكعب جزمة واطيء، نعم، أمها كانت إنجليزية.

ولابد أن حسن بدأ جنونه من أيامها.

كانا يرجعان إلى البيت في بعض الأحيان بالليل من طريق واحد. محرّم بك الرصافة، صحيح أنه كان يتجاوز شارع بيته ليمشي معها حتى بيتها، ولكنّه في النهاية طريق واحد. . وكانا بالطبع يتحدّثان عن الشعر والكتّاب الإنجليز والدراما. . يعني، أليس هناك عندهم غير هذه الموضوعات؟ مالها ـ يعني ـ حاجات القلب؟

لا أعرف التطوّر الذي حدث حتى إن المسألة انتهت في ذلك الشتاء إلى أن سمية وحسن كانا يخرجان معاً وحدهما ـ في أحيان ليست كثيرة بالضبط لكنْ متكرِّرة ـ ويذهبان إلى السينما، معاً، وحدهما.

وفي الكلية كان الفتيان بالطبع يشاهدون عجباً ـ ويعيش بعضهم فعلاً في نوع من العجب ـ أن يخرجوا مع بنات. وأن يناقشوهن في مسائل تتّخذ شكل الخطاب العقلي الرصين وتحتها جيشان نزوعات محبوسة بعناية، ومع هذا كله ـ أظنّ أنه في كل مكان في العالم يوجد فيه نساء ورجال، ولو كانوا أطفالاً مراهقين، كما كان الأمر في

حالتنا ـ تلك الموجات الدائمة الصعود والهبوط من الوشايات والتلميحات والمفتريات والحكايات والهمسات والإشاعات. كانت الموجات هنا على شيء من العنف تتناثر بالمياه والزبد وترغي على الأولاد تبلّل جوانبهم العطشانة.

سُمَيّة وحسن ـ زقزوق وظريفة ـ في عالم وحده، كأنما لا يحسّان لا بالمغامرة ولا بالغرام.

حدث ذات مرة أن كان الإثنان على ميعاد. وفي سينما رويال هبط عليهما زميل من الكلّيّة، ليس من الشلّة. ظنّت سُمَيّة أنّ حسن، على سبيل التفاخر الصبياني، هو الذي دعا هذا الزميل إلى السينما لكي يراهما معاً أو شيئاً من هذا القبيل ـ تلك الهواجس البناتية: «هاهو يُريني لأصدقائه. يُريهم أنني ماشيه معه». وحدثت ضجّة وعجّة.

جاء حسن في ذلك الصباح الإسكندراني الشتوي من ديسمبر يشكو لي. وعنده برد. يتّف في منديل غير نظيف تماماً وينفخ أنفه وعيونه حمراء. في صوته نبرة انفعال حقيقي وكان يعتقد، بجد، أنّه بريء. أنّ غرضه نبيل. أنّ «هذه» الصلة بينه وبين سُمَيّة هي تلك الصلة الرومانتيكية التي يقرأ عنها أخيراً، في الترجمة العربي، التي كنّا نحن نعملها، عن طاغور مثلاً أو لونورمان أو سولي برودوم.

قال إنها هي التي أنقذته من خمول السنوات الذي عاش فيه قبل ذلك. إنها هي التي فتحت آفاق نفسه و«أرته الحياة». و«رفعته إلى سمائها» و«جعلته نبيلاً رقيقاً يعرف الجمال» كان يضع فوق فوران جسمه السرّي الخجل من ذاته قناعَ تلك الرومانتيكية العذبة التي كان يخاف أن يسمّيها الحب.

بلا شك كانت أحشاؤه تضطرب عندما كان يراها. لماذا؟ لا تسلني. كان قلبه من غير شكّ يدقّ ويدقّ وكنت بشيء من المكر ومن

العطف أرىٰ وجهه يحمرّ، ويرجع كالفطيرة المكبوسة الحمراء. بلا شك كان يعتقد أن هذا هو الحب والتسامي إلى الجوّ الرومانتيكي الذي يحكون عنه في الكتب. إعتقاده كان جادّاً إلى آخر درجة وكان يظنّ نفسه حقيقة أنه يحبّ هذا النوع من الحبّ وأنه يحيا في تجربة رائعة.

أنا تأثّرت ـ في الحقيقة ـ بهذا كله وأيقنت أنّه يتعلم وأنّ في روحه نوعاً من الصدق يتفتّح له. وهكذا كان أول ما انتبهت حقاً لما يدور.

وأظنّ أن حسن كان يبكي في ذلك الصباح الشتائي من ديسمبر، وهو يحكي لي وصوته يرتجف. كان يبكي حقيقة ـ بغضّ النظر عن أنّه كان عنده برد وزكام.

وانتهىٰ الدور الأول من الحكاية: يذهبان إلى السينما وحدهما. يمشيان ساعات طويلة، قريبين جداً أحدهما من الآخر لكن لا يتلامسان أبداً ـ يحرصان كل الحرص على ألّا يتلامسا مطلقاً ـ وتحدّثه هي بالأقاصيص الجارية عن البنات والصبيان. ويحاول هو أن يتكلّم عن الأدب والكتب والشعر. ويحاول أو ينكّت، يقول نكتة أو اثنتين، لا ينجح كثيراً، ويضحك، وتجامله بابتسامة صغيرة، ويضحك، ثم يجلسان في السينما جنباً إلى جنب مهذّبينْ مؤدّبينْ عاقلينْ. هل في ذهنه كل الأفكار المقلوبة عن الهوىٰ العذريّ والحب الأفلاطونيّ والبراءة والنبل، إلى آخر ذلك، أم في جسمه ذلك التوتّر الفيزيقيّ البحت، يحاول أن يكبته، أن ينكر الإنتصاب الذي يفاجئه هو، أن يُلملم انشطار نفسه.

وإن فهو الذي يخاف حتى أن يمدّ يده نحوها في عتمة السينما لئلاّ تلمسها رغماً عنه. وهو يضمّ رجليه إحداهما إلى الأخرىٰ بشدّة وبحرص ويجهد في أن يركّز انتباهه في الفيلم السخيف. هل كانت

تحسّ بالضيق وشيء من الاستياء؟ كأنما كان ينكر عليها أنثويّتها نفسَها؟ أم كانت تستريح إلى هذا، وتطمئنّ. كأنما كان يثبت أنه بلا خطر. كانت هي أيضاً ملء ذهنها رومانتيكية الكتب.

على كل حال.

(هكذا إذن مضت تلك العلاقة: تقليدية، وتقريباً نموذجية في تلك الفترة. علاقة شبه ذهنية، مبنيّة من اضطرابات المراهقة).

وكان أول ماعرفتُ عن الدور الثاني من الحكاية في حواليّ آخر السنة.

ذهبتُ إلى بيت حسن مرة بعد الظهر ـ وكانت صداقتنا قد توثّقت، أعني زمالتنا أو سمِّها ماشئت ـ ووجدت عنده قدال، وعندما دخلت لاحظت أن حديثهما انقطع فجأة. ثم يظهر أن قدال كان مستعجلاً أو شيئاً ما، وأراد أن يُنهي الحديث الخطير. تصوّرت لحظة في الحقيقة أنني اقتحمت فجأة قاعة مؤتمر تُقرِّر فيه المصائر، وكأنهما كانا يريدان أن لا يصل إليّ فحوى القرارات الحاسمة التي يتّخذانها. وعلى ذلك أخذ الكلام يدور عن «البطل» وعن أشياء أخرى مقصود بها طبعاً ألاّ أفهم.

ولكن المسألة منطقية وهناك قاعدة يمكن أن نأخذها مسلّماً بها: كلما كان الناس يتكلّمون بهذه اللهجة فاعرِفْ أن المسألة تتصل بالجنس. فتاة أو امرأة أو ولد. وعلى ذلك غامرت بأن صحّحت لقدال تعبيره عن «البطل» فقلت له: يمكن أنت عاوز تقول «البطلة» ولاّ حاجة؟ إذا كان كده إتكلّم وخد حريتك. ولكن قدال في هذه اللحظة كان عموداً من أعمدة الأخلاق القوية المكينة، البطل الذي من وراء الستار يسعى لمصلحة الناس وخيرهم والحفاظ على سُمعتهم، الصديق النصوح الذي اللهُ وحده يعرف ماهي البواعث التي تدعوه

لأن يكـون صديقـاً نصوحـاً. ربّمـا كـان من ضمن هـذه البـواعث في الحقيقة الغيرة عـلى مصلحة الأصـدقاء (أو أيّ نـوع آخر من الغـيرة) ولكنّي أعترف أنّني حتّى الآن لا أسيغ هذا كلّه.

واستمرّت الحلقة الثانية من الحكاية طَوال الصّيف. وليس لديّ ممّـا أعرف عنها شيء، فأنا كنت نسيت هذه المسألة أو على الأصح شغلتني عنها أشياء أخرى، حتى جاء حسن عندما فتحت الجامعة، السنة التي فاتت. عندئذٍ عرفت بقيـة الحكايـة، بهذا الشكـل: «حسن يريـد أن يتكلّم مع صبحي في مسألة خطيرة. مسألة خطيرة جداً».

وصبحي في السنة الرابعة، الليسـانس، قبلنا كلنا بسنـة. طويـل، في مشيته نوع من التؤدة والرصانة المؤثِّرة وعيناه واسعتان تسقط عليهما أجفـان ثقيلة شبه نسـوية ولكنّهـا رجاليـة جداً، وهـذا يعـطيـه نـظرة رومانتيكية من النوع الدايب ده. وعلى فمه شـارب. وهو يبـدو رجلاً كامل الرجولة وملؤه الدماء وليس الولـد الطالب المعتـاد اللذي كنّـاه، كلّنا. ساحر يعني، بالنسبة للبنات في الثامنة عشرة وماحولها.

ماهي المسألة الخطيرة؟ مضمونها هو الآتي: ماذا تنوي؟ هـل تنوي أن تتـزوّجها؟ وهـل تقدّر مـوقف أنها مسلمة ـ تقيّـة وتصـلي الفـرض بفرضه (كما جاء حسن يحكي لي) وأنّك مسيحيّ وأنك أيضـاً متمسّك بديانتك؟

وكان الموقف في الحقيقة عجيباً إلى حدٍّ ما، جِدّياً وهزلياً معاً، دون أن يدرك أحد منّـا جميعاً مـدى هزليّتـه. فلم يكن هناك أحـدٌ مستعدٌ لمبـارزة من نوع القـرن الثامن عشر مثلاً ولا حتى لمعـركـة بـالكلمات والصفعات من النوع الأمريكاني كـلاهما، حسن وصبحي، لم يكن مستعـداً لأي شيء من هذا. وفـوق هذا وذاك الإجـابة الـواضحة في المسـألة الخـطيرة هي: وأنت مـالـك يـا أخي؟ مسلم ومسيحيـة ومـا

أعرفش أيه أنت مالك أنت؟ فالواقع أن البنت في تلك الأيام كانت تتعلّق بصبحي وتتشبّث به كالعلقة. وكانت ابتدأت تبدو أنيقة وسعيدة. وكان الصيف كله قد مضىٰ في نشوة غرام بينهما. يذهبان إلى المندرة ويستحمّان في البحر ـ تصوّر ـ وينتقيان صخرة في وسط المياه لأنفسهما. والحكايات تدور في موجات تتناثر حتى تصل إلى حسن من ناحية، عمداً بالطبع أو عن غير قصد نادراً، فيثور ويحمّر ويزرقّ. وتصل الحكايات إلى أعمدة الأخلاق والغيرة على الأصدقاء فيعقدون جميعاً مؤتمرات ويقرّرون قرارات ويقدّمون نصائح وإنذارات. ويبيّنون مشاكل الموقف وتعقّداته للطرفين ويصلحون ذات البَيْن. . إلى آخره. إلى آخره.

لم يكن هناك فائدة، فالبنت ميتة في أخينا. حسن يكمدُّ كل يوم زيادة ويطلق لحيته بشعراتها المتناثرة الموحشة، تتشاكىٰ الوحدة بعضها بعضاً فوق ذقنه. ورقبته ترفع كل يوم كأنما تطول وهي تخرج من ياقته المفتوحة وعليها الإيشارب القديم، مع أنّه يخبّط في البلد بالشورت القصير القافز إلى أعلىٰ فخذه الناحلة القبيحة، ويسهر في الليل يضرب في الشوارع إلى الفجر وحده. بذقنه. وبؤسه.

ومن الناحية الأخرىٰ ثمة قصص وإشاعات عن المَنْدَرة وصخورها والبحر وما يدور في أمواجه وهما هناك. والحفلات والكونسيرات. وهما يأخذان دروساً في الموسيقىٰ معاً الآن في معهد باجانيني في شارع النبي دانيال وسيذهبان إلى «الأوركسترا بالستين» غداً. وفلان رآهما أمس. وهكذا.

وأخيراً جاءت مسألة الخطاب. .

الخطاب. الخطاب. . يا لذاك الخطاب.

(كم كنت أودّ لو قرأته. كم كنت أودّ لو قرأته).

وحكاية الخطاب حكاية بذاتها.

رجع حسن إلى بيته ذات ليلة. وجلس إلى مكتبه ـ أوراق قليلة جانبه وثمّ كتب عربي وإنجليزي قديمة، صغيرة، أغلفتُها الورق باهتة أو باهتة التجليد. وروايات الجيب ملقاة هنا وهناك، وتلفّت حسن حوله وقرّر أن يكتب لها خطاباً.

وابتدأ بأن كتب على الظرف باللغة الإنجليزية: شرح لابد منه. A Necessary Explanation . وانطلق حسن يكتب، طويلاً. ولكنني لم أقرأ الخطاب.

على أنني فهمت من سياق الأحاديث أنه كتب لها يشرح طبيعة هواه. هواه العذريّ. كيف أنّه كان دائماً هوى نبيلاً. وبريئاً. وكيف أنّه هو ـ حسن ـ لم تمر في ذهنه خاطرة سوء. كيف أنه عرضت له ألف فرصة وفرصة لأن يَوْلَغ في الحب الجسديّ الماديّ الذي هي تعيشه الآن (هكذا) وكيف أنه ترفّع وتسامى. «هل تذكرين يوم أن انكسرت نظارتي وكنت أسير في الظلمة في الليل فاصطدمتِ بي فجأة لأني كنت من غير نظّارة ـ وصحتِ أنتِ في غضب: مش تبقوا تفتحوا شوية؟ ثم عرفتني فهتفتِ: الله حسن» وكيف أنه صاح «سُمَيّة»، فقط. وكيف أنه شرح لها موقفه ـ شبه أعمىً واعتذر ـ فأخذت بذراعه تحت إبطها وسارا معاً بهذا الشكل.. لكنّه «حافظ على شرفها» لم يفعل أي شيء «يؤخذ عليه». أما أنا فلا أشك أن ذراعه كانت طَوال الوقت تنخسه كأنما هي حقيبة من الإبر وأن موقفه كان في الحقيقة يدعو للرثاء. لأن مخّه كان قد فسد من الرومانتيكية

وغير ذلك وغير ذلك حكىٰ لها وشرح لها ووبّخها وعاتبها وشتمها في النهاية على ما أتصوّر. وأظنّ أنه قال لها شيئاً يشبه «عيبٌ عليكي يا امرأة» بالإنجليزي والعربي أو شيئاً ما ـ كل ما أنا متأكّد منه أن

الخطاب وردت فيه كلمة «إمرأة» مطبَّقةً على سُمَيّة ـ مِسْ سُمَيّة أبو نادي . .

وأرسل حسن الشرح الذي «لابدّ منه»، بالبريد المسجل. المسجّل، تصوّرا

الموقف الذي جاءني وصفُه بعد ذلك سمعته عندما جاءها الخطاب ـ كان صبحي في البيت معها ـ فقرأته. واصفرّ وجهها من الإهانة. لم تكن تتصوّر شيئاً من هذا كلّه. كانت تعتقد أن علاقتها به هي علاقة الزميلة بالزميل في كل براءة دون أن يمر بذهنها، دون أن يخطر على بالها، دون أن تتصور حتّى إمكان احتمال مجرّد تفكير في هذا النوع من الأشياء. . بكت بالدموع، وصاحت، وهدّدت وتوعّدت بأنها ستري هذا الخطاب ـ هذه الإهانة ـ لأبيها المحترم لكي يعرض الأمر على العميد ولكي يطرد المذنب الشرّير كاتب هذه الوقاحة من الكلية. يلقي به بعيداً إلى الرصيف!

ولكنّ صبحي هو الذي راح يهدّئها ويخفّف من ثورة الانفعال، أخذ الخطاب ومنعها من أن تُريه لوالدها. قام بدور ملاك التضحية. غريم حسن إذن هو الذي أنقذه من التردّي إلى الشارع والطرد إلى الرصيف. وهدأت سُمَيّة بعد ذلك قليلاً وهي تتعجّب من أفكار هؤلاء الناس. يتصّورون هذا. وهي إنما كانت تعاملهم معاملة اسبور. كزميلة. لا أكثر!

هكذا وصلني وصف الموقف عن طريق ذلك العمود من أعمدة الأخلاق الراسخة المكينة. على أيّ حال انفصمت تماماً علاقة حسن وسُمَيّة ـ زقزوق وظريفة ـ طبعاً، ماذا تتصوّر؟ وراح حسن يضع على راسه بيريه زرقاء ولا يحلق ذقنه فترة. ثم يعود فيمسحها. ويطلق شاربه. ثم يعود فيحبسه فوق فمه ـ الشعيرات المتناثرة المتشاكية

نفسها، تبدو بمظهر كئيب حزين. حسن قد يئس من العالم وراح يلعن كل البنات في العالم. ويلعن هذا الحب الوضيع الذي من الجسد. ويمشي بالشورت ورقبته تزداد طولاً في الهواء. والبيريه الكبيرة مائلة إلى جانب. تكبس رأسه. ويعلّق في رقبته ربطة سوداء نحيلة طويلة طويلة تتأرجح باهتة كبندول أسود.

وفي تلك الفترة عرفت منه ـ قال لي يعني ـ أنّ سُمَيّة بنت لا خلاق لها. أنها كانت تعرف دستة من الشبان. أنها كانت تمشي معهم بلا تورّع في كل مكان. أنها عابثة ومستهترة وشيء لا قيمة له على الإطلاق.

أما هما فقد كانا معاً. صبحي وسُمَيّة الآن. وعندما تخرّج من الكلية كانت هي التي بحثت له عن وظيفة وهي التي كانت مهتمّة بمصيره. وكانا قد خطبا حتى. هكذا سارت الإشاعات. وأعلن أحدهما ـ لست أدري مَنْ ـ استعداده لأن يتخلّى عن ديانته في سبيل الآخر.

واستمرّ هذا الموقف حتى بداية العام الحالي. عندما انقلب كل شيء مرة ثانية رأساً على عقب.

* * *

الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٤٢

في تلك الأثناء أحبها منير.

وكانت سُمَيّة، كما لا أحتاج أن أقول، تخرج مع زملاء الشلّة فرادى أو مجتمعين سواء، دون حرج، ودون تردّد، ذهبت مع سامي للسينما عدّة مرات، وتردّدت مع بدوي على المجلس البريطاني في شارع شريف، وعلى معارض الرسم في الأتيليه والصداقة الفرنسية.

الوجه الفاجع الحارّ للرومانتيكية نفسها، وجه ناعم، خادع، مبلّل قليلاً بندى الدموع. وجه طفلي تقريباً ولكنّه نهائيّ.

هل تخايلني من بعيد ساحات هذا الحب، من داخل الروح، وفي شوارع اسكندرية المسائية الهادئة، مظلّلة بأشجار قوية الحنان؟ ملعب الملك بأعمدته الرومانية الرخامية والخضرة تكسو ربوة الحديقة العامّة، تمتدّ وترتفع قليلاً، مدوّرة هندسيّة الجمال، وخرساء لا تقول شيئاً.

شِعْر سولي برودوم في عينيه العميقتين.

سُمَيّة مع منير، رشيقة وممسوحة القوام وفستانها منسدل منسرح على جسمها الرفيع، وجهها الطويل الأبيض الذي فيه ما يوحي بشموس شمالية باردة، شعرها ناعم ساقط ليس فيه أدنى تموُّج، ونظّارتها التي تعطيها مسحة ذهنية.

ومنير، هادىء، تدفُّق الروح المنبثقة مكتوم، مُحْنِيّ الرأس قليلاً، يسير إلى جانبها، ليس في هذا العالم.

* * *

«بدوي

رأيتها اليوم صباحاً، مررت بيدي على شعرها، ولمست جبينها بشفتي، وأحسّتْ ما بنفسي، واختلجت عيناها، وخفت أن أبكي.

لا تتركها أبداً يا بدوي. وارْعَها من أجلي.

فهي تعسة، وأنا أعبدها.

منير

الجمعة ١٩٤٥/٥/٢٥

* * *

٢٦ مايو ١٩٤٥

كم يبدو كل شيء مجدباً. ماحلاً ماحلاً إلى حد الموت وليس بشيء. أن أكتب الآن هنا. حفنة أخرى من الكلمات. لماذا أكتب. ما قيمة هذا الذي أكتبه. أجرّ القلم على الورقة. ببطء. كل شيء لا معنىٰ له. وفي يدي ثقل راكد.

حوالَي الساعة الحادية عشرة كنت أطلّ من نافذة بيتنا. ومن زاوية الشارع ظهر سامي، وبدوي. أول مرة يأتيني فيها سامي إلى البيت. وأول مرة منذ زمن طويل يأتيني بدوي. ولكني شعرت بالحقيقة على الفور. شعرت بها كحدث يهبط إليّ. يقبض قلبي. ويجعلني أقف جامداً في النافذة. وقد ثقلت دمائي في جسمي.

ما معنىٰ هذا الكلام؟ ما معنىٰ هذا الهراء. ما الذي أنا أكتبه؟ كلمات تحكي حكاية. حكاية. حكاية. أخرىٰ.

لكني كنت أعرف. إنه مجنون آخر. لماذا أكتب عنه بهذا الشكل؟

منير ضرب نفسه.

هذا هو كل شيء.

ألم أكن أنا أعرف؟ ألم تكن لَمْسَتُه وهو يصافحني ويقبض على يدي منبئةً؟ ألم تكن كل كلماته. وتصرّفاته. ونظرته نفسها معبرة تهدف إلى شيء واحد؟ لكننا كلّنا كنا جبناء. لم نستطع أن نفعل شيئاً. وما ضرورة أن نفعل شيئاً؟ العقم في كل شيء. الجمود. الإجداب.

كان يبكي عندي، في غرفتي، حينما جاءني.

كان يعرف معنىٰ هذا الإجداب في كل شيء. كان يعرف الوحشة التي في كل شيء. لأنها في الروح الرقيقة المقهورة. الروح المُتْعَبة. وقد سقطت.

ألا نحكي الحكاية؟ ألا نصرخ هذه الوحشة في صرخات مكتوبة لا تختلف في كثير عن صرخات القرود؟ حكاية واحدة. تلك الحكاية القديمة. حكاية لا معنىً لها. لا ضرورة لأن تُحكىٰ.

لم أكن أدري ما الذي دفعني في عصر ذلك اليوم. منذ حواليّ أسبوع واحد. أسبوع واحد فقط. لم أكن أدري ماذا أفعل وكان الأصيل جميلاً. والسماء في زرقتها العميقة الصافية. الزرقة الخالدة التي لا تُقارَن. والنسيم رقيق وتلك الخدعة تملأ قلب كل إنسان. خدعة الجمال في السماء.

كانت صدفةً أنني لم أجد حسن في بيته وأنني فكّرت في أن أذهب إلى منير. نعم لم لا أذهب؟ سأذهب إلى منير. مجرّد صدفة. لو لم أكن قد خرجت في ذلك الأصيل لكان ممكناً كلّ الإمكان أن يمرّ كلّ شيء بعيداً عني. وأن تمرّ تلك الروح المرهفة التي تألّمْتُ كثيراً، وأحبَبْتُ كثيراً ـ دون أن تنالني منها تلك اللّمسة. مجرّد تلك اللّمسة التي تملأني الآن بالنّار المثقلة، الراكدة كصرخة مدفوعة في أحشاء التّراب.

ذهبت إلى بيت منير في محرّم بيه. وكان قدال هناك. ثمّ نزل قدال بعد لحظة. وجلست أنا في الرّكن في غرفة الصالون بفوتياتها الكبيرة المريحة وفيها مكتبه الصغير. وكانت مفاجأة لي أن يبتدىء منير يقرأ لي شعره. كان ذلك يخالف كل المخالفة ما أعرفه عنه: أنه كان دائماً خجولاً من شعره. لا يحبّ أن يقرأه لأحد ولا أن يعطيه حتى لأحد. ولا أن يُشار إليه.

ولكني شعرت بشكر بل بعرفان جميل. وبمعرفة جديدة لهذه الروح. الروح الغنيّة المجهودة. وكان في صوته عمق أخافني. كانت قراءته لشعره نوعاً من الموسيقى التي ترتمي في النفس كأضواء من السماء، وتغوض كثقل من الوحدة.

لماذا أحكي أنا؟ لماذا أتكلم؟ ما قيمة كلّ هذا الآن؟ ما معناه كلّه؟

نـزلنا وكـانت الساعـة بعد التـاسعة. والقمر يصّب ضوءه. هـذا القمر القديم. أبيض هناك في السماء ويصّب ضوءه علينا. وقلت أنـا إنه منذ زمن طويل وأنا لم أمشِ في القمر بـالليل. منـذ زمن طويـل. كان يعرف أنه هو لن يمشي الآن كثيراً في القمر بعد.

وابتدأنا نتكلّم في برنامج الدراسة.

عـبرنا السـاحة أمـام الملعب. وقـطعنـا شـارع فؤاد. وكنت أتكلّم (بكل بلاهة) عن عيوبه هو: لماذا يحبّ دائماً أن يساير الناس وأن ينكر رغباته الصغـيرة. لماذا يحبّ دائـماً أن يؤدّي واجبه ـ مجـرد واجبه ـ إزاء النـاس لماذا لا يـتركهم إلى الجحيم إذا كان يحس أنهم يستحقّـونها بل يحاول دائماً أن يقوم بواجبه الإجتماعي معهم؟ وكل هذا الهراء.

كان قد ترك معي قصيدته «التماثيل».

وجاءني بعد يومين. وقرأ لي شعره مرة أخرى. هذا العذاب الذي كان في صوتـه. كان يبكي. بـالفعل كـان يبكي. وكنت أنا جـالساً، خامداً لا أعرف ماذا أفعل، ولا أفهم. لكنني عرفت ساعتها. كـانت كل نبرة من نبرات صوته المرتجف نـاطقة. كـان يريـد أن يستعيد مني كل ما كتب. ولكن بدا له في النهاية أن هذا مستحيل تقـريباً. فـترك كل شيء كما هو. كان دائماً هكذا. وديعاً مع الحياة. أدرك الآن أنه لم يكن قد خُلق للحياة. الحياة كانت جديرة به. لكنّها غبيّـة. خذلتـه. تركته يناضل وحده. وهو كان مُتْعَباً.

حاولت أنا أن أفعل أيّ شيء. لكني كنت أنا أيضاً جباناً وخائفـاً. خفت أن أزيد ألمه. خفت أن أكون قد أسأت فهمه، لم أكن أعـرف إذا كان حدسي صحيحـاً أو وهماً. كنت أعـرف ماذا في رأسه. ولكن

الشك أيضاً كان يمزّقني. كنت أخاف أيضاً أن أبدو أبله حقاً، ألم تكن الفكرة حقاً في ذهنه؟ وبالطبع كنت غبياً أعمى. كل شيء كان يشير إلى أنه قد نفض يديه من كل شيء.

عندما سألته لماذا يريد أن يجمع قصائده، أجاب:

ـ أصلك أنت مش عارف يا عبيط. أصل it's over كل شيء إنتهى يعني.

وخيّل إليّ أن هذا فيه الوضوح الصاعق. وكنت أرتعش وأنا اجيبه: أبداً لم ينتهِ أي شيء it's not over .

كنت آملاً أن أستطيع أن أهدّئه. كنت آملاً أن أستطيع أن آخذ بيده في تلك التجربة الشريرة. ولكن في اللحظة التالية خُيّل إليّ أنني لم أفهمه. أنّ كلمته تلك غامضة، أنّ ألف معنىً يمكن أن ينطبق عليها، أنّه ربما لم يعنِ الحياة، بل كان يعني مجرّد حبه. لم أكن قد تحقّقت حتى تلك اللحظة من أنّها شيء واحد. شيء واحد عميق. عميق حتى عنصر الوجود ذاته. تلك العاطفة التي أحالته هو كله جزءاً منها، التي أحالت حياته، كما قال: «حلماً قصيراً كئيباً» بكل العمق، والرقة والنبل التي في روحه. لم أكن قد تصوّرت الحب حتى تلك اللحظة إلاّ شيئاً واحداً من بين أشياء أخرىٰ في غمار الحياة. بعضاً من الحياة. هائل وعميق. لكنه لا يصل إلى أن يكتسح كل الحياة، ويحيلها نغمة ذابلة من أنغامه.

(بعد ذلك سوف يبدو الأمر مختلفاً).

اضطربت. كنت أرتعش وكان كل شيء مختلفاً. لم أستطع قطّ أن أفعل شيئاً.

وعندما قلت له باستسلام: أعتقد أنا أن كل دوري هو أن

أوصلك إلى بيت بـدوي وأن أرجـع. هـذا هـو كـل شيء. أن أمشي معك فترة وأرجع. قال بهدوء:

ـ أبوه. حقيقي.

كان كل شيء ككابوس. وكنت، كما يحدث في الكابوس، أحـاول أن أمدّ يدي. أن أرجعه بشكلٍ ما. لكنّي لا أستطيـع، كنت مشلولاً بإزائه. وأنا أراه يسير في طريقه تلك. لـديَّ كل الجنـون أن أمدّ إليـه يدي. ولكنّ يدي كانت مشلولة إلى جانبي، كشيء غريب.

قلت له في الطريق:

ـ إننـا الآن نـرتكب ألف غلطة. نتخبّط. ونعمـل مـالا نـريـد أن نعمله ونتعثّر ونضطرب ونختلط.

ولم أكمل.

ولكنّ ذلك أيضاً كان من الكابوس. لم أكن أملك شيئاً.

وأمام بيت بدوي قلت له أخيراً:

ـ أظن أنا لا أستطيع أن أعمل أي شيء إلا أن أرجع؟

صمت.

كـانت شفتاه تـرتجفان. ووقف أمـامي طـويـلاً. دون أن يتكلم. طـويلاً والـدقائق تمـر واحدة بعـد الأخـرىٰ ببطء. لم أكـد أطيق تلك الدقائق الطويلة. تلك الوقفة الصامتة الجامدة. لم أكد أطيقها.

وعندما مد إليّ يده قال لي بهدوء: ستغفر كل شيء. قريباً.

أنا أغفر؟

يا لها من صياغة، وكم فيها من حرارة وبراءة كاملة.

كنت مـاأزال معتقـداً أنني مخـطىء في كـل تصـوّراتي، أنْ ليس في ذهنه شيء من هذا القبيل.

قال لي إنه سيعود إليّ يوم الجمعـة. وفي تلك الليلة نمت مضطربـاً حوالَي الساعة الثانية صباحاً.

في مسـاء الأربعاء صّممت عـلى أن أذهب لسـامي بعـد أن تـركـه منير، لكي يفعل سامي شيئاً مـا. أو على الأقـل يفعل شيئـاً إيجابيـاً. يذهب إلى أهله في البيت يحذّرهم. مر في ذهني حتى أن أغري سامي على أن يذهب للبيت، أن يغتصب الدُّرّج الذي فيـه المسدس. كنت أعرف أن لديـه المسدس الصغـير. أن يقلب المكتب إلى غرفـة أخرىٰ وأن يُحدِث ثورةً ما. أن يُحدِث شيئـاً صبيانيـاً أو جنونيـاً يوقف التيـار المندفع في ذهن منير. ربّما مرّت الأزمة.

ولكن بـدا لي كل شيء سخيفـاً وأحمق: أن أذهب لسامي السـاعة الثانية عشرة ليلاً لأحكي له عن تصوّرات لا أعرف كيف أقيم عليهـا الـدليل. أن أغـريـه أن يقلب غـرفـة منـير أو أن يكسـر المكتب أو أن يفعل شيئاً ما. خُيِّل إليَّ أن هذا كله حماقة.

رجعت إلى البيت.

وجـاءني في يوم الخميس ولم يجـدني. ورأيتـه بسرعـة يـوم الجمعـة الظهر. ثم عـاد يوم الجمعـة مساء لـيراني في البيت. بالأمس. مسـاء الأمس فقط.

قرأ لي آخر ما كتب. وكان يبكي. هنـا. أمامي وهـو جالس عـلى الكنبة. أرىٰ عينيه النّديتين من الدموع. مازلت ألمس تلك الرجفة في صـوتـه. وتلك السخـريـة التي أراد أن يُنهي بهـا كـل قصيـدة من قصائده. وهو يقرأها لي.

أرسل خطاباً إلى وفيق، كأنه يُنهي طقوس التوديع. وعدنا فقطعنا الطريق كله في صمت. صمت تام مطلق. وأنا أحس أنه يريد أن يقول لي شيئاً ما. ولا يستطيع. ولكنه فيما عدا ذلك كان عادياً. لم يكن محموماً كما كان في تلك الليلة الأخرى بل خُيِّل إليّ أنه هادىء. واعتقدت أن الأزمة مرّت. أن كل شيء في مستوى طبيعي إلى حدٍّ ما.

ولكنه كان يريد أن يطيل خطواته معي. كنت أحسّ بذلك.

لا معنىً هناك.

لم يقل لي قط ما كان يريد أن يقول. وعَبَر الخطوة الأخيرة الباقية أمامه.

منير. منير.. لماذا فعلت هذا؟ لماذا ارتكبت تلك الحماقة الأخيرة؟

عندما ضغط على يدي يومها لم أفهم شيئاً. ورجعت بهدوء. أمشي ببطء، في القمر. وأفكّر فيما ورائي من واجبات.

والآن يثب إلى كل شيء معناه الواضح. كل كلمة من كلماته كانت صارخة منبئة. وكنا كلنا عمياناً. ولا حول لنا. أحقاً لم نكن نستطيع أن نفعل شيئاً؟ أي شيء؟؟ على الإطلاق؟ على الإطلاق؟.

وأخيراً، ماذا؟

حفنة أخرى من الكلمات.

ماصلة هذه الكلمات بما تتكلّم عنه؟ بما تحاول أن تتكلّم عنه؟ لا صلة على الإطلاق. لا تعني شيئاً.

* * *

(٢)

قصاصات رومانتيكية أيضا

(جافّة وذابلة الشكل)

وصلني الخطاب في مظروف كان لونه وردياً، عليه طابع بريد «الدولة المصرية» باللون الأخضر، وصورة فاروق الفتى بالطربوش، بستة مليمات.

كان ذلك يوم ٢ يناير ١٩٤٣ ـ هل لذلك أدنى أهمية؟ ـ وكان العنوان بالفرنسية على الكلية، جامعة فاروق الأول، محرّم بيه، الإسكندرية. وعنوان المرسل منه على الخلف: جانيت حنّا، الجامعة الأمريكية، القاهرة.

كنت أعرف أنها ليست في الجامعة الأمريكية ولا في غيرها، بل كان صديقي وفيق هو الذي كان عندئذٍ طالباً مستجدّاً ـ «فِريشْمان» برطانتهم ـ ولم يتجاوز تلك السنة هناك، نقل نفسه إلى كلية الآداب بالإسكندرية في السنة التالية.

ذلك أنه في صيف ذلك العام، وبعد قصة غرام عذري حارّ بينهما، خطبت جانيت لرجل آخر، ووافقت، وحاول وفيق الإنتحار، دفع معصمه وقطع شرايين يده في زجاج باب بيتهم في الفجّالة، لولا أن خالته لحقته وعصبت يده النازفة بمنديل رأسها عصبةً مُحْكَمَة، فأوقفت تدفّق الدم.. لكن تلك قصة أخرى.

«عزيزي

لست أدري تماماً كم مضىٰ على تلك الأيام الحلوة التي قضيناها في الاسكندرية، كنت أودّ أن أكتب من زمن. ولكن لم أجد وسيلة لذلك، وأنا أجهل عنوانك أو بأي كلية التحقت.

وهاقد علمت بذلك أخيراً من وفيق عندما جاء لقضاء إجازته هنا. وهاأنذا أفي بوعدٍ لم أقطعه لك ولكن قطعته على نفسي من ذلك اليوم الذي رحنا نقطع فيه شوارع سيدي بشر، والكورنيش، كثلاثة من الفلاسفة المتشرّدين!

كنت أنصت إلى ما تقوله طوراً، وإلى ما كان يقوله حبيبي طوراً آخر، فأحسّ نشوة عميقة لم أعرفها من قبل، نشوة من يحسّ بأيدٍ غير منظورة تحيطه برفق وتخلّصه من جوّ مظلم بغيض كي ترفعه إلى جوٍ حبيب من ضياء الفجر أو نور الصباح. كنت أنصت إلى سخرية وفيق بلذة من يشهد معولاً ذهبياً يَهوي في ضربته الأولىٰ على صرح مقيت رسف في غُلّ ظلاله أمداً غير قصير، وكنت أصغي إلى كلماتك الهادئة التي كان يُخيّل إليّ أن الحُمّى والسكينة يصطخبان معاً في أعماقها، فأحسّ إحساس إنسان دفين قذف به هياج بركان مقدّس إلى قلب السماء».

يا ولد!

كل هذه الرومانتيكية يا جانيت العذبة، المندثرة، التي لم تلبث بعد شهور قلائل أن تتزوّج رجلاً بكرش ووظيفة محترمة وأطيان، وأن تتخن، وتعكف على الطبيخ والغسيل وشغل البيت، وتخلّف نصف دستة أولاد وبنات.

كل البضاعة هنا، والبقية تأتي، النشوة العميقة والأيدي غير المنظورة والفلاسفة المتشردون الذين يقذفهم هياج بركان «مُقدّس» إلى ضياء الفجر، والملائكة الذين لهم أجنحة إلهية، وهناك أيضاً المعول

الذهبي الذي يُهوي على الأغلال، وكل شيء يجري في جو حبيب، كلّه مقدس، وعلويّ، وطاهر إلى آخره إلى آخره.

«يا إلهي كم كان يُخيّل إليّ أنني أطير محلّقة بين اثنين من الملائكة ترفّ أجنحتها الإلهية في أجواء السماء والأرض وكل الوجود!

منذ ذلك اليوم تفتّحت نفسي لعبير مجهول يهبّ رقيقاً عميقاً من أرض مجهولة «أرض الزهور والجنيات والينابيع المسحورة» ومنذ ذلك اليوم، يا صديقي، أقسمت دون أن أشعر بأن أهب نفسي وقلبي وحبّي وكل مشاعري للجمال والطبيعة والسموّ، كما أقسم «شيلي» يوماً في فورة من الألم والنشوة المقدّسة!..»

يا للأقسام والعزائم..! كم حَنثْنا..! كم نَكَلْنا..!

أما شيلي فقد انتهىٰ به المآل إلى قاع يمٍّ عميق.

أما نحن فقد كنا في السادسة عشرة من أيام صبانا الغرير، أو نحوها.

كانت جانيت تُرسل شعرها البنيّ الغامق، كثيفاً وناعماً، ينسدل حتىٰ كتفيها، وتعقص منه كعكة صغيرة غير مُحْكَمَة تقع فوق جبينها، على اليسار، كموضة تلك الأيام.

سمراء رائقة السمرة، عسليّة العينين، تعلّمت عند «الفرير».

مازلت حتىٰ الآن أحتفظ بصورة أخذها لنا، يومها، على شاطىء سيدي بشر، ذلك المصوِّر الجوّال الذي لا يشتغل إلا في نور الشمس، يحمل عدّته الكبيرة، على كتفيه، ويقيم الكاميرا على حمّالات يغرسها جيداً في الرمل، ويدخل في القماشة السوداء التي تحيط برأسه، ويهتف بنا من داخل غرفته القماشية المظلمة، يمين، شوية كده، بصّي فوق يا مدمزيل، ضحكة صغيرة للنبي..

كويّس. . واحد إتنين. . هوب. ويغمس «العفريتة» النيجاتيف الأسود الذي يطبع على ورق تخين مخصوص، في وَعاء المُظْهِر، ثم في جردل الماء، ويخرج الصورة مبلولة تشرّ بالماء، ويهزّها ينثر الرشاش من عليها قبل أن يسلّمها لنا جذابة وطريّة ومُغْوية.

مازالت عندي، غير جافّة، وغير ذابلة الشكل.

كانت جانيت ـ في الصورة ـ تقترب مني لكي تضع يدها على ذراعي، لأنني كنت على مبعدة منها قليلاً، أما وفيق فقد جذبها إليه، ووضع ذراعه هو على ذراعها الأخرى.

كانت بالروب القطني السابغ ـ هل كان لونه يميل إلى الأصفر المشمشيّ المألوف؟ وهل كانت ترتدي تحته المايوه اللمّيع الذي يجبك أعلى الساقين، ولكنه يسمح بجانب كريم علويّ من الصدر؟ أظن ذلك.

أما وفيق فقد كان، في الصورة، بالمايوه الكبير المتهدّل خفيف القماش، منبعجاً من أمام على نحو بارز، بينما وضع ذراعه الأخرى على كتف أخته هانم، صعيدية الوجه صارمة الملامح، تزوّجت بعد ذلك واختفت من حياته تماماً، سألته عنها فقال إنه لم يرها، يمكن، من أربعين سنة، بعد أن مات أبوه ناظر محطّة سكة حديد صفط الملوك.

أما أنا، في الصورة، فقد كنت أمسك بيدي كتاباً، أذكر الآن فقط أن غلافه السميك كان من ورق مُقوّي صلب مغطّى بقماش أحمر اللون، هل كان الكتاب هو تلخيص شارلز لامب الشهير، بالإنجليزية، لمسرحيات شيكسبير؟ أذكر أيضاً أنني حتى أصل إلى سيدي بشر بالترام من بيتنا في راغب باشا، ويبقى معي احتياطي في جيبي، بعت قبلها بيوم، للبيّاع الذي مرّ من تحت البلكونة:

«بيكْيا. . . بُوتيلّيا» كتباً عزيزة إليّ من المقرّرة علينا في التوجيهية: كتاب الجبر الضخم رماديّ الغلاف، وكتاب الهندسة، وقاموس وِسْت الإنجليزي الذي أفتقده حتى الآن، وتلات أربع روايات بوليسية أرسين لوبين وشرلوك هولمز، وروايات ماري كوريللي، وأخذت منه سبعة قروش بحالها. ألم نكن قد نجحنا؟ وبتفوّق؟ خَلَاص نبيع الكتب، وماله. . !

كنت يومها بقميص مفتوح وجاكتة اسبور صوف ـ على البحر، في عزّ الصيف ـ مربعات فاتحة الزرقة، بزرار واحد مقفل، مكّور، داكن اللون كنت أحب أن أتحسس حزوز نقشته البارزة، وجيوبها منفوخة بما فيها من أوراق شعر حرّ ومنثور ومسوّدات قصص لم تكتب بعد ذلك قطّ وحوارات مسرحية فيها كلام عن كيوبيد والشيطان والملائكة و«أرض الزهور والجنيات والينابيع المسحورة» وكانت الجاكتة قصيرة قليلاً على البنطلوب الرمادي الفاتح المجعبب المتهدّل الذي لم يعرف المكوى مذ أن اشترته أمي أول السنة، أو لعل قماشه لا يفتأ ينهمر بعضه على بعض، فلم يكن عندي غيره، وكان يسقط ويكاد يُخفي الجزمة الشيك المشكّلة أبيض على بنيّ التي كنت أعتزّ بها وقد غاص بوزها في الرمل الناعم، كانت تكمل طقم البدلة الشاركسكين التي اشتراها لي أبي بعد ذلك، على دخولي الكلية.

ألم نكن قضينا ساعة ساعتين من الصبح العالي، معاً، أربعتنا، على تلك البقعة الرملية، البرّية تقريباً، المعزولة من وراء سور الكورنيش الذي كان مصنوعاً من أنانبيب حديدية متقاطعة، تحت سفح الصخرة التي كان أعلاها ناديَ السيارات الملكي؟

جانب الصخرة الذي أوينا تحت كنّه كان مجوّفاً قليلاً عند التقائه بالرمل، وكان منقّراً بتجويفات متآكلة كثيرة، وجهه المحبّب الذي

يضرب إلى سُمرة كابية كامدة بين البنّي القذر الاصفرار والرّماديّ الدّاكن ولون آخر كأنّه ظلٌّ أخضر باهت خفيّ مُضْمَر.

قفزنا من فوق سور الكورنيش المتقاطع الأنابيب، أوشك بنطلوني أن يتمزّق ولكن ربنا سترا وانزاحت الأرواب عن سيقان البنات السمراء المدملجة. لم ننزل الماء، ربما لأنني أتيت بملابسي الكاملة على سبيل التوقُّر والبيوريتانية والفلسفة أيضاً، أو ربما لأنني لم يكن عندي مايوه ولم أكن أنزل البحر في تلك الأيام.

أما على سِيف البحر فقد كانت هناك صخور صغيرة مشققة الحوافّ ومتداخلة وفيها حُبُوس يترقرق فيها، بركود، ماءٌ ساكن، في بِرَكٍ صغيرة على قيعان من رمل أبيض ناصع أو من صخور مدبّبة شائكة دقيقة لكنّها تُؤذِن بشرّ، وبينها أحجار من مخلّفات البناء ـ سقطت عن نادي السيارات الملكي؟ ـ وقد تحوّلت من الشمس والبحر إلى شكول برية مبريّة تقريباً وتعلّقتْ بها طحالب لزجة خضراء تهتزّ خيوطها مع رقرقات البحر الملحيّة.

جلسنا على الرمل، في ظل الصخر، وتحدّثنا طويلاً.

من يدري فيم كانت «أحاديث الفلاسفة ذوي الأجنحة الملائكية»؟ عن الحب الطاهر الذي لا يلوّثه الجنس ولا الزواج، ربّما؟ عن شيلي وكيتس وطاغور وأغاني الجيتار؟ عن علي محمود طه والجندول؟ عن أعماق الكون غير المنظورة وغير المدركة والنجوم التي تجيء إلينا عبر ملايين السنين الضوئية، تومض لنا الآن وتشعّ بعد أن تكون ربّما قد بادت وتحللت في ظلام الكون منذ دهور وآباد؟ ربّما..

كنا قد تغاضينا، بقرار جماعيّ غير مُفْصَح عنه، عن نفايات متناثرة على حوافّ الرملة والصخور الصغيرة ولِصْق جانب الصخرة الكبيرة: فردة قبقاب منزوعة الجلدة، نَعُم خشبها وبانت تعاريجه الداخلية

خيوطاً رقيقة متواشجة في باطن الخشب، وعِلَب سجاير هوليوود والفيل ضاعت ألوانها ولم يبقَ إلا جلدها الورقي الأبيض عليه خطوط وتصاميم رمادية، قطع قماش ممزوقة نحيفة وناصلة النسيج، وفضلات مميّزة لا رائحة لها الآن، جافة وصلبة، مخروطات صغيرة مدوّرة التعاريج، داكنة، وقطع صدئة شرّيرة الشكل من صفيح بنّي محمّر، وأعقاب سجاير غاصت في الرمل وانفرط ما بقي فيها من دخان فتائلَ مفّتتة، وغيرها.

ولكننا كنا في أرض الزهور والحوريات. . إلى آخره.

وكنا نتحدّث، متّكئين على الرمل، وأنا بملابسي الكاملة.

وأكلنا سندويشات جبنة وفراخ كانت هانم وجانيت قد أحضرتاها من البيت، من وراء أهل البيت.

ولم تمرّ الحكاية على خير، طبعاً.

من الكورنيش، ونحن في غمار التفلسف والشعر والضحك، جاءتنا من فوق، صيحات شلّة العيال التقليدية، بالنداء التقليدي المتلمظ البذيء: «سيب المعزة ياخروف. . ! . . الخنزيرة ياحلّوف!» وتنمّر وفيق وهمّ بالنهوض ليؤدي واجب الخناق التقليدي، ربّما، أو لأن دمه فارَ من حَميّة، ربّما، ولكن جانيت وهانم، طبعاً وحسب الأصول، هدأتا من ثورته: «اعقل يا وفيق، سيبك منهم، دول حيوانات، حتعل عقلك بعقل عيال صِيّع، هو أنت تُوبك من توبهم برضو. . ! . . إلى آخره.

وقررنا، مرّة أخرى، أن نتغاضىٰ عن بذاءات العالَم.

ولما طلعنا على الكورنيش، في أول العصر، أخذنا جيلاتي، وأكلنا ذرة مشوية، ونفع احتياطي القروش الذي كان في جيبي.

في عز عقابيل عدوان ١٩٥٦ وفي حُمّيا انتصارات وهمية وحقيقية، وفي خضمّ تغيّرات مخاضٍ بسبيله إلى أن يحوّل وجه الوطن ويزلزل علاقاته - هل كنت، حتى في ذلك الحين، أستشرف آخر السكّة، حيث نصل الآن إلى انحسارٍ حقيقيّ لتلك الأمجاد، وهميةً أو حقيقيةً كانت، على السواء؟

وكنت أنا ونعمتي الباقية نأخذ جيلاتي، ونأكل ذرة مشوية أحياناً، على الكورنيش تحت كازينو «لاكْورْنا» في سيدي جابر الحمّامات.

كنت غارقاً في رومانتيكية أخرى، حقيقية، صاحبة، تحلّق بالروح وتحيلها سحابة هائمة لكنّها تحطّ دائماً في ساحة الأرض، أرضِ الكدّ والدأب.

قصاصة من خطاب على ورق وردي آخر - لكنّه حتىٰ الآن غير جافّ وغير هشّ - أما طابع البريد فهو أحمر اللون وعليه شعار «مصر مقبرة الصليبيين» ورسم لرمسيس الثاني يضرب بسهمه حشود الحيثيّين، والشعار نفسه بالإنجليزية: Egypt tomb of Aggressors والتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٥٧، والمظروف معنون بالفرنسية: ٤١ شارع بوباستيس، كليوباترا الحمّامات الرمل، الإسكندرية، والخطاب عليه رقم (٢) ومكتوب أيضاً بفرنسيتي الدقيقة المعتني بها:

«حبيبتي

خرجت لألقي الخطاب الأول، وعدت على الفور لأكتب هذا الخطاب الصغير. بنفسي أن أقول لك إنني أحبك، وأقولها لك بقصيدة صغيرة من النثر كتبتها الآن لتوّي بين الخطابين. هذه الكلمات القليلة قد راودتني منذ وقت طويل، هذه بضع صور وأفكار كانت تدور برأسي وتملأ روحي، وهي لك يا حبيبتي، وها هي ذي، بالفرنسية والعربية معاً:

أعطيتني الشمس والقمر
في يديّ.
وسماء الصيف بسحابها الأبيض.
تحت يدي وجه الشمس الناعم
طراوة وجنتك
ندىٰ الصبح على زهرة بيضاء
ندىٰ الصبح على وجه الشمس
تحت يدي الشمس
تحت يدي
ليس في نافذتي إلا قطعة من السماء
شمس وراء الحيطان
سمائي صافية، مبتردة.
سماء الليل عيناك
نور القمر يغمر قلبي
قمري بعيد وحارّ في عمق عينيك
ذراعاك سحابي الأبيض في سماء الصيف
بعيدة عني وملء قلبي
ليس هناك إلا نور حبّي وحبّك
وجهك وعيناك
تملأ السماء
آمل أن ذلك سوف يقول لك شيئاً، هذه الأبيات المتعثرة الهوجاء

أعرف أنك سوف تغفرينها لي. ليس هناك في صفّي إلا شيء واحد، سبب واحد يبرر كل شيء، ويغفر كل شيء، سبب قويّ جداً، لا يُدحض، هو أنني أحبّك.

حبيبتي إلى لقاء قريب.

شاعرك يقبّلك. أنت قصيدته السامية الوحيدة، أنت وحدك، قصيدته التي لها جمال لا يساويه شيء...»

أما جانيت فكانت قد كتبت لي، قبل ذلك بخمسة عشر عاماً:

«ألم نكن أسعد الناس عندئذٍ يا صديقي وقد اجتمع لنا أسمىٰ ما في الحياة وما في الوجود كله: الحب والصداقة والفنّ.

يا إلهي. إني أعجب كيف احتملت نفوسنا الرقيقة سعادة تلك الساعات دون أن تمزّق سجونها الضيّقة وتنطلق عبر الفضاء إلى.... إلى أين يا صديقي؟

هذا هو السؤال الذي يملأ نفسي ويشغل تفكيري. من أين تأتينا كل هذه الأشياء الشبيهة بالأحلام: الفن والحب والصداقة؟

أليست أحلاماً تأتي إلى نفسي من داخل أعماقها وأغوارها البعيدة كيفما تضفي عليها أردية ناصعة من النور والنقاء؟

ولكن هذا يكون مخيفاً!

أيكون كل شيء في داخل النفس؟ أحقاً نحن نعيش في داخل أنفسنا؟ أحقاً كل ماهو حولنا، كل ماهو خارج هذه النفس، فراغ؟

أليس هناك...

يا إلهي، ماهذه الأوهام؟ إنني أشعر بخوف كلّما فكّرت في هذا كله.

إن التفكير في هذه الأشياء يشعر الإنسان بلذةٍ رفيعة.

وماذا أقول أيضاً غير كلمة تعبّر عن كافة مشاعري إزاء هذا التفكير: حيرة مقدّسة!

يخيل إلي أن وفيق حبيبي مذنب قليلاً. إنه لم يعد يحدثني بشيء. وقد كان في الماضي كثير الحديث عن هذه الأشياء، فكأنه فتح لي بيديه الحبيبتين هذا العالم النورانيّ وقادني في مسالكه النورانية قليلاً ثم تركني بعد ذلك وحدي..

أ... ماذا أقول؟ أنت تفهم طبعاً.»

هل كنت أفهم حقا؟

وهل كان قلبي يهتزّ أمام هذه الشطحات من حبيبة صديقي وهي تفضي إليّ بما أسمته «حيرتها المقدّسة»؟

ألم تناوش خلفيةَ نفسي شكوكٌ خفيّة صغيرة سرعان ما نفيتها عني، إذ كنت أتساءل: أهذه حقاً لغة جانيت حنّا؟ أهذه حقاً هواجسها ومشاعرها؟ وهذه التقنيات في الكتابة الفنية! السؤال، مثلاً: «ماذا أقول؟» والجواب: «أنت تفهم طبعاً». التردّد في الكتابة وأداء هذا التردّد بالكتابة: «أ... ماذا أقول؟» ألم يكن وفيق قد أملى عليها تلك الرسالة (وذلك «الخطاب» كله برطانة هذه الأيام!) أو على الأقل صحح لها وأعاد كتابة مسوّدتها، ألم يكن في النهاية هو الذي حقنها بهذه «الرومانتيكية»؟

«إن وفيق لا يكتب لي الآن. ولست أدري ما معنى هذا. ولكنه معي منذ الخميس الماضي.

وفيق قد خرج الآن للصيد وسيعود بعد مدة يسيرة فأرِهِ خطابي. وسيكتب لك طبعاً».

خرج للصيد.

هذا الرومانتيكي الذي يهيم حباً بأناس مثل غاندي، وطاغور، أثمته في حياتنا الأرضية هذه شعراء مثل شيلي أو سولي برودوم أو بول فاليري، رأيته (لم أره قط) يحشو بندقيته الطويلة الفوّهة. يعلّقها على كتفه، يعبّيء الجربندية بعلب رصاص الرشّ للعصافير والطيور، والعلب الأخرى المرصوصة فيها طلقات الرصاص النحاسية الصفراء، مدوّرة، مدببة الأطراف، مرتبة بنظام في صفوف، خِلْف خِلاف.

يركب الكاريتّة مع خاله حنّا بيه، تنطلق بهافرس صغيرة الجسم دقيقة الرأس متوفّزة كأنّها طفلة تتكشّف الحياة، تتشمّمها بخطمها الحسّاس، تنشق نسيم الصحراء التي تنتظر هناك على مدى الشوف، وتخترق المدقّات الرملية الناعمة بين حقول التين والشمّام البلدي الذي فاحت راحته الخضراء العبقة، حتى يصلوا إلى أشجار الكازورينا والتوت والنخل الرشيق والسنط والكافور، عتيقة وارفة الظلال على مياه الترعة المنسابة بين جسرين رمليين يابسين.

يهتف وفيق بالفرس «ليلى» فتحدّ أذنيها وتنصبها متوتّرتين ترتعشان، ثم تقف على الفور وهي تحفر الأرض برجليها الأماميتين.

عندئذ فقط يفيق الكلب البوكسر من غفوة لم يكن قد سقط فيها تماماً، يناديه حنّا بيه بصوت آمر يعرف أن سطوته لا تردّ «تشرشل» فينفض عن جسمه الذباب الكبير الأسود الذي كان يحط على جلده كأنما يلزق به، يكشّر الكلب عن أسنانه قليلاً وهو يزوم بزمجرة خفيفة تتشوّف فرحة الجري والوثب والطّراد والإمساك بالقنيصة. ثم يقفز بجِرْمه الضخم الثقيل، وتهتزّ تحت حركته خشبة الكاريتّة الرقيقة حرجة التوازن، ثم يحطّ على الأرض، ويرفع إلى سيده بوزه المربع

الأسود متعرج طيات اللحم وثنايا الجلد، كأنه الشرّ، حيواناً، مجسّداً.

تنفجر الرصاصة الأولى. مفاجئة.

تصمت العصافير دفعة واحدة، تستكنّ في جِمِيِ الغصون بعد عنف الزقزقة وحُمّياها، سقط الأمان، ثم تهبّ في حماقتها، سحابة عريضة مرفرفة واسعة الفجوات منشعبة الذيول، وتقرقع طلقات الرصاص، متتالية، وتفرّ سحابة الطيور وتذوب بعد أن تسقط منها جسوم رقيقة صامتة، تبدو في وقوعها حجرية ثقيلة بلا حراك، بلا صوت في هدّتها وارتطامها بالأرض.

لا ينتظر «تشرشل» هتفة أحد لكي ينطلق وراءها، ينبح بصوته المتحشرج، ويعود وفي فمه الجثة، وريشها الدامي.

أم أن هذه كانت أرنباً جبلية (يسمونها جرابيع) تقذف بنفسها من جحور محفورة في جسم الجسر الرملي، تندفع نحو أمان الغيطان، لكنّها لن تصل أبداً، سوف تنقضّ عليها صاعقة الطلقة الواحدة المسدّدة بإحكام، وينزّ خيط رفيع من الدم سرعان ما يصبح بقعة ممتدة على الصدر المهشّم أو الجمجمة المتشقّقة.

كل العدوان، ونزعة الهبش والقنص، وقد وجدت فريستها. لا في المرأة المحبوبة التي رُفِعت تمثالاً مقدّساً ـ كأنها محَرّم ـ على قاعدة مرمرية من العفّة والرومانسية والطهارة، بل فريستها الأشواق الطائرة ناعمة الريش، الجسوم العارمة الدماء بحيوية وحيوانية بريئة خالصة، كاملة البراءة في سياقها.

لم أعرف قطّ صحراوات ولا غيطان كفور العابد، ولا كنت قد رأيت شواطىء بحيرات فايد بل لم أخْطُ عليها إلا بخيالاتي. رأيت هذه الناحية كلها بعد ذلك بخمسين سنة، كانت الطرق الرملية قد

سُفلتت، والبيوت والفيلّات المتراصّة قد بُنيت، وعلامات الطرق وإرشادات السيارات قد نُصبت، ومنتجعات الشتاء والإصطياف السياحية قد تفشّت بل استشرت.

شممت رائحة البحيرات الملحة، آسنةً قليلاً، بِرَك الدموع التي تُركت تحت الشمس وانصرف عنها البُكاة.

فهل كان قد اشتعل خيالي بصور وكر الحب العذريّ بين وفيق وجانيت، في بيت أبيها حنّا بيه، حيث الجرامفون الكبير والأسطوانات التي تدور بموسيقىٰ الفالس و«السمفونية الريفية»؟ ألم تكن رواية أندرية جيد قد عصفت بأرواحنا؟ «الوكر العذريّ، هذا هو اسمه حيث تعاهد المُحبّان على أن يكون زواجهما سامياً مقدّساً لا يدنّسه الجنس بل يعيشان في نشوة الحبّ النقيّ الطهور، حتىٰ آخر لحظة في الحياة.

ما أشد سذاجة هذه الأوهام، وما أجملها أيضاً!

الجنينة المظلّلة بأشجار اليوسفي والبرتقال والليمون الحلو، فيها على الأرض حرشات الطماطم والفلفل الأخضر بين شجيرات الياسمين والفلّ البلدي، هي أيضاً كانت مرتعاً للحب، ومسرحاً للقبلات البريئة تحت ضوء القمر. ضروري..!

وأخيراً غرفة الكرّار، تحت السلّم، فيها كراكيب البيوت الريفية ولكنّ فيها أيضاً أماناً من رقابة الأهل والشغّالين.

قُربَ آخر هذه الدراما حكىٰ لي صديقي أن ملاكه القدسيّ الطاهر، بعد أن كان قد ملأصدرها ـ وأحشاءها الداخلية بلاشكّ ـ بأحاديث الهوىٰ والفن وأشعاره ونجواه، وكانا في غرفة الكّرار يبحثان عن كتاب من الشعر الفرنسيّ، وتبادلا التقبيل والعناق، مدّت يدها فجأة تحت وطأة شهوتها المفاجئة، وهاجمته في عُقر ذكورته.

وكانت صدمة مُزلزِلة.

هذا ما يخيَّل إليَّ أنه حكىٰ لي.

أهذا كله قد حدث؟ أم أن هذه أبنية متطايرة من خيالات، قابلة للإنهيار على الفور إذا ما ارتطمت بحواجزِ ماقد وقع بالفعل.

وما وقع بالفعل أن جانيت قبلت أن تتزوج قريبها الغني الممتلىء بكل ماهو طيِّب وعاديّ ومقبول. وأن صديقي ـ بعد أن غازل الإنتحار كأنه يشير إلى انه يطوي من حياته ومن روحه صفحة قديمة، نهائياً ـ قد اندفع أيضاً للزواج من فتاة فيها كل شيء طيِّب وعاديّ ومقبول. وبقيت معه طول الوقت ـ على الرغم من كل نزواته وزيغاته ـ وخلّفت له أيضاً الأولاد والبنات.

«وفيق خرج للصيد. .

«وفيق يحبّك يا صديقي وهو كثيراً يكلّمني عنك متألماً لظنونك المؤلمة عنه، فأرجوك يا عزيزي أن تكتب له وأن تُلقي بعيداً هذه الخواطر السوداء وتدعها لأناس غيرك، لأولئك الحيوانات البشريّة الّتي أحتقرها كما تحتقرها أنت».

فهل كنت حقاً «أحتقر هذه الحيوانات البشرية»؟

هل كنت حقاً أتبرّأ من حيوانيتي البشرية أنا، وعضوية تَنزِّي مراهقتي؟ أم أنني كنت أنكرها، بحرارة، صادقاً مع النمط المعروف في مثل هذه الحالات، بالضبط، لأنني كنت غارقاً في حمأتها، في رَدْغَة خيالات الجسم الفتيّ المستثار، ورعونة اندفاعاته، ودفق عُصاراته؟

«لا تحاول أن تفصم ثالوثنا الجميل يا صديقي. في يومٍ ما سنجتمع نحن الثلاثة لنجوب العالم معاً. إنّنا تصادفنا منذ زمن بعيد، منذ

الأزل، وربطت بين نفوسنا أقدس روابط الحياة، ولن يفصمها أو يسحقها الموت أو الزمن كما تقول. . »

إذن فقد كنت حتى عندئذٍ «أقول».

هل أقاوم الرغبة في أن أقول: «ألم أقل ذلك؟» هذه رغبة رخيصة نوعاً ما، وسهلة. «ألم أقل ذلك؟»

«أما كتاب «La maison de la mort certaine» لألبير قصيري فقد انتهيتُ من قراءته وكتابة معاني الكلمات التي طلبتَها، وسأرسله لك عند مجيء وفيق، أخذه مني ليقرأه وسيرسله لك من مصر.

«أمّا عن غرفتك الهادئة في وكرنا الجميل فهي ليست حلماً كوازيموديا كما تقول يا صديقي. وهي ليست حلماً على الإطلاق. إنّها عزم راسخ ثابت في نفسي ونفس حبيبي. وتأكّد أنّ وفيق يا عزيزي كما يحبّني كحبيبة يحبّك كصديق ولن يعدو الزمن على هذا الحبّ يوماً. لأنّه في السحب العالية يا صديقي وليس في الأرض حيث يمكن أن تسحقه أقدام الزمن وعجلاته الغادرة.

وإلى اللقاء جانيت

كفور العابد صباح الخميس ٢٤/١٢/١٩٤٢»

طبق الأصل.

ولم نلتقِ قطّ بعد ذلك.

أبداً.

تصوّر وفيق أنني واعدتُها ولقيتُها في حديقة حيوانات الجيزة، وأنها كانت هي التي انفجرت من عنقها المذبوح نقطةُ دم، في فانتازيات حكاياتي.

لم يحدث.

ولم أقل له قط إن هذا لم يحدث.

هذا الحلم كله ألم تسحقه، بالفعل «عجلات الزمن الغادرة»؟

ألم أقل ذلك؟ ألم أقل ذلك؟

هاقد وطأ «الزمن» ذلك كلّه، عدة مرات، وفي عدة سياقات، في مجرى الحياة المضطرب الذي يوشك الآن على النضوب، في تقلّبات النكران والخذلان وتعارض المقاصد، من طرف إلى آخر، بين المصالحة والمعاودة والمقاطعة، بل المؤامرة وشرور النوايا وإيثار المصلحة أحياناً؛ أهذا صحيح؟ فكم هو موجع حتى بمجرّد أنني أسأل فقط. ولكن كم هو طبيعي أيضاً، ومتوقّع.

ثم لماذا «الغرفة الهادئة في الوكر الجميل؟»

أكان مقرّراً ومفروغاً منه عندئذٍ أنّ رهبانيّتي خالصة للفن وللصداقة؟

بل يا للصبيانية!

وهل كنا حقاً - حتى - كوازيمودييّن؟

اسكندرية مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٤٢

«عزيزي وفيق

سخرية.

هل تذكر كوازيمودو؟

عندما كان يضيق بنفسه المسجونة في هيكله المحطّم، كان يلجأ إلى الأجراس الضخمة المخيفة، يمتطيها، يستحثّها ويحفزها وينطلق بها، ويصرخ. فيستحيل الإنسان والجرس وحشاً واحداً ضخماً صارخاً مُجلجِلاً ضاجّاً جباراً، يفرض سطوته على المدينة التي تموج بالبحر الآدميّ، يرتفع فوقهم جميعاً ويهزأ بهم جميعاً. ولكنه كان أيضاً يتسلّل إلى الظلمة وينساب بجانب الجدران ويغوص في الوحل عند

المساء، كحشرة عملاقة تزحف في ذلّة وسكون مسحوقة تحت وطأةٍ لا ترحم كأنما البشرية كلها تنوي أن تطأها تحت قدمها القاسية. . . . هكذا حياة كل الكوازيمودبين، الوحوش المقيّدين التعساء، الملعونين المرجومين من الأرض والسماء، الذين يعيشون بين الأبراج والوحول، بين حُمّى الضجيج وسكون القبور، بين أنقاض ذكرياتهم وجثث أحلامهم، بين قهقهات الجنون وذهول التأمّل العميق. ويل لهم. ويل لهم، وطوبى لبسطاء القلوب.

تحيّاتي إلى جانيت وأسفي لتهدُّم أحلامها في غرفتي الهادئة التي تقع في ركن وَكْرِكُما. الجميل. أليست الحياة كلها تقريباً أحلاماً كوازيمودية مبعثرة، ومُهْدَرة»؟

* * *

هذا إذن.

يالأوهام الصبا، كم هي حارّة، كاوية، وغريرة.

مازالت محرِقة. حتى الآن.

قلت لكاتب هذه الحكاية، وهذا الخطاب:

ـ لماذا القسوة على نفسك والسخرية بها، وعلى من كنت تحبّ، على من تحبّ، ماتزال؟ ألم تتعلّم ـ بعد ـ أن تتسامح مع نفسك؟ وأن تقبل الآخرين ـ وخاصة من تحب ـ على علاّتهم؟

فقال:

ـ تعلّمت، ربما.

وقال: :

ـ لكني، في قرارة نفسي، هل قبلت؟

* * *

(٣)

هذا الورق القديم، هذا الصخر القديم، له سطوة

اختفت جانيت حنّا.

قلت لنفسي: إياكَ أن تقع في أشراك الحنين القديم إلى الماضي

هل تلاشىٰ هذا الوهم الرقيق العذب، إلى الأبد؟ كما سوف يتلاشىٰ كل شيء؟ سألت نفسي.

لم ألتقِ بها إلا بضع ساعات معدودة، منذ نصف قرن. يومها في سيدي بشر كتبت لي في صباح الخميس ٢٤ ديسمبر ١٩٤٢:

«هل تذكر يا عزيزي تلك الساعات التي اختلسناها أنا وأنت ووفيق، أقول اختلسناها ـ كما تُختلس السعادة دائماً ـ ورحنا ننثرها في أرض عالمنا المسحور، كما تنثر السماء قطرات الندىٰ على خدود الأزاهر، كانت تنبت في أرواحنا نبتاً سماوياً من النشوة والأحلام والمعرفة! ألم نكن أسعد البشر حينذاك ياصديقي وقد اجتمع لنا أسمىٰ مافي الحياة وما في الوجود كله: الحبّ والصداقة والفنّ»؟

أما أنا فلا أعرف ما إذا كان ذلك نبتاً سماوياً أم وحشياً أم هُما معاً. ولكن ما أشدّ دهشتي ـ دهشتي؟ ـ أن أجده مازال حيّاً، غضّاً بعُصارته الحوشية العنيدة، ضارباً بجذور صلبة في النفس.

أم أنني أنا الذي احتفظت به، طوّال تلك السنوات، أرعاه في خفية عن نفسي؟ وأغذوه بشيء من جوهر نفسي؟

أكانت صورة جانيت حنّا باقية في الروح، لاتريم، بإرادة منها، أم بتدبير مني، خفيّ عني؟

ساعات قليلة، منذ نصف قرن، هذا كل ما عرفتها فيه. كيف بقيت هذه الساعات معي، ولم تندثر؟

أتذكر الآن فجأة القميص مفتوح الرقبة الذي كنت ألبسه تحت تلك الجاكتة ذات المربعات الزرقاء الفاتحة، لونه أصفر كاكي. كان ناعم الوبرة، هل لأنني لم يكن عندي قميص صيفيّ غيره؟

كنت أحياناً أمشي ساعتين أو ثلاثاً، من راغب باشا إلى سيدي جابر، على الكورنيش، لكي أوفّر ستة مليمات - ربما لم أكن أملكها - حتىٰ أذهب إلى وفيق في غرفته التي استأجرها في شارع هادىء وصامت غير بعيد من البحر.

كانت صاحبة البيت، مدام هيلينا، يونانية ترفّق الزمن بها، شعرها الأشيب الناصع معقوص وراء عنقها بشريط يختلف لونه كل مرة، بأناقة فيها قدر من التصابي الخفيف. وجهها اللامع كأنه مصقول، بغضونه وتجعيداته الرفيعة جداً، وجسمها صغير وهشّ في الروب الأزرق السماوي الذي يلفّ خصرها، بشريط آخر من نفس لون شريط شعرها.

وكانت الغرفة جميلة، صحيح، ومُنسّقة جدّاً، تومض من النظافة، قال لي وفيق أول مرة: تعال. كأنها أودة عرايس!

قالت لي مدام هيلينا، مرة، إن ابنها كان في الجيش اليوناني، ثم انضمّ إلى المقاومة، وكان يقاتل الألمان في الجبل.

دخلت من الباب الحديدي المشغول المدهون بالأزرق وقد نال منه صدأ البحر قليلاً، إلى ممرّ رمليّ ضيّق تحدّه بناية حجريّة مصمتة، ثمّ من الباب الداخلي الزجاجي، بعد أن ضغطت على كرة الجرس البيضاء الصيني المثبتة بالباب ناتئة منه، لها زرّ دقيق تضغط عليه فيصلصل

الإيقاع الموسيقي. ووجدت نفسي في فَسحَة تتوسّطها مائدة مستديرة ضخمة من الخشب، مغطاة بمفرش دانتيلاّ لاشكّ من شغل مدام هيلينا، وعليها الإناء الزجاجيّ الكبير - التقليدي والمتوقّع، ذكّرني بالإناء الذي كان عند أم توتو وأنا طفل - إناء شفاف سميك الجدران تتدلّى عليه فروع نبات الظلّ غنيّة وعريضة الورق.

والفَسحَة مسدلة الستائر على الشرفة الأرضية المطلّة على الممرّ الرمليّ الخارجيّ، وتتصدّرها صوفا عريضة مكسوّة بغطاء يبدو ناعم الوبرة من قطع قماش ملوّنة مخيطة بعضها ببعض ببراعة. أبواب على الفسحة مغلقة، شكلها حميم وداخليّ وخاص، وأمام المدخل مباشرة باب «أودة العرايس» التي استأجرها وفيق.

هل كانت الفَسحَة كذلك حقاً؟ أم أن هذه من تركيبات خيالي، بعد كل تلك السنوات؟

«لقد حجبت سماء حياتنا، أنا ووفيق في المدّة الأخيرة الماضية سُحُبٌ وغيوم كثيرة جعلت الحياة تسودّ أمام أعيننا واليأس يدّب إلى نفسينا والشقاء والآلام المخيفة تحتوينا بكلتا يديها.

آه يا صديقي لو تتصوّر كيف كانت حياتي حينذاك لرثيت من اجلي ومن أجل صديقك ولغفرت لي صمتي الطويل المملّ. وفي الواقع لو كانت أتيحت لي فرصة الكتابة إليك حينذاك لكنت فزت منك بخطاب يخفف عني بعض ما أعاني وتقع كلماته على نفسي المعذّبة كفعل البلسم الشافي على الجراح الدامية. ولكن يُخيّل إليّ أن الظروف أيضاً كانت تمعن في تعذيبي بدورها فحرمتني هذه النعمة العظيمة، كذلك، ولعل من حسن حظك يا صديقي أنني لم أكتب لك خلال فترة العذاب والشقاء المخيفة وإلا لكنت زدتك عذاباً على عذاب وآلاماً على آلامك».

لاشك عندي في براءة عميقة عندها، وأساسية. ماذا فعلت بها السنوات؟

أول ما دخلت فوجئت بسرير عريض منخفض قليلاً، يلوح مرناً ومريحاً وطيّعا، وعليه لحاف من الساتان الأزرق السماوي، يرتفع قليلاً عند مخدّة طويلة مدوّرة رأيت طرف كسوتها، سماوية اللون أيضاً ولكن خافتة النغمة.

والدولاب الكبير بمرآته البلجيكي المصقولة مضفور حولها زهور وفروع نباتات ووجوه ملائكة صغار بأجنحة من الخشب الماهوجني المضيء بلحمه الداخلي الدسم، والضلف على الجانبين عالية كأنها تحرس كنوزاً قديمة.

تحت السرير، وعلى أرض الباركية التي تفوح منها رائحة متطايرة من زيت الصّقال وهفهفة الترابنتينا، سجّادة من نفس نوع قماش صوفا الفسحة، قطع كثيرة طويلة ملوّنة كثيفة الوبرة مُعدّة لكي ترحّب بنزول القدمين العاريتين عليها عند اليقظة من النوم.

قلت لنفسي: لعلّ مدام هيلينا كانت قد تزوّجت في هذه الغرفة بالذات. وعلى هذا السرير، وأمام هذا الدولاب كانت تنام مع زوجها، منذ خمسين عاماً، في نهاية القرن.

أقول لنفسي، وهاأنذا أقارب نهاية القرن التالي، ومازلت أنظر من زجاج الشرفة الأرضية العريضة، بين شقّيْ ستارة من الدانتيلا المشغولة، إلى نور حديقة صغيرة بين حيطان البيوت، عامرة بأشجار المانجو والنخل تظلّلها شجرة توت عريضة الأجنحة وثقيلة الأغصان، وفيها طرقة داخلية ضيّقة مفروشة بالرمل الأصفر الداكن.

بعدها بسنتين، وبعد أن أمضى وفيق عاماً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وتركها، وحاول الإنتحار بقطع شرايين رسغه في زجاج

الباب في بيت خالته بالفجّالة، وعاد إلى الإسكندرية، ودخل كلية الآداب بها، قسم الإنجليزي، كان أبي قد مات، وفكّرت أمي أن يسكن وفيق معنا، في غرفتي، ليساعد بجنيه ونصف على تكاليف المعايش الصعبة.

وكنا ننام على سريري العريض، العالي، ذي الأعمدة الحديدية الرفيعة السوداء، دفء الألحفة القديمة ورثّ الفَرْش قليلاً وإن كان صارم النظافة.

وكنا أحياناً نستيقظ ليلاً، في برد الإسكندرية، لنحارب البقّ الذي يستيقظ قبلنا، نتعقبه تحت ألواح السرير وفي شقوق الخشب الدقيقة وعلى أطراف المرتبة القطن الكثيفة، نجد الأقراص الصغيرة البطيئة تتحرك في بلادة، نقتلها بقطعة قماش مبللة بالجاز أو ندفنها في قطع من العجين، وتفوح رائحتها البشعة، ونجد في ذلك لعبة مرهقة ومسلّية ومضحكة معاً، أو هكذا كنا نقول، ونحن نتناقش في ميتافيزيقا الحياة والموت.

جاءت أمّ صبحي تزورنا في بيتنا بشارع ابن زهر - حماة خالي يونان، أم استر امرأة خالي التي كنت أحبها. وعندما عرفت بالمستأجر الجديد، قالت لأمي:

- هوّ صاحب ابنك؟ وبتنوّميه فين ياختي؟

وضحكت ضحكة لها معناها، لم افهمها عندئذٍ تماماً ولكنّي حدست، بشكل ما، ماوراءها. وكرهت المرأة اللعوب التي تبدو صبيّة، ونِغِشة، رغم سنّها، وكانت حواجبها منتوفة تقريباً ومقوّسة في خطٍ رفيع جداً ودائري.

«والآن وبعد أن زال الظلام المخيّم وتلاشت السحب الكثيفة المظلمة وعاد الصفاء من جديد أجلس للكتابة إليك ياصديقي من

الريف الهادىء الوديع الـذي عدت إلى أحضـانه بعـد أن مللت حياة المدن الصاخبـة. لنعد الآن إلى الحـديث عن خطابـك الرقيق الـرائع الذي وصلني وأنا في أشد حالات اليـأس من الحياة ومن كـل شيء في الوجود.

ليتني أستطيع أن أعبر لك عن تأثيره السحـري على نفسي المتـألمة، وكيف كان خطابك هو الصديق الوحيد لي في وحدتي الموحشة، نعم، لقد وصلني في وقت كنت أكاد أجّن فيه من هول الـوحدة التي لمستهـا حينـذاك، فقـد كـان وفيق في ذلـك الـوقت لا يكتب لي بـالمرة رغم خطاباتي الصارخة الملتهبة. كان في ذلك الوقت كما تعلم لا يعيش إلا في جو مظلم ولا تمـلأ حياتـه سوى الأوهـام والخيالات القـاتمة. لقـد رأيت خطاباتك إليه حين كان لا يكتب لـك وكنت ألحّ عليـه دائماً في الكتـابة إليـك ولكن لم يكن هنـاك جدوىٰ من ذلـك ولو أتيحت لـك ياصديقي فرصة قراءة خطاباتي له أيضاً، حينما كان لايكتب، لوجدتها في ثـورتها شبيهـة بخطابـاتك. ولست أكتمـك إنني خلته تغـيّر وصار مخلوقاً آخر كجميع المخلوقات التي تحـوطنا لايحفـل بالحبّ والصـداقة والفنّ هذه «الأكاذيب التي تغـرينا بـالحياة» كـما يقول لاهـور. ولست أكتمك أيضاً أنني في غاية السرور لهذه النتيجة الطيبة التي لمستها الآن بعد أن زالت العاصفة المخيفة التي اجتاحت حياتنا أخيراً فيخيّل إليّ أنها يقـ ـنت (هكذا) وفيق من هـذه الغفلة التي كان مستغـرقاً فيهـا بكـل حواسّه فلم أفلح أنـا أو أنت في إيقاذه منهـا. ولعلك لمست بنفسـك ذلك التغيير الذي اعتراه حينما ذهبت إليه في مصر!؟»

كـان قد كتب إليّ خـطاب استنجاد، مفـاجىء، جـاءني في نصف صفحة مقطوعة طولياً، من صفحات الكراريس المدرسيّة:

«عزيزي

لعلّك ترتعد إذا عرفت الدافع الحقيقيّ الذي دفعني إلى كتابه هـذا الخطاب بعد طول سكوتي.

ولعلك تجّن إذا أفضيت إليك بما في صـدري ولكن لا تخشَ شيئاً ياصديقي فلن أكتب شيئاً. إنني أختزن الكـارثة لـوقت آخر إذا شئت أن أصبّها على رأسك.

إنها النهاية ياصديقي

لم أكن أتـوقّع أن تـأتي بهذه الصـورة البشعة ولكن هكـذا شـاءت الأقدار.

لقد انتهيت أنا ياصديقي وانتهى كل شيء

إني أود أن أراك قبل أن أذهب

أنا لا أستطيع أن أجيء إليك فهل تأتي أنت؟

إنني أضرع إليك أن تأتي، إنني أركع أمامك إذا شئت

أنت آخر ماتبقّى من حياتي الماضية

لقد كنتما اثنين وقد بقيت أنت

أنا أعرف مايجول بذهنك الآن.

أنت تناجي نفسك. «لقد عاد إلى جنونه القديم»

ولكن آه ليت ذلك كان صحيحاً ياصديقي.

ليت أيام ذلك الجنون الذي ولّى دامت. ليت أيام الشكّ والعذاب اللذيذ بقيت

ولكن ما الفائدة؟

أنا أكتب لك أنت

صديقي إنّك ستحضر أليس كذلك؟

إنني في حاجة دامية إليك أيها الصديق

إنني في حاجة إلى من أحبّني وأحبُّها لكي يبكيني ويبكيها

أيّـة أنانية بشعة!

ولكني أضرع إليك أن تحضر

ولاتخشَ منزل أقاربي. سوف نبيت معاً في اللوكاندة

أنا أنتظرك يوم الخميس على محطة مصر

في القطار الذي يقوم من الإسكندريـة الساعـة ١٢ ويصل مصر ٣ ونص

يجب أن تحضر ياصديقي. وإلا فالوداع إذن

ولكنك ستحضر وستبقىٰ معي ليلة ويوماً كاملين وسأحدثـك بكل شيء وسأسمع صـوتك الحبيب الحنـون وسوف تـذكّرني مجـرد رؤيتك بكل شيء

. . . تذكّرني. نعم لقـد صارت حيـاتي مجرد ذكـرىٰ. ذكرىٰ عـام واحد.

بضعة شهور.

صديقي. إني أجنّ

ستحضر أليس كذلك. تأكد أنني أنتظرك كالمجنـون وسأنتـظر يوم الخميس محموماً، كما عشت دائماً.

وإلى اللقاء ياصديقي.

وفيّق

الثلاثاء ١٦ فبراير

* * *

«الإسكندرية ١٩٤٣/٢/١٩، الساعة الرابعة والنصف

عزيزي وفيق

إنّي أكتب لك مباشرة بعد قراءتي خطابك المحموم.. فقد كنت متغيّباً عن الكلية بالأمس وجاءني الخطاب على يد صديق. منذ ربع ساعة فقط. إننا دائماً.. أنا وأنت.. سيِّئا الحظّ إلى درجة مخيفة. فلو كان وصلني الخطاب في وقت ملائم.. إذن.. إذن ماذا؟ لست أدري. ولا أحاول أن أدري.

صديقي.. إنني سأفعل المستحيل.. سأقوم بأوّل مسئولية.. أو عمل خطير إلى درجةٍ ما في حياتي.. لا تيأس.. ولا تضطرب.. يا إلهي.. لست أدري ماذا رماني بهذا الصديق المخبول المجنون.. من بين الستة عشر مائة مليون الذين يملأون العالم؟

على أيّ حال.. ثِقْ.. إنني سأفعل كل مافي وسعي.. نعم.. وأكثر ممّا في وسعي.. وإذا استطعت أن أفعل شيئاً مذكوراً.. فانتظرني الساعة الثالثة والنصف في نفس القطار الذي تقول عنه على رصيف محطة مصر.. يوم الأحد.. أي بعد غد.

وإذا لم أجدك.. في حالة سفري.. وهو شبه مؤكد.. فسأذهب إلى شارع جلبي ١٣. وارجو أن يكون لديهم نبأ.

وماذا بعد؟ إن هذه العاصفة ستمّر أيضاً.. وسنجتاز هذه الأزمة معاً..

أنت ترى أنني أتكلّم بتعقّل.. بتعقّل جداً.. لأن أمامي أياماً حافلة بالجنون.. ولأنني لو لم أتكلم بتعقّل.. من يدري ماذا سيحدث.. لعلك تفقدني أنا أيضاً..!

أيّها المخبول.. أيّها المخبول.. إنّني لا أعتقد بصحّة حرف واحد ممّا جاء بخطابك.

إنه خطاب مزعج مخيف.. يشير إلى أشياء هائلة.. خطاب ممزوج بالصياح والصراخ والإنتحاب وعلامات التعجب.. وكل ذلك مكوّم في ربع ورقة..!..

هأنت ترىٰ أني أمزح.. وأنني لاأجدّ.. فإن الجدّ هو الذي يدفع المرء دفعاً إلى الجنون وإلى الحُمّى.. يجب أن نصرخ في وجه الحياة هأنت ترىٰ أيضاً أنني وقح.. إلى حدٍّ ما..

نعم.. إن الوقاحة صفة لابدّ منها. في العصر الحديث..!

ولكن ياإلهي.. دعنا من كل ذلك..

إنك لاتستطيع أن تدرك مدىٰ الإضطراب الذي أحدثه ربع الورقة هذا..

إنني أتمزّق الآن.. حقاً..

هل تصدق أنني لبست ملابسي وخلعتها مرتين.. وأنا لاأدري ماذا أفعل.. هل أبقىٰ.. هل أخرج.. أم أكتب لك.. أم.. أم ماذا؟ ألا ترىٰ معي.. أن هذا كله مضحك.. وأن أشدّ الأشياء جدارة باستثارة الدموع لم يُثِر إلا الضحك. الضحك المختنق الأصفر الشاحب.. الذي ينبىء عن جرح داخلي عميق؟

إنني أثرثر..

سأمضي بهذا الخطاب إلى البريد.. في مدىٰ خمس دقائق..

وأترك للأبالسة ماسيحدث بعد ذلك.. فإنني لاأدري..

إلى اللقاء ياصديقي.. تجلّد.. فإنني قادم..

أيّ جملة تراجيدية تقليدية مأثورة..

ولكن ياإلهي.. إنني لاأدري ماذا أنا كاتب..

إنني أبكي وأسخر من نفسي. . ومن كل شيء. . فإن السخرية هي حدّ المرارة الأقصى. وآخر مايصل إليه الشقاء البشريّ. . إلى اللقاء ياعزيزي. . إلى اللقاء. .

المخلص

***

طبق الأصل، تماماً.

ذهاباً وإياباً.

وسافرت إلى القاهرة، بعد أن قرأت الخطاب لأبي، وأمي، وأعطياني ثمن التذكرة. اقتطعاه من مصروف البيت. كنت أريد أن أسابق الزمن لكي ألحق به قبل وقوع الكارثة.

ولم أجده في انتظاري على رصيف القطار «الذي قال عنه».

فلما وصلت إلى بيتهم في شارع جلبي ١٣، شبرا، قالوا لي إنه راح سينما رويال، من ٣ لـ ٦. إنتظرت قليلاً في غرفة الإستقبال الضيّقة أمّ طقم مذهّب، وفيها رائحة مكتومة راكدة، ثم سألت أين السينما، وانتظرته في الشارع، واقفاً على الباب، ساعة زمان، وكان الترام، والمارّة، وضجة شارع الفجّالة لاتسلّيني.

وعندما خرج في نحو الساعة السادسة، بين زحمة الخارجين ولغطهم البهيج، قلت لنفسي، بدون مناسبة: «ولا على باله». كأنني كنت أتوقّع أن أراه شاحب الوجه، مُهدّماً، منكوش الشعر، ممزّق الأسارير. كان في البالطو الغالي من وبر الجمل الأصفر الداكن ناعم الشكل، والكرافتة المحبوكة بأناقة، وشعره مصفّف بعناية، وكل شيء.

ولم ننم في اللوكاندة، بل قضيت ليلتي على كَنَبة في فَسحَة أقربائه.

ولم نتكلّم كثيراً، بل لم نتناول صلب المسألة ـ هل كان للمسألة صلب على الإطلاق؟، نعم، بلا شك! ـ وعرفت باختصار أنّ جانيت خُطبت، ورفضتْ ثم مالت للقبول، وأن كل شيء غامض ولاشيء قد حُسِم.

«يا إلهي يا صديقي لو تعلم مدى السّعادة الطّاغية التي أشعر بها كلّما قرأت خطابك الساحر الجميل! إن كلماته الرقيقة العذبة تذكّرني دائماً بذلك اليوم السماوي الذي أمضيناه معاً، أنا وأنت ووفيق، ولاسيما حينما سرنا ثلاثتنا جنباً إلى جنب على شاطىء البحر عند غروب الشمس: أنت ووفيق تتكلّمان عن أشياء رائعة سامية، عن الأوهام التي تتضمّن الحقيقة العليا، وأنا أستمع بنشوة غريبة لذيذة إلي مالم أكن أعلمه من قبل. لقد كنت أودّ ياعزيزي أن نظل سائرين وسائرين إلى مالانهاية، بل كنت أودّ أن تقف دورة الزمن إلى الأبد لكي نظلّ مجتمعين دائماً. ولن أكون مغالية إذا قلت لك إن هذا اليوم، وخاصة عندما اجتمعنا ثلاثتنا فقط في ساعة الغروب، قد كان من أسعد أيّام حياتي. فقد كنت ممسكة بالحبّ الطاهر البريء بيميني وبالصداقة القوية بيساري، فما أحلىٰ هذه الساعات التي ننعم فيها بالحبّ والصداقة معاً وما أجدرها بالتقديس وعدم النسيان والحنين إلى الكثير منها.»

أما خطابي «الساحر الجميل بكلماته الرقيقة العذبة» فقد ضاع تماماً في غمار نصف قرن من التقلبات والتحّولات. أمّا التقديس، وعدم النسيان، والحنين، والساعات التي ماأحلاها...

أما زلتُ أقول لنفسي: إياك أن تسقط في هذا الشرَك؟

ألستُ متورطاً في الفخّ، حتىٰ العُنق؟ كائنا على الرغم مني؟

يالقبضة السنوات حول العنق.

كنت أيامها أغرق في حُمّيا حسّيةٍ حُرةٍ بل جامحة وحارّة وحادّة الحوافّ.

أعبر إلى غرفتها، من عالمي إلى فانتازيا عالمها، محاذراً، بلا صوت، في الليل الهادىء العميق. هذه التي اسمها عندي حتى الآن، وما زالت باقية وقريبة إليّ جداً. كانت كبيرة الرأس، شعرها منفوش وخشن، ومشعث قليلاً، مفروش على جبهتها الضيّقة. صغيرة الجسم، مُنَمْنَمَة، خصرها نحيل ومتهضّم، وردفاها صغيران ولكن أنثويان حقاً بدورانها المُحْكَم، وإغوائهما. وأجدها ليّنة مطواعاً. وكانت تلف ثدييها الصلبين القائمين بذلك النسيج الحريري من قماش البراشوت الذي جلبتُه لها من مخازن البحرية البريطانية، وصبغته باللون الأصفر المُغوي. كنت أنعم بحسّ اللدونة المدوّرة تحت الحرير، بينما الباب نصف مفتوح ونصف مظلم، وأنفاس الصغار تملأ البيت، ثقيلة بالنوم.

منارة الأجراس صامتة الآن عمودية وقائمة تطعن السماء الموشّاة يداي تمسحان البطن الغلاميّ تقريباً وخيوط السحاب المجدولة تحبك دوران الأفلاك شظايا المرآة موزّعة تعكس موسيقىٰ العالم. أحتضنها إلى صدري. وخَزُ النجوم الدقيق ومضٌ في دخيلتي. أصابعي مشدودة تبتهل إلى القباب وكعب حذائها الأسود العالي يدقّ طبولاً لايسمعها غيري.

الشمس ساطعة فجأة في يوم شمّ النسيم. هل كانت تلك سنة ١٩٤٧؟

مرة أخرىٰ على شاطىء سيدي بشر، ولكن مع فريد إسكاروس، وونيس شنودة. كنت قد تخرّجت من الجامعة قبلها بسنة، أما فريد وونيس فقد كانا مايزالان يدرسان أحدهما في الآداب والآخر في

الحقوق. وكنا نقضي صباح شمّ النسيم ندرس ونخطط لنشاطنا الثوريّ الصغير في إحدى الخلايا التروتسكية التي كنت قد أنشأتها وكنت مسئولاً عنها، ومعنا فتحي شادي، محضر معمل الطبيعة والكيمياء في مدرسة محرّم بك الثانوية، وطالب الفلسفة، في الوقت نفسه، وجار فريد في سيدي بشر التي كانت أيامها في الشتاء شبه خاوية.

كنا وحدنا تقريباً على الشاطىء في أبريل. شمسه معتدلة بل دافئة تقريباً، والرمل غير مشذّب وغير مسوّى وبريء تقريباً من كل الشوائب، ترتفع كومته العالية وراءنا، قليلاً، حتى تشارف شرفات الكبائن المغلقة المهجورة، مازالت خشبية وشخصية المعالم وليست نمطيّة، مشغولة مطّرزة الخشب بفانتازيات أصحابها. وكنا قد تغدّينا عند فريد، وأكلنا أيضاً البصل الأخضر والملانة والخس وكعك العيد والغريّبة في بدروم الڤيلا الذي يتخذه فريد مكتباً وغرفة نوم له وحده ـ ووكراً للنشاط التروتسكي ـ بفوضاه وسريره المهوّش وكتبه المضطربة. كان يكتب بحثاً عن بَيرون سوف يتحوّل فيها بعد إلى رسالة للدكتوراه، ويقرأ «النبي منزوع السلاح» بالإنجليزية، وأدبيات الدولية الرابعة التي أمدّه بها.

كنا بالمايوهات الآن، وقد تصالحتُ مع مياه البحر أخيراً، ونزلت أطسّ الماء بعد خطّ الشط بقليل وغصت برأسي في حفنة الموج الخفيفة الضحلة، أما فريد وونيس فقد ضرّبا في البحر وعادا مليئين بالشباب والصحّة والتحدّي، وخرجنا الآن نتشمّس.

من الذي أخذ لنا هذه الصورة التي مازلت أحتفظ بها؟

هل كان هو فتحي، بطل الأوركسترا المتلبّس بي الذي حملته الإمتدادات الأولى لنغمات السيمفونية المسترخية في نوعٍ من يأس

صافٍ رقراق، يحلّ من شرابه المشعشع يشفي غُلّة قديمة في أرض قحلة مشقّقة، وقد رق يأسه وامتّد مرهفاً كأسلاك مرتعشة من زغب راجف هفهاف، يتقدّم في توتّر حسّاس عبر وحشات شاسعة. وإذا باليأس يمتلىء ويرتفع في دفقات كثيفة ناهضة إلى أعلى غنيّةً بالعُصارة المحيية يهزم ويجلجل ويختلط بأحشائه فيملؤها بنزعات منتفخة بدم الأرض الثقيل ولم يعد يأساً بعد بل شيئاً بدائياً قوياً لا إسم له. ماذا كان اسمه؟ حسني؟ أم أحد تقمصاتي أنا المتحوّل المتقلّب بينما طبول السماء تقرع والصنوج تصطفق في روع نحاسيّ توسّع العالم.

كان فتحي يخفي منشورات و«وثائق» الحلقة التروتسكية الإسكندرية في أدراج معمل الطبيعة، حيث لا يمكن أن تصل إليها الأيدي. ولعلّه الآن في أستراليا مع ابنه الذي كان ضابطاً بالبحرية ثم هاجر إلى سيدني. هل كان حُسني؟ أم فتحي؟

لم نلتقِ قطّ معاً نحن الثلاثة، بعد ذلك، ولن نلتقي أبداً.

أمّا فريد فقد تزوّج تلميذته في مدرسة المرقسيّة الثانويّة، وحصل على درجته الجامعية، وانتقل إلى كلية البنات بالقاهرة، وعندما ألحّ عليّ خاطر مفاجىء، بعد انقطاع سنوات، أن أسأل عنه عرفت أنه مات منذ يوم واحد بالضبط وكان عندي «أهرام» الأمس، وقرأت نعيه، تحت صورته الأخيرة. أما ونيس فقد وصل إلى أعلى مايمكن أن يصل إليه قبطيّ في مناصب القضاء الإداري ولمّا خرج على المعاش بعد معركة وظيفته عالية المستوى جاءه شلل نصفي أقعده ولكنه بإرادة قوية مازال يستطيع ممارسة هوايته في شقشقة الكلام وتشقيق شجون التحليلات القانونية والإجتماعية.

أما الحلقة التروتسكية فكأنها من أضغاث الذكريات.

«وصلتني الكلمتين الصغيرتين (هكذا) اللتين كتبتهما في خطاب

وفيق وأنت في مصر، فكـانت مبعث سروري ودهشتي أول الأمـر. ومن الـطبيعي أنني تمنّيت من كل قلبي أن أكـون معكم، على الأقل كنت جعلتكم تذهبون إلى مكان جميل ساحر هادىء لا إلى «حانة على وشك الإغلاق تفوح منها رائحة كريهة» وعندمـا نتقابـل نحن الثلاثـة سيكون لذلك حساب.. مضحك أليس كذلك؟»

أليس غريباً، شيئاً ما، أنني لا أذكر شيئاً عـلى الإطلاق عن هـذه «الحانة» التي كانت على وشك الإغلاق، و«الحانة» طبعـاً هي التسمية الـرومانتيكيـة للبار الـذي لعله كان في شـارع شبرا، بمـراياه الســوداء المكتـوب عليها بـالخطّ الـذهبي الثلث وبـالحـروف الإنجليـزيـة معـاً مـاركـات الكـونيـاك والعـرق والـويسكي، وهم، بكـروشهم أو معصعصـين على السـواء، يمضغون حبّـات الترمس والفـول السوداني ويرمون قشرها على نشارة الخشب المفروشة على بلاط البار، ويلتقطون بأصابعهم شرائح الكرشة بالصلصة، ويلعبون جوزولاً فرد مـع بائـع الفسدق، والراديو يصدح عالياً بأغنية الجندول ـ أو لعلّها كليوباترا؟

«والآن يا صديقي لعلّك تعلم أنّنا نسعى معاً بكـلّ ما أوتينـا من قوّة في سبيل تحقيق حلمنا السماوي وأملنا الوحيد وغـايتنا في الحيـاة وأنت لاتجهل كل ماعانيناه في سبيل ذلك وماسنقاسيه إلى أن يتحقّق.

يـاإلهي لو أمكنـك أن تتصوّر يـاعزيـزي بشـاعـة الحياة التي كنّـا نحياها، لقد كانت تأتي عليّ لحظات حينما تجثم عـليّ الوحـدة وينشب الشقاء أظافره في عنقي أحس أنني مخنوقة تكاد تـزهق أنفاسي فـأنادي الموت من أعماقي أناديـه كي يمّـد إليّ يـده البـاردة لتنشلني من هـذا العذاب. نعم كنت أنادي الموت بكل أسراره المجهولة الغامضة الذي قد يكون عدماً وفناء أو ماهـو شر من العدم والفنـاء كما تقـول، فإنـه مهما حوى فهو لايمكن أن يكون شراً من هذه الحياة المخيفة البشعة.»

...

فهل آتي الآن، بعد خمسين عاماً، لكي أسخر من رومانتيكية هؤلاء الصبية والبنات الذين كنا إياهم، أو حتىٰ أن أعلّق عليها؟ بأي حق؟ وأنا ـ في ذلك، وربما في كل شيء ـ مازلت رومانتيكياً لاشفاء لي؟ كما يقال.

كيف يمكن أن أكون بهذه القسوة على جانيت الحالمة العذبة التي لم أعرفها حقاً، قط، إلا من خلال هذه الأوراق القديمة الآن التي لها سطوة؟

وعلينا، كلّنا، هذه القسوة.

هل أُهدرتْ هذه الروح الرقيقة، وشاه ذلك الجسم الجميل، ودُفنت جانيت تلك تحت ركام كل يوم؟

طبعاً.

وربما لا.

فلعلّني مازلت أحبها ـ لدهشتي، ورغم كل شيء ـ جانيت ووفيق، حتىٰ الآن. أم أن هذا كله من حمق الشيوخ الموصوف والمأثور؟

«إنَّ الإنسانيّة هذه الطفلة الغريرة التي تلعب ولا تهتمّ إذا سقط ذيل ردائها في التراب، كقولك، تمضي في تعذيبنا ياصديقي وتحاول هدم حبّنا الشاهق كي تجذبنا أنا ووفيق معها إلى الهاوية المظلمة الباردة ولكن رغم ضرباتها التي تسدّدها إلينا بغير رحمة أو شفقة أعترف معك بأنها ضعيفة ترتعش في الليل المظلم البارد ولذا أبعدت عني الحقد والكراهية التي كنت أصبّها عليها ولم أتمالك إلا أن احبّها رغم كل شيء رغم غرورها وبطشها مادمت تقول إن القلب الكبير القلب الإنساني يجب أن يرتفع عن الحقد وعن الإحتقار. وفي الواقع لو كنت

أحقد حقاً على الإنسانية لكنت من زمن بعيد متحرّرة من قيودها التافهة ومتهالكة الحرية بكلتا يديّ في المكان النائي الذي أحّن إليه مع من أحبّ ولكن هي تحطّمني وتميتني مئات المرّات في اليوم الواحد.

ولكن لنتمثل للأقدار ولتفعل بنا ماتشاء فيا دامت الحياة جديرة بالألم كما تقول فمرحباً بالألم وبكل مايفوق الألم. أجل إن الألم يصهر الروح حقاً ويرينا ماهي الحياة ويفعل مالا تفعله السعادة قط. إنني لاأجد الآن ـ في اللحظة الوحيدة التي أنفرد فيها بنفسي، أي حينما ألجأ إلى فراشي وتنساب دموعي في سكون لتخفّف عني كل ماكتمته في نهاري ـ إلاّ أن أردّد صلاة طاغور الجميلة الرائعة التي لم تهمس شفاه بأحلى منها.

ليس لي الآن إلاّ أمل واحد وهو احتمال اجتماعنا نهائياً قريباً.

ياإلهي لو تحقّق أملي هذا قريباً فكم سنكون سعداء نحن الثلاثة، أنا وأنت ووفيق. إنني أتصور بعين الخيال وكراً هادئاً صغيراً في دنيا الأزهار والخيال والينابيع الساحرة وغرفة صغيرة في ركن منها عليها كلمة «غرفة الفن» وهي غرفتك الخاصّة التي تعاهدنا بها ثلاثتنا. إنني أحّن إلى ذلك اليوم الذي سنجتمع فيه نهائياً: الحب والصداقة والفن في وكر واحد.

وأخيراً أشواقي الكثيرة وصداقتي.

إلى اللقاء

جانيت

كفور العابد ١٧ مارس ١٩٤٣

الأربعاء صباحاً»

الآن جاء دوري لكي أقول: ياإلهي. ! أكلّ هذه البراءة كانت

هناك؟ وكل هذه الطفولة العاطفيّة، والفكريّة. . ؟ وكلّ هذه السذاجة، بدرجاتٍ متفاوتة؟

أظنّ أن «الإنسانية» عند جانيت كانت هي أبوها مثلاً، وخالتها، وعمّها أو عائلتها الصغيرة التي نجحت بعد ذلك ـ بمعاونة وموافقة مضمرة منها، أو بغيرها ـ في أن تدفعها ،دفعاً إلى أن تدير ظهرها ـ راغبة أم راغمة سواء ـ لكل تلك الأوهام الجميلة «المقدّسة»، ولعلّ ماحفزها إلى ذلك، أيضاً، «عذرية» هذا الحب نفسه الذي كان مقترحاً ـ أو مفروضاً ـ عليها، مع اشتعال شبقيّته المقنّعة، المكبوتة عرامتها الحسيّة، فقد كانت هناك بلا شك قبلات حارّة وعناقات شهوية «بريئة» تحت ضوء القمر، ربما. على أي حال، هاهي قد انخرطت في غمار الحياة اليومية لكل الناس، أفي ذلك كله حقاً لوم عليها؟ ومهما كان فيها من نزوع إلى القداسة، فهل كان ممكناً أن تقضي حياتها قدّيسةً، راهبةً في محراب الحّب «الطاهر»، وجاثية أمام «معبد الفن»؟

وحتىٰ لو كان وفيق قد انتحر ـ وقد قام بلفتة الإنتحار، صادقاً بالفعل أو صارخاً فقط بالاحتجاج ـ فما كان ذلك كله ليحول دون أي شيء.

فماذا تغيّر حقّاً، بعد أن ترك منير، من ناحيته، كل هذا الاضطراب السيّىء الذي نعيشه، نحن، ونعيش فيه؟

مازالت سطوة العزلة صارمة. مازلنا نعيش ـ مادمنا نعيش ـ داخل قوقعة مغلقة علينا، من التوجّسات والتوهّمات والأثرة والعكوف المستغرِق على الذات.

فكيف يمكن ـ هل يمكن ـ كسر هذه الصَدَفة الصلبة؟
الصخور المعوجّة شاهقة قشرتها اليابسة المتحاتّه تتحدّانا

ضربات السحب المشتعلة بشفق أصباح وأماسٍ لا عداد لها

ارتطمت بها بلا نهاية أمواج الدهور، حفرت في سطوحها تجويفات غائرة ومحدّبة ومتعرّجة الأقواس.

جحافل قمبيز لم تنلْ منها ولا فيالق الإسكندر وَطَأتْها في الطريق إلى معبد آمون.

انهارت الأعمدة سقطت تيجان اللوتس الحجريّة عنها وذبلت في الرّمل القليل بين تشكيلات الحجر.

أهواءُ معاشقَ عقيمة وصرخات أجساد شبقة وأنينُ احتضار تحت حوافّ ناتئة جارحة البينان.

انسكَب لبن ألف أتان كلّ يوم مُزبداً برغوته حلوة المذاق بين حيطان صلبة نعّمتْها أيدي ألف عبد أسود.

سيقان ملكة الإسكندرية تلمع في زُبْد اللبن وزَبَد الموج.

يطفو نهداها الصغيران يحملها سطح الماء المترقرق مويجات.

مازالت الحلَمتان تذكران ـ ذكراهما الفيزيقية البحتة ـ قبلات القيصر الهالك والعاشق الذي سوف يهدر مجد الإمبراطورية، راضياً، تحت هذين الكعبين ببياضهما اللدن في الصندل الذهبّي المعقوف.

قلت لها: حرام عليك. كده كثير.

وهي تذوب في حضني، ساقاها متواشجتان بساقيّ لا أعرف أيّها لي وأيها لها، شفتاها الحارّتان على عمود شهوتي غير المنطفئة، ولما أكد أصرخ صرخة موت العشق لكي يُبعث حيّاً من جديد.

ويدور الصخر فوق الكتل الشظايا

حروف الجرف بعد الجرف ناتئة ومخسوفة ومائلة ومنتصبة

فوقَ شفافيّةٍ لازوردية لا يستطيع أن يُلوِّثها بنزين الأوتوبيسات

السياحية المحمّلة بالعاملات في الشركات والهيئات والمؤسّسات محجّبات سابلات الثياب طويلات الأكمام معتمرات بالعمامات الحديثة الطراز والعقالات الخليجية وفي الشوارع وعلى الشاطىء العالي أصحاب اللحىٰ والجلاليب القصار على أبدان سمينة ومتينة وبذيئة الصحة وجهمة الحضور.

على سطوح الشعاب الجبلّية الكتابات باللاتينية واليونانية والعربية ورسوم القلوب المضروبة بالسهام الساذجة وهيروغيليفية الصقور والثعابين المتموّجة وريش معت وديموطيقية الصلبان العتيقة والذكرىٰ ناقوس يضرب في وادي النسيان فلعل الرسم يبقىٰ بعد فناء الجسم.

جُوْن الخليج الأزرق لامثيل لصفاء مياهه تحت الأكمة الشاهقة التي يتلويّ عليها ممرّ نازل ضيّق ألفيّ مهدته أقدام المغامرين والمتكشفين والمحبين الباحثين عن ملاذٍ يأوون إليه بحبهم المهدّد باستمرار بشروخ ضارية في لحم الصخر.

شقوق مشرّجة ومنشعبة لا تُلّم لها وشائج بل هي غير مشروطة إلا بأشواق حجرية لا ينتهي خشوع ترتيلها لآلهة متعاقبة متراوحة الرحمة حيناً ولا شفقة في قلوبها في أغلب الأحيان.

ارتمت الأمواج الدهرية تحت تماثيل شاهت الآن وأمّحت شُكُولها واحتضنت تموّجات الجفاف وارتضت جمود التواري وراء صلابة الصمت ويبوسة النسيان.

هيكل عظمّي نظيف الأطراف ضلوعه مجوّفة على الخواء، حقواه يصطكّان. أهذا أنا قد طلعت من تربتي بعد سنوات كي أرقص مع رامة فيّاضة الأنوثة طافحة بتدفّق الشّبَق رقصةً لم تحدث قط ونحن أحياء؟ هل هذا أنا جمجمة مفرّغة الحدقتين، فكٌ حادّ الحوافّ منطبق على ابتسامة مثل شقّ سكين مشرعة إلى الأبد أمارس العشق مع جسدها

الباذخ الطريّ. أدفن عظامي البيضاء الجافّة بين عموذي فخذيها المتلئتين بلحم الهوى، بل بلحم المحبّة أيضاً؟ هل هذا أنا هل هذا أنا؟

قطار أبو قير القديم ينفث بخاره غمامات بيضاء متطايرة من بطن القاطرة السوداء المدوّرة وهو يخترم طريقه بين شجر المانجة والسنط والكافور ويمر على سيدي بشر القديمة، بآكامها الرملية المظلّلة بمثات من خمائل النخيل بيبس سعفها في ضوء القمر. القطار يشقّ رمال العصافرة كفر الجناين وصفط الترع وكفور العابد ومنية الغيطان وشرق المراعي وكوم بوبيلّلو وساقلته إلى مالانهاية المواقع والعِزَب وخِطاط البلدان والكفور المضروبة في روحي.

«بست» الحية الميكانيكية المؤّارة بالعضوية والجسدانية المتحرّكة على قضبانها الحديدية تتراوح روافعها على مُفصّلات مرنة تحتضن البطن كاملة التدوير.

شجر الجميز العفيّ وخضرة أيك النبق العريض ودغلات الورق الخريفي الذهبي أجمات الرموز الندية تذوب في خمرة داكنة صهباء تلّ الغابات الصغيرة المحاصرة أنقاض تلّ العمارنة حدائق الأوراق تخفي في طواياها الصقر الحكيم والثعبان الناطق بالنبوءات.

هذه ليست حكاية هذه ليست كلمات ولا جُمَلاً وليست حروفاً. لها حياتها الحرّة خارجة عن طوعي. بل هي سذاجة جسمي وقلّة مناعته وشططه غير المحكوم وتهاويه وانهياراته إزاء حكمة جسدها وحصافته ورعونته الشبقة في آن.

رأيتها وأنا على حافّة الماء، في الخليج المحصور الضحل بمياهه الزرقاء كأنها سماء لا مثيل لنقائها.

وجهها الخمري البيضاوي يانع الصبا تنسدل حوله غدائر الشعر

الأسـود الثقيل وقـد خلعت المايـوه السمنيّ وبدا جسمها عاريـاً منمنم التقاطيع دقيق الأطراف جسم بنت في الرابعة أو الخامسة من عمرها ولكنّه كامل التدوير وكامل الأنثوية، النهدان كرتـان صغيرتـان تطفـوان على رقرقة الموج المِلحيّ. وهي تغرق.

سمعتها تصرخ بي، وكأنما بلا صوت.

ـ الحقني. الحقني ياحبيبي. لاأريد أن أذهب الآن.. لا أريد..

كـان جناحـاها الشفّـافان مبتلّين، يهـتزّان ويتقبضان مـع خفقـات المويجات الهيّنة لا تستطيع أن ترفعها من قبضة الماء.

كانت تغرق.

ـ الحقني. لا أريد أن أختفي.

***

(٤)
مراكب جانحة
في الترعة الحمراء

في شمّ النسيم كنا نصحو على الفجر.

بالأمس، كل انفعالات العيد، وعشاء ليلة القيامة، والتشوّف إلى بهجة الغد كانت تبقينا على حافّة يقظة مليئة وفَرِحة وقلقة.

على السرير العريض كانت أختي هناء الصغيرة هي التي تسقط أولاً في النوم.

لا أعرف الآن ماذا حلّ بها، انقطعت بنا سبل الحياة، هربت من البيت في أوّل الخمسينات، وعرفنا أنّها تزوّجت، أمّا ليلتها فقد كانت في الرابعة من عمرها. أما أنا، وأختي عايدة التي كنت أحبّها، فقد كنّا نتحدّث ونحن تحت اللحاف ترفع إليّ وجهها الصغير المنمنم رائق السُّمْرة، وعينيْها العميقتينْ الليليّتينْ، طفليّتينْ وناضجتينْ قليلاً معاً، ونحن نصغي إلى أصوات البيت التي تخفّ تدريجياً: أبي وأمي في غرفتها الواسعة من الناحية الأخرى لغرفة الضيوف، خالي سوريال العريس الجديد وامرأته ماريّة الصعيدية الكتوم خجلة من معرفتها الجديدة بالجنس - فهمت ذلك بعد أن كبرت وإن كنت قد حدسته عندئذٍ بغموض - في غرفتها على يمين الطرقة، مقفلة حيمة كأنها مبطّنة بالساتان الأحمر، ومضيئة بالنجفة الجديدة التي لها رائحة خاصّة عندما تشتعل كل مصابيحها الصغيرة، وفي الطرف الآخر من الطرقة غرفة جدّي ساويرس وستي أماليا، أحسّ هذه الغرفة الآن كبيرة وفسيحة، ثم غرفة خالتي وديدة وسارة، وفي آخر الشقّة غرفة خالي

يونان وامرأة خالي إستر التي عرفت على وركها، طفلاً، نوم العزاء وأولى ارتعاشات الشبق الطفليّ بعد أن رمت التلميذة الرقيقة بجسمها الرهيف، أمام عيني، من شرفة المدرسة، وماتت.

ألم نكن قد تعشّينا ليلتها قبيل منتصف الليل، على دقّات أجراس كنيسة مار جرجس الجديدة، تصلنا بإيقاعها البهيج في غرفة الضيوف التي بها مائدة طويلة كبيرة في ناحيتنا من الشقّة، محمّلة بلذائذ الإفطار بعد صيام خمسة وخمسين يوماً: أفطرنا على ذَكَر بطّ فخور، وبطّتين وديعتين، لحمها الطريّ المتماسك يلين ويُفضي بمتعة صافية رقراقة في الفم، والتلّ الصغير من الكسكسي نسقسقه بالمرق ونغرف منه بالملعقة الكبيرة فتتأتي فيه وهدات تنهار على جوانبها حبيبات مدوّرة دقيقة تدكن صفرتها بمَرَق البطّ الشفّاف المروّق من رغوة دُهنه الخفيف. طاجن الرزّ المعمّر بالحمام واللبن، قشرته العلوية بنّية محمرّة فوّاحة ومقبّبة قليلاً على بطن الرزّ الأبيض اللدن، جنبها الخُضَر المطبوخة ملوخية وبامية ورجلة، أما الأكلة الرئيسية في هذه المتعات المتنوّعة فهي الفتّة واللّحمة المشوّحة والبيض المزغلل يسلق ويقشّر ويقلّب في الطاسة التي تطّش بالسمنة الصعيدي فيحمّر البياض ويتغضّن قليلاً ويسمّر على الفور بلون بنّي شهيّ.

أكلة العيد في بيتنا حتى الآن.

الآن أصحو على نصف نور الفجر الذي يتسرّب من شيش النوافذ المقفلة، على أصوات نصف نائمة. الكبار، كما أحسّ في نصف اليقظة، يُعدّون مهمّات شمّ النسيم، وزوّادة اليوم. الأكل في الحلل يُقفل عليه بحرص، العيش البلدي الطرّي والمقمّر الجاف يُرصّ بعناية، والبصل الأخضر، والخسّ والخيار، والطماطم، تُلَف في قماش

أبيض نظيف زيّ الفلّ ومبلول قليلاً. وقُلَل الماء المبخّر بأغطيتها النحاس اللامعة.

ألبس الشراب الأبيض الجديد، وجزمة العيد السوداء اللمّيع، زجاجيّة البريق، صلبة الجلد قليلاً على قدمّي، والشورت القطيفة الأسود والقميص الأبيض الحرير الياباني. أطوي جلّابيتي الكستور الجديدة التي سوف ألعب بها في «النزهة».

أمي، مع انشغالها بإعداد اللفف والرُصص والرُبَط والمفارش، وعدّ الصحون الصيني الأصلي، والسكاكين والملاعق الفضة، تجد وقتاً لتُلبس عايدة وهناء فساتين العيد الزاهية التي فصّلتها بنفسها وخيّطتها لهما على الماكينة السنجر في بيتنا منذ أيام الصيام وقبل أسبوع الآلام.

أبي كان منذ الأمس قد اتفق مع مركب يأخذنا من عند الكوبري لغاية «النزهة». كنت قد سمعت على العشاء طراطيش كلام على تقسيم أجرة المركب بيننا وبين خاليّ يونان وسوريال. أما جدّي ساويرس فقد كان خارج اتّفاق الفلوس، ولم يكن خالي ناتان معنا تلك السنة. وكان الكلام على جنيه ونصّ، ولكن أخوالي قالوا جنيه وريال كفاية، فقال أبي بلغوته الصعيدية الرائقة كل سنة وأنتم طيبين ياخال الراجل بلديّات برضو ولمانلافيه فوج خَجُّه شويتين ماتبجاش عويله جَوي، ما يِجْراش، خلّوا الفَرْج عليّ أنا.

كانت الترعة مزدحمة بالمراكب.

تمتد من الكوبري باتّجاه النزهة حتى آخر ما أرى. القِلاع البيضاء الملفوفة حول الصواري والمفرودة حتى نصفها يلعب بها هواء الفجر البارد قليلاً وتصطفق بصوت رفيق.

كان النزول من الشطّ الطيني المتحدّر الوعر قليلاً صعباً ومنذِراً،

على أنوار الفجر الذي يشقشق الآن، ويهلّ بقوة، وكلوبات الغاز التي تفحّ كريّات مشعة وهّاجة وصفراء قليلاً في الهواء الطلق.

وكان النزول إلى بطن المركب أميناً ومريحاً، من على سِقالة خشبية عريضة تهتزّ اهتزازاً خفيفاً على الهوة المائية التي تبدو ضيّقة بين جزف الشطّ وحرف المركب.

آن للخطو القِلق أن يأنس دفء الخشب القديم الذي ضربه السوس من زمان، نَخَر فيه ثقوباً دقيقة لاعِداد لها، جفّ الخشب ومازال نسيج قلبه لدن الحواشي راعفاً يقطر بالدم.

صفط الملوك في ١٧ يونيو ١٩٤١

عزيز الأخ المحبوب

ترىٰ هل تجد ما تقرأه في أخميم ياصديقي؟ وهل عندكم مكتبة بلدية كالإسكندرية أو هل عندكم ناس مغفّلين تقرأ الكتب على حسابهم؟! معلهش يابني.. أنا مثلك تماماً هنا. فليس هنا مكتبة ولا سينما ولا راديو ولا كورنيش ولا أي شيء من الأشياء التي أحبّها والتي تعينني على الحياة. فعندما أريد أن أشتري كتاباً.. يجب أن أنزل الإسكندرية ـ والسينما، اين أجد بيتي ديفيز وبول موني ـ وأين أجد اللذة العميقة والسرور الذي أشعره بين جدران السينما دائماً ـ ثم الراديو. نعم عندي جرامفون ولكن ماذا تُغني بضع أسطوانات عن جلسة هانئة بجانب الراديو. أدير مفتاحه.. فأنتقل من موزار إلى بيتهوفن إلى.... أحمد شريف حتى؟.. ثم أين الكورنيش والبلاج والـSenioritas من السكّة الزراعية والغيطان والفلاّحات؟. أين مباهج الإسكندرية وحياتها السعيدة التي تُنسي الإنسان نفسه وتُنسيه نفسها؟ وتُنسيه كل شيء إلا السرور... السرور من مباهجها هادئة كانت أو ساجية... السرور من مرحها.. وبسمتها الدائمة بل

السرور حتى من الحزن.. فإني لم أك أجد سروراً عميقاً لذيذاً يفوق سروري.. بساعة حزينة أقضيها على بقعة مهجورة من الشاطىء الحبيب على الرمال الحانية مع ذلك الصديق: البحر، بأمواجه المجنونة التي تتراوح بين هدوء رفيق حالم.. وفورة صاخبة معربدة كأنما تلهبها ذكريات عذبة قديمة تبعث الفتور الحبيب في كيانها فتسيل حناناً على الرمال... ثم ماتلبث أن تشعر بالحرمان.. تبعثه فيها تلك الذكريات فتثور ثورتها الصاخبة.. تثور في وجه كل شيء.. إن أشد ساعات حزني وقلقي.. كانت تذوب وتندمج في فتور تلك الأمواج الحالمة.. أو تتلاشىٰ في ثورتها العنيفة.. وتترك نفسي غارقة في شعور حالم لذيذ.. تبعد فيه عن الدنيا.. إلى عالم آخر حبيب يختلط فيه الشقاء بالسكينة والهدوء.. وتشرد بعيداً.

فأين لي هذا الآن.. أعلىٰ شاطىء تلك الترعة الحمراء.. احلم؟.. وأذيب شقائي.. أو سروري؟ إن هذه الترعة المقيتة تردّني إلى الحياة دائماً.. فأنفر منها.. وأفرّ بعيداً إلى الحقول الواسعة الخالية، ولكن الضيق مايلبث أن يتملّكني فأفرّ.. إلى حجرتي.. وأغلقها على نفسي.. حيث أبحث عن السلوىٰ في كتاب أو قلم أو اسطوانة من موسيقىٰ أديرها.. تُنسيني بعض همومي. إنني أضيق بهذه الحياة ضيقاً شديداً.. ولست أجد هنا إلا اللعنة على أولئك الذين طالما تغنوا بسحر الريف وجماله.. وروعته.. إنني لاأجد فيه سحراً ولا جمالاً.. ولا روعة.. بل اجد موتاً.. وخمولاً وضيقاً.. وقبحاً في كل شيء.. ولكن..!

وعلى فكرة.. في فجر اليوم ـ أي ١٨ ـ حصلت غارة استمرّت ساعتين على الإسكندرية وكنّا نسمع الضرب من هنا ونرىٰ النار في السماء. ويقال إن المجرمين ضربوا ملعب البلدية (هدف عسكري)!.

وأحب أن أسألك كيف تقضي اليوم في أخميم! أمّا أنا هنا فأقضي أغلب يومي في حجرة خاصة أكتب أو أقرأ . .

وقد قرأت إلى الآن عدّة مجلّات منها «الرسالة» استعرتها من أحد المثقّفين (النّصّ عُمْر) هنا . . وقرأت كذلك «عطيل» لشكسبير . . ولا بأس بها إلا أنها ليست في قوة «روميو وجولييت» .

والبلد هنا عبارة عن حقول (طبعاً) تنفصل عن بعضها بترعتين كبيرتين متجاورتين وعدّة مصارف. ثم بعد ذلك الأبنية وهي عبارة عن أكواخ الفلّاحين الطينيّة وعدّة منازل أهمّها منازل ناظر المحطّة والمعاونين ونقطة البوليس ودوّار العمدة. ويوجد بقّال يوناني اسمه (خريستو) وقهوة يسمّيها الفلاحون (خمّارة) وتوجد بضعة حوانيت أخرى بجانب المحطّة منها دكّان حدّاد ودكّان (حلاقة)!! «Coiffeur» ويوجد السوق أيضاً وهو يقام ويحفل بالناس يوم السبت.

ويوجد عدا ذلك ماكينة الطحين بمدخنتها الرفيعة وصوتها المنكر المستمرّ طول النهار والـ«Sinioritas» بتوع البلد يحملن المقاطف ملآى بالحبوب أو الدقيق أو يسحبن البهائم خلفهنّ في كسل وتراخٍ! . .

ونسكن نحن في منزل مقام وسط الحقول ولا بأس به إلا أنه لا يوجد به كهرباء طبعاً ولا ماء ولكن في «الزير» الكفاية على كل حال!

والناموس هنا مزعج جداً ونتحصّن منه في «ناموسيات» ننصب حولها مدافع الفليت «Flit» ولكنه مع ذلك ينفذ داخل هذه التحصينات ويقوم علينا بحملات عنيفة!

ويتناسب احتمال الإقامة هنا تناسباً عكسياً مع مدنيّة الإنسان! أي أنّ الإنسان المتمدّن يستطيع أن يحتمّل الإقامة هنا أسبوعين فقط وعلى أكثر تقدير. والأقلّ منه يحتملها شهراً. . وهكذا حتىٰ نصل إلى من يقيم إقامة دائمة هنا.

وبناء على ذلك فإني لن أبقىٰ هنا أكثر من أسبوعينْ آخرين (حتى ظهور النتيجة) ثم طيران على مصر! . . .

أتعشّم أن تردّ عليّ بسرعة وتخبرني بكل أحوالك.

سلامي الخالص وأشواقي لشخصكم الظريف.

أخوكم المخلص
وفيق

أكان هذا أوّل خطاب منه؟ إلى «شخصي الظريف»؟

في السنة التالية، في أجازة الصيف بين التوجيهية والجامعة، كنا قد هاجرنا إلى دمنهور وبقينا فيها أنا وأختي عايدة وهناء الصغيرة، وأمي، أما أبي فقد كان يسافر كل يوم من اسكندرية إلى دمنهور والعودة، يأخذ القطار المزدحم، ثم أخذ يقللّ من سفره إلى مرّة كل يومينْ، ثم مرّة يوم السبت ويبقىٰ معنا يوم الأحد.

كنت أحياناً أمشي من دمنهور إلى صفط الملوك، لكي أرىٰ وفيق. ساعةً ونصفاً أو ربما ساعتينْ من الخطو الحثيث على الشارع المسفلت الذي يمتدّ جنب شط الريّاح البحيري العريض.

كنت أحياناً لا أجده في بيتهم بين الغيطان، ويدخلونني إلى غرفة أمه الراقدة في فراشها، النوافذ مقفلة والضوء شحيح، وجهها الطويل يبدو شاحباً، قريب الشبه جداً بوجه بنتها هانم، ولكن جاف، ذابل الشكل. رِجْلها الوحيدة بارزة تحت الغطاء الرقيق، الفراغ الذي تركه غياب الرِجْل الأخرىٰ واضح ومؤلم وأتحاشىٰ النظر إليه، كانت ساقها قد قطعت بعد جرح طفيف انتهىٰ بالغرغرينا. وكان صوتها فيه مرارة متوقَّعة بل ضرورية. فتقول لي إن وفيق سافر إلى مصر من يومينْ، إتفضّل أنت استريح شوية يابني. خد نَفَسَك

طيب. لم تكن هي تستريح إليّ. لعلها كانت ترى فيّ عنصراً ضاراً يشجع ابنها الوحيد على الشطح والخيالات والتخاريف والكلام الفارغ الذي في الكتب والذي كنا نصنعه في كتاباتنا الصبيانية.

كنت شديد الخجل والتَقِيَّة والتورعّ، فلا أكاد أعرف كيف أقبل دعوتها أن أبقىٰ، ولا كيف أرفضها. وكان جوّ بيتهم ونغمة كلامها أكثر برجوازية ممّا لي عهد به، وأعود مشياً إلى دمنهور، حالماً، غاضباً، سارحاً في ملكوت أوهام الصبا الغرير، ووجع يقظة الحسّ.

قرأت هذه الخطابات كم مرة؟

هذه الشطحات الرومانتيكية كم من مرة عدت إليها، حتى حفظتها تقريباً.

وسوف يقال، بطبيعة الحال، إنها ليست كلماتي، ولا هي من عندياتي، ولا شيء، إنها مسروقة، على طريقة الروائيين، وإنني أسكب دماء قلب أحبائي، على الورق، مثل نوع من دراكيولا، والدم عندي هو كلمات.

صحيح.

لكنْ ألم تصبح، بمعنىٰ ما، كلماتي أنا، مضفورة لا انفصام لها عن تكويني ونسيج نفسي، لا في الصبا وحده، بل حتى الآن؟

الخيم مساء ٢٧ يوليو سنة ١٩٤١

عزيزي وفيق

أهديك تحياتي العطرة مع أشواقي الحارّة وأطيب تمنياتي. وبعد، وصلني خطابك اليوم. وهأنذا أستجيب لك وأسطّر هذا الخطاب بسرعة البرق مخالفاً بذلك المثل المشهور: «زُرْغِبّا.. تزدد حُبّاً» لأنني واثق من أنك لن تملّني رغم هذه الخطابات التي أمطرك بها!

عزيزي.. بينما كنت أفكر في هذا «الخائن» وفيق الذي لم يردّ على خطاباتي حتى الآن.. إذ وافاني البريد بكتابك الممتع الجميل.. فتلقّفته متلهّفاً.. ولكنني لم أنتظر حتى أزيد لذّتي به بل فَضَضْتُه بسرعة آليهام مكنة الطحين لحبوب الفّلاحين.. وما كدت أفضّه حتى انتهيت من قراءته كما يُخيّل إليّ.. ولكنني لم أشبع!.. وأعدت قراءته مرة ومرة وكيان مرة!! وبعد ذلك تخشّىٰ مللي.. لا.. «أوعَ تخاف». لقد كان ذلك طعنة هائلة!

هل تذكر أيها العزيز أول مرة عرفت روحي روحك وتعانقت مشاعري بمشاعرك في «كشك الألعاب» وهل تذكر تلك الحالة التي تشبه الحمّىٰ التي تنتابني كلما اهتاجت تلك الأعصاب اللعينة.. هي بعينها اعترتني بعد قراءة خطابك. فلم يَزُرْني النوم إلا بعد الساعة الثانية صباحاً.. ويمكنك أن تتصوّر حالتي وقد أثقل السهر.. والألم جفوني... و«نكش» شعري.. وأحالني إلى كائن غريب.. يُنْصِت في الوحدة والوحشة إلى الطلقات النارية التي تتجاوب في الحقول الناعسة البعيدة.. وإلى عواء الخنازير الأليفة.. في شوارع المخيم الهاجعة.. وقد انطلقت تبحث لها عن غذاء.. تطفىء به ظمأها وجوعها.. ترىٰ هل ينطفىء ذلك الظمأ الذي يلتهم روحي؟

عزيزي وفيق

تقول «إنني من ذلك الطراز الذي يرضى بكل شيء ويبتسم بسهولة».. ولكنني أعرف أنك لم تذكر هذه الجملة إلا لتحفزني على أن أن أخبرك بكل شيء.. وسوف أفعل..

ليتك تعلم كيف أعيش هاهنا.. وكيف أنقل خطواتي القليلة مُطْرِقَ الراس حالمَ العينين جيّاش الحنين وقد اعتصر السأم.. والوحشة.. واليأس روحي..

ليتك تعلم تلك الزوابع القاتلة المجنونة. . الصامتة. . التي تحطّمني في سكون. . ولكن في عنف وهول. . وذلك الضيق. . والفراغ. . والظمأ، الظمأ الملتهب. . الملتهم. . ولكن. . أليست الحياة - كما قال جبران - نصفين. . نصف بارد مظلم قاس معاً. . ونصف ملتهب منير منصور متألّق. . فاللهم اجعلني وقوداً للنصف المحترق. . اجعلني هشيماً للنصف الذائب. . وفي الواقع. . كم أحب الجحيم التي تضطرم في روحي. .

ولكن. . إن سعادتي في ألمي. . وغبطتي في شقائي. . إن الفريد دي موسيّه يقول: «دع هذا الجرح المقدّس. . دعه يتسع. . فلا شيء يجعلنا عظماء. . مثل الألم الشديد». . أما أنا فأقول: «أُحِبُّ هذا الجرح الدامي. . أُحِبُّه كلّما خمد. . فليس شيء يجعلني سعيداً مثل الحرقة. . والنار. . والألم الطاغي. .» هذا الألم الحاد اللاذع. . ألم الحنين. . والحرمان. . الألم الذي يبعث في الأطراف رجفة. . والذي يشبه الشوكة المدبّبة. . أضغط على طرفها قلبي. . وأستلّذ حرارة الدم المتساقط من جرحه. .

إن سعادتي. . في عزلتي. . ووحدتي. . أخلو إلى نفسي. . وفيها أكوان بأكملها مليئة بالأنوار والظلال. . والعطور والأغنيات. . والهمسات والصيحات. . والكائنات الحيّة العجيبة. . والأشياء الخفيّة الرائعة. . والأشباح والشياطين والملائكة. . والأشواك والورود. . إنني أحب الصمت. . لكي أفرّ من نفسي إلى نفسي. . ولكن بعيداً. . بعيداً عن البشر. . وعن حياة البشر. . تلك الحياة التي تلفظ الملايين من المخلوقات الغريبة في سحب من الضجّة والطنين. . والسخف والحيرة والضلال. . في سيول هادرة متدفّقة. . تتصاعد في لجّة من الأبخرة المتلاشية. . قد نجد في طيّات هذا الغمار شيئاً يتمثّل فيه

الجمال.. كزهرة.. أو لمحة.. أو عَبَق.. ولكن سرعان ما يطغى الموج المصطخب لكي يبعثره هنا وهناك.. وينثر الحياة كلها.. زبداً متطايراً تذروه الرياح وقطرات متساقطة.. تبتلعها الرمال..

عزيز.. لست أدري لم خلقنا هكذا.. مُرْهَفي الإحساس.. لكي نشقىٰ هكذا ونحترق.. هل تذكر قصة تلك الفراشة الهائمة النزقة المجنونة.. التي انبلج عنها فجر الحياة.. لكي تُحوِّم وترفرف.. ثم تذوي عند المساء.. وفي روحها حسرة الإلتياع.. وعلى شفتيها اللهيب الظامىء.. الذي تركته قبلات الأزهار؟

إنني هنا.. ودائماً.. شيء غريب.. مريض.. حسّاس.. صامت.. معتلّ.. مخلوق يعيش.. نصف حالم.. نصف ذاهل.. نصف مجنون..! شخص معتزل.. عزوف عن المجتمعات.. لم يُخْلَق إلا للوحدة.. والتأمّل.. واليأس في النهاية.

إن عزائي.. أنني قد وجدت روحاً تشعر بما أشعر.. وتحترق كما احترق. روحاً تفهمني.. وافهمها.. وتمنحني السلوىٰ وأمنحها.. هذه هي روحك التي أخاطبها الآن.. واثقاً من عطفها.. ووفائها.. ومحبّتها.. واثقاً من تقديرها.. وفهمها.. حقاً إن الصداقة هي خمر الحياة..!

إنها القصة القديمة.. تلك التي تكمن في حديثك وفي أنّاتك.. وفي آلامك.. قصة القلوب الحسّاسة.. النقية.. المنكوبة!

لقد آلمني.. حزنك.. ومللك.. وكم يعزّيني ويسرني.. أن استطيع بأيّ وسيلة أن أخفّف عنك وطأة هذا الشقاء الذي نشترك فيه (بحمد الله)!

ولست في حاجة أن اخبرك أنني صديقك المحبّ الوفيّ الذي يفتح أمامك قلبه.. هذا القلب الظامىء.. الفاشل.. الذي سوف يذوي

بين أحلامه الميتة.. وآماله المحطَّمة.. ما أصدق الدكتور زكي مبارك في تفجّعه: «آه من جوع القلوب»!!

ولعلّك لم تنسَ قول «جبران»: «إنما السعادة صبيّة جميلة تُولَد وتحيا في أعماق القلب.. ولا تأتي إليه من خارجه»..

إنني أذكر لك كل هذا.. بعد أن أخبرتني.. أنك في حاجة إلى صديق.. وأكثر قليلاً.. أما الصديق.. فهاهوذا.. «وشرّف تجد مايسرّك» وأما هذا الأكثر قليلاً فلست أعرفه.. وقد تستطيع أن تجده في فتاتك «الأجريجية» التي تصر على أن تدعوك «وفيك».. وليس وفيق.. نعم؟ أليس كذلك؟ أم لا يعجبك الكلام؟ لابأس.. ولكن أنصحك أن لا تغوص في لجج الأحلام كثيراً.. فقد «عملتها» مرة.. وغصت فيها إلى أعمق من اللزوم.. ولسوء حظّي.. كانت في المياه ملوحة.. (من الملح وليست الملوحة الأخرىٰ التي نأخذها في شم النسيم).. ونفذت المياه إلى عيني فصيّرتها في لون «أعين الحياة التي تطل من أعماق الترعة الحمراء».. وإلى أذني.. فأخذت أرقص كأنما على نغمات قيثارة ممزّقة الأوتار.. تعزف عليها جِنّية حزينة!.. وإلى أنفي.. فأصبح كبعض الأغصان الجافّة التي تترنّح في «ماكينة الطحين».

أهديك أرقّ تحياتي مشفوعة بشوقي الملتهب ومحبّتي الخالصة.

أخوك الوفي

* * *

هل من حقي أن أبعث هذه الأشواقَ، والتعاساتِ القديمة، والمزاحَ ذا الذوق الرديء قليلاً، من مثواها؟ ألم تصبح رمياً؟

ياه.. يالهذه المشاعر، هذه اللغة، أحقاً قد مضىٰ عليها أكثر من نصف قرن؟ كأنها من كتابات المويلحي مثلاً، أو البهاء زهير..

أهذه مرثيّة للرومانتيكيّة أم باروديا لها؟ . . وشجن أم سخرية؟

وهي مع ذلك، بالكلمة، طبق الأصل، لماذا تبدو كأنها محاكاة مختلَقة؟ كأنها مخترَعة، مصنوعة؟ أم هي كذلك؟

أوشك أن تتسلّل إليّ هذه الإبتسامة التي يذكرها وفيق متوجّساً ولكنّها ـ فيما أظن ـ ليست ابتسامة سخرية ـ بل أعرف هذا ـ لعلها ـ إنْ جاءت ـ ابتسامة حدب وشوق إلى أولئك الذين يبيدون الآن، الذين ظلوا حتى الآن مراهقين رومانتيكيين، فيهم قدر من البراءة مهما كانت مخدوشة بل مطعونة، وهم يقاربون موتهم أو يقارفونه فعلاً، وهم يودّعون تلك التي قالوا عنها «الحياة التي تغيب في بحر الآلام الصاخب المضطرب».

الا يبدو ذلك كله ـ حتى في عيني ـ نوعاً من العيب؟

أو انه ـ كما لا أملّ من أن أقول ـ نوع من حمق الشيوخ؟

نافذة «ماجريت» هنا، سقطت ضلفتاها المتقابلتان، معلّقة دون جدران، دون غرفة، مفتوحة، زجاجها يمتزج بنسيج سماء أوكسفورد الزرقاء السّاكنة، السحابات البيضاء ممزقة الأطراف تسري إليّ من داخل النافذة وتعبر إطارها الخشبيّ. أغصان الطفولة متلوّية معقوفة الأطراف سوداء شتائية تهتزّ في ركن النافذة مقطوعة عن أرضها العتيقة وأزهار الكريز شاحبة وغير مثمرة المداخن الآن تنفث دخانها المُرْهَق يتصاعد نحيلاً واهناً إلى غير غاية على سقوف الصفيح اللامعة والقرميد الكابي مبتلّ الشكل، ولا مطر، مطبقة وصامتة مهما بدا أنها قوّالة. هل تنطفىء نيران المواقد الخابية؟ نقاء التأملّ هل يُخفي اضطراب الموج القديم؟ مرآة متكرِّرة بلا نهاية تعكس صورة واحدة في تشويهات لا عِداد لها في هذا الربيع الكاذب في هذا الصيف الهنديّ. تشريح لأشلاء ترتعد أوصالها مازال دَمُها سخناً، مُراً وعذب

الطعم معاً. الهواء البارد قليلاً يحمل إليّ روائح مختلطة، وأصواتاً لا أتبيّن ما تقول.

صفط الملوك في ٢٥ يوليو ١٩٤١

عزيزي المحبوب

وصلني خطابك الظريف بعد أن طال انتظاري له، حتى كدت أيأس من وصوله إليّ، ولكنني ذهبت اليوم إلى مكتب البريد ـ كعادتي في كل صباح ـ وبعد أن استلمت الأهرام سألت حضرة الوكيل هل من جواب لي؟ فأجاب أنْ نعم فقفزت من فرط الفرح! . وعندما أعطاني الخطاب ووجدته منك قفزت فرحاً مرة أخرىٰ وتعلّقت برقبة حضرة الوكيل وقبلته قبلة حارّة لشدة فرحي وتركته وأنا أسير In a jumpy manner وهو يحملق في أثري بوجهه الدميم «الأخرش»!

ولم أفتح جوابك في الطريق، فقد أردت أن أطيل أمد لذّتي به، فاستبقيته حتى عدت إلى المنزل. . وهناك فتحته وأخذت أقرأ كلامك. . يسيل بين الأسطر في عذوبة الغدران الصغيرة تتسابق بين أعطاف الورود الناضرة. . وأحسست كما لو كنت معي تحدّثني حديثك الهادىء الظريف فأخذت أقرأ. وبسمة السرور واللذّة ترتسم على وجهي. . وأنا أودّ ألا ينتهي هذا الخطاب. . لذلك تجدني في دهشة عظيمة لخوفك من مللي! والحقيقة أنك تشتمني باعتقادك أني ملّ مثل خطابك هذا. . فهذا لا يملّه إلا «حمار» أو «شُوَرىٰ»! فلقد قرأته مرّتين وسوف أقرأه مرّات أُخر بنفس اللذّة وبنفس السرور حتى يصلني خطابك القادم.

يُخيَّل إليّ ياصديقي أن قصة «الترعة الحمراء» هذه تعجبك كثيراً! لك الحقّ ياعم. . فاضحك كما تريد! ولكن ذلك لا يمنع من أن الترعة حمراء. . وأنّ الحياة تطلّ عليّ من أعماقها بأَعْيُنٍ حمراء أيضاً!

يُخيَّل إليّ أن الحياة صارت هنا نغماً ثقيلاً سمحاً. تُوقّعه في تراخٍ وخمول على قيثارتها الممزّقة الأوتار جِنّيَة غارقةٌ في أحزانها.. فالمنظر الذي تراه من مشرق الشمس هو بعينه الذي تراه في الظهيرة وهو لايتغيّر والشمس تذوب في غروبها عند الأفق البعيد.. أيْ بالعاميّة.. وبلغة أبسط، الحياة هنا تسير على المبدأ الشهير «خدت الخشبة بتاعة حبشي.. حبشي مين؟ صاحب الخشبة»!

إنني أقف هنا ساعة الغروب ـ وهي ساعة من ساعات الإسكندرية الحبيبة إلى قلبي ـ وأنظر إلى الأفق عبر الحقول الخضراء الشاسعة.. خلال ذلك الفضاء الهائل.. الحافل بهمسات سَكْرىٰ حالمة.. لأرواح شريدة.. وهناك.. في الأفق.. ترسو روحي الحائرة.. وتُذيب نفسها في كأس خيالها..

وتشرد عيناي.. ويخيَّل إليّ أن الحقول الساكنة تتحرّك رويداً.. ويحول لونها الأخضر إلى زرقة حبيبة.. وتتلاعب أمام ناظري أطياف البحر.. والشاطىء الساكن برماله الصفراء الحنون.. ويُخيَّل إليّ أنني واقف إلى سياج الكورنيش العظيم.. أرقب الغروب.. وأودّع الشمس وهي تغيب في طيّات البحر الهائل.. وتترك خلفها قبلة حزينة تُلْهب جبين الأفق بذلك اللون الأحمر القاني.. وأُمعِن في خيالي.. وأشعر بنشوة صبّتها الذكرىٰ العاطرة.. في حلمي الذائب.. الذي.. ماالبث أن أفيق منه مرغماً على نغم جاموسة عابرة.. أو حمار ناهق!!

أخي العزيز

إن الحياة هنا تمرّ.. وتسير على وتيرة واحدة لا تتغير. ويُخيَّل إليّ أنّها تسير على نغم ساخر قبيح تخرجه «مكنة الطحين» بمدخنتها الرفيعة وصوتها المنكر..

و«مكنـة الطحـين» هذه هي آخـر مكان ألجأ إليه عنـدمـا يبلغ بي الضيق أشدّه.. ولكنني لاأكاد أمكث فيها دقائق.. حتى أحس كأنني أختنق في جـوّها المحمّـل «بالـدقيق» المتطايـر.. وبروائـح الفلّاحـين القـذرة وصيـاح الأطفـال.. ذوي العيـون التي أكلهـا الـذبـاب.. والملابس الممزّقة الموحلة. فأخرج مسرعاً قبل أن أختنق.

وذات مـرة دخلت، وكان الزحام خفيفـاً إلى حدٍّ مـا. وجلست إلى صاحب الطاحون اليوناني وهو شاب في العشرين اسمه «تيمـوستكي» وهو أخ خريستو صاحب البقالة.. وفي وسط حلقة من فتيات الريف «المطبِّلات» عـلى شيء في أيديهن الخشنـة كـانت فـلّاحـة تـرقص.. وهمس اليـوناني ـ وهـو يتكلم العربيـة ويقرأهـا أحسن منك ـ في أذني ضـاحكاً.. «الجـازبانـد بتاعـة صفط»! ونظرت إليـه ضاحكـاً.. ثم نظرت إلى ذلك المرقص الفريـد وعدت بـذاكرتي إلى الإسكنـدرية.. ولست أدري أيّ شيـطان أوحىٰ إليّ في هذه اللحـظة بمنظر «الـريتز» ومـرقصه الفخم! ولست أدري أيّ شيـطان أوحىٰ إليّ أن أقارن بـين «الـريتز» وبـين «مرقص صفط»! وأيـة مقارنـة بين مـوسيقىٰ الـرومبـا والفالس تتناثر في سحرٍ بين الأنوار الهـادئة.. والأصـوات الجميلة.. وبين نهيق الحمير خارجَ الطاحون وضجيج الآلات في الداخل وجنون الشمس النارية يتسلّل مُحمَّلاً بالتراب والدقيق؟!

أية مقارنة بين فتاة ترقص الفالس.. بين فتاة تهزّ وسـطها وتتـمايل كالأغصان الجافّة؟!

أيّـة مقارنـة بين فتـاة جميلة.. ذات عينين حـالمتين وشعـر بـديـع يسترسل على كتفيها العـاريتين إلا من حمـالات رداء السهرة.. تبتسم عن أسنـان كـاللؤلؤ وهي تخطُر في رشـاقـة مـع زميلهـا عـلى أنغـام الأوركسترا.. وبين هذه الفلّاحة السوداء تقريباً.. في ردائهـا الأسود

الســابغ الملوَّث بـالدقيق والغبـار وهي تقفز أو تتـرنّح ـ لست أدري ـ دون أيّ معنىً!

لم أشمئـز من هذه الفـلاّحة كـما يتبادر إلى ذهنـك. . بـل شعـرت بحزن شديد. . أو إشفاق شديد لهذا المنظر البائس. . ولم أتمالـك أن أخـرج مسرعاً. . وأعـود إلى المنزل حيث أقفلت بـاب غـرفتي وأدرت «الجرامفون» بإحدىٰ مقطوعات «شتراوس» الرائعة.

* * *

يُخيَّل إليّ أن هذا الكلام لايعجبك ياصديقي. . فإنك على ما أرىٰ من ذلـك الطراز الـذي يستسلم بسهولـة ويرضىٰ بكـل شيء. . نعم يـاصديقي إن الـريف جميل حقـاً. . ولكنْ أحيانـاً. . وليس دائـماً. . فكثيراً ما تضيـع فتنة الـريف في سيل من العيـوب. . فتلك الفلاّحـة الجميلة ذات الـوجه السـاحر حقّـاً في خمارهـا الأسود التي تلقـاهـا في السوق. . وتعجب بجمالها الساذج. . لا تلبث أن تُشيح عنها بوجهك في حزن واشتمئزاز وشيء من الإشفاق. . حين تراها تهـرش رأسها أو تنفض ملابسها السوداء بحركة تدلّك على أن هـذه الملابس هي وكـر للقمل والحشرات.

وذلـك الطفـل الصغير الـذي يعدو وراء أمـه. . إنه كـان يعطيني منـظراً أبدع من منـظر طفل أشقـر. . يسير عـلى البلاج ويـده في يـد «دادته» السوداء ـ بدون تلك القذارة التي تكسوه وذلك الـذباب الـذي يأكل عينيه.

هـذه ناحيـة من نـواحي الـريف الجميلة. . يضيعهـا عيب لاذنب لأهـل هذا الـريف فيه. . وإنمـا هو ذنب الـزمن الذي فـرض عليهم الفقـر الـذي أورثهم هـذه القـذارة. . أو هــو ذنب الإهمـال الــذي أوصلهم إلى هذه الحالة التعسة.

ثم هناك عيب الريف الأكبر.. وهو الملل.. الملل القاتل الذي يطغىٰ على الحواسّ فيحيلها إلى كتلة مُرْهَقة من الضيق والتأفف.

إن تشابه المناظر في الريف.. وعدم تغيّر الحياة ولو قليلاً لـمّا يبعث على أشدّ الضيق حقّاً.. ثم إن عدم وجود إنسان واحد يستطيع الواحد أن يجالسه عشر دقائق دون أن يهمّ واقفاً ويخبره أنه جاهل.. حمار.. غبيّ.. لـمّا يضايق أكثر.. وأكثر!

إن الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن أجالسه هنا.. هو الفتاة اليونانية أخت خريستو البقّال. وهي في العشرين تقريباً.. وقد أفدت منها أن علّمتني كيف أتحادث بالفرنسية! التي أفضل أن أحادثها بها دائماً تقريباً إذ إن لغتها العربية مضحكة ولا تستطيع أن تنطق اسمي كما ينطقه بقية الناس.. بل تصر على أن تسمّيني «وفيك» وليس (وفيق)!

وقد علّمتها ركوب الدّراجة في العام الماضي.. وقاسيت كثيراً حتى استطعت أن أعلّمها كيف لا تترك العجلة وتركبني أنا!

وقد علّمتها كذلك بضعة دروس في الرقص على أنغام الجرامفون.. وهي ترغب في الإستزادة من بحار علمي الواسعة! لذلك تجدها تخلص لي كثيراً.. إذ تدين لي بالكثير.. ويخيّل إليّ أن عندها إستعدادٌ لتمثيل دور «جولييت» ولكني تِلم قليلاً.. ولا رغبة لي في الدور المقابل!

* * *

أخي المحبوب

أرجو ألا تكون متضايقاً من هذه «الخطرفة» البايخة التي كتبتها لك.. وتجلّدْ قليلاً يابنيّ فليس عندي الكثير.. ومع ذلك أودّ لو أطلت وأطلت حتى سطّرت كتاباً كاملاً.. أعانك الله!!

ثم أرجو أن تتعزّى عن سخافة خطابي هذا . . بأنك تؤدّي خدمة إنسانية جليلة سامية بالردّ عليه بسرعة البرق!

أخوك المحبّ

وفيق

كانت أمي حريصة على البرطمان الكبير المملوء بحبّات الترمس الصفراء تلمع من وراء جدران الزجاج الشفّاف بصفرتها المبلولة، حريصة على لفّة الفسيخ، وورق الزبدة على لحمه المتفسّخ المحمرّ الناضج داخل الورق الكرتون الواقي، حريصة على الحلّة العريضة المحاطة بملاية سُفْرة نظيفة وقد رصّت فيها أقراص الكعك المرشوش بالبودرة العطرة والغريّبة التي سوف تذوب في الفم عجينةً حلوة ومتماسكة وأصابع البسكوت الجافّة الرقيقة، رصّات دقيقة محسوبة عُمِلت بحذق وخبرة ومَعْلَمة، حتى لا تتفتّت منها حِتَتٌ الجوانب الهشّة الناعمة، وكنّا سهرنا أنا وأختي عايدة عند الفرّان الليلة التي تصبح بسبت النور، ولم نرجع إلا وصبيّ الفران معنا يحمل على رأسه صفوف الصاجات الحديدية السوداء اللامعة وعليها من بهجات العيد الكعك والغريّبة والبسكوت روائحها السخنة المتطايرة في الليل في شارع الكروم النائم، تهفهف بعطر ماء الورد خفيفاً جداً، والأنوار مازالت تتخايل في النوافذ نحسّ من ورائها انتهاء أسبوع الآلام ومقدم عيد القيامة.

أبي بعوده القائم. البالْطو الجوخ لونه بيج غامق ورصين، مفتوح قليلاً، في هواء الصبح البدري، عن الجلاّبية الحرير السكروتة الهفهافة ذات الشقّين الملمومين بشريط رقيق مضفور، والطربوش مائل قليلاً إلى الوراء، وهو يتّفق مع المراكبيّ - في آخر المركب، هناك بعيداً - على ميعاد العودة بالضبط وعلى تسوية حسابه، ثم يأتي إلينا

بابتسامته النادرة المُطَمْئِنة، وخالي سوريال يساعد عروسه على النزول من الشطّ ويسند ذراعها وهي تخطف إليه نظرة امرأة عرفت الأنوثة حقاً على يديه، وكنت أحسّ شيئاً ما، لا أعرفه، يجتذبني إليها، في جسمها الممتلئ قليلاً بتدويراته الناعمة المخبّأة جيّداً في فستانها الحرير المشجّر فتْحته أكبر قليلاً ممّا عهدته فيها وهي بنت بنُوت، تفصح عن صدر غضّ مضغوط ولامع بندىً خفيف، وفي وجهها الأسمر المدوَّر المتضرِّج بخجل شبقيّ مكتوم متّصل ولكنّ فيه حنوّاً رؤوماً.

سوف أعرف مدى الوقوع في أسر الحسّية الصراح، فيم كان التعجّل؟

كما سوف أعرف عن وفيق سقوطه في أشْراك الحسّية تحت قناع النفور منها، والإشمئزاز منها، واللواذ بما كان يسمّيه «الحب الطاهر النبيل».

سوف أعرف عنه ـ ومنه ـ كيف يَوْلَغ في عضوية المرأة، ويوغل في جسدانيتها، معكوس الحسّ بها، المرأة، في المطلق، أية مرأة، بدون اسم، بدون هوية، فقط مرأة.

هو، فقط؟

يرفض، بعرامة، غوايات الشبقية، فيسقط بذلك في حِبالها المتلويّة الناعمة، وبين طيّات لغته نفسها تلمُّظ الإشمئزاز، والتلذُّذ.

لغته، فقط؟

هو، فقط؟

ألا يمكن أن أدرك الآن ـ بعد كل هذه السنين ـ أن الحكاية كانت محسوبة منذ أولها، وأنه لم يكن ممكناً أن يستمرّ هذا الحبّ العذريّ الطهور، مصيره مضروب، فإمّا أن يرتطم بجسدانيته المنكورة نفسها،

ويتـردّى في تخبّط خيبة الأوهـام، وإمّا أن يـطوي جناحيـه المشّين إلى الأبد، يضع سهامه بـريشة الشكـل مسمومـة السِنان في جعبتـه عميقة القاع، ويجفّ في حنوط الكلمات.

وهو ماإختاره، في النهايـة. فهل اختـاره حقّاً، أم فـرضته جـانيت عليه، بمعنىً من المعاني.

ألم تكن جانيت هي العصيان، والتمرّد على الوهم؟

ألم تحتفظ في النهاية بكبريائها إذ رفضت أن تنصاع أو تمتثل لهـذا الحلم الأسر بقضبانه المصنوعة من الكلمات، قفص لا يقلّ صلابة مع ذلك عن أعتىٰ الحديد؟

لم تَعْنُ لحبه «المقدّس» لأنها ـ بـالضبط ـ عرفت في مستـوىً ما من معرفتها الجسدية إنه الطُهْـر مقلوباً عـلى وجهه، أنـه طُهْر ينـطوي في صميمه على شهويّة ملتحمة تبضّ بالدم والمنيّ.

لعلها كانت أرفق به، منه بنفسه.

تركته طول العمر يعتقد أنها هي التي هجرته، أنه ضحية.

ومن ثمّ بوسعه بعد ذلك أن يحيا حياته، بنزواتهـا وغزواتهـا ـ وهو خفيف العبء مُبرّأ من إثم لصيق وكامن وغير منفصل عن حبه.

هي التي حملت ـ بوعي منها أو بدونه ـ عبء الخيانة التي لم تقترفها قطّ، لأنها إذ تركته فكـأنّها كانت تستجيب لمـا يريـد حقاً. صـانت له وهم حبّه، إلى الأبد.

أم تكـرّر رامة، بعـد ذلك بسنـواتٍ طِوال، نفس النمط، عـرفت مافي داخل حبيبها قبل أن يعرفه هو، وكان رفضها له دليل حبّها؟

ومع ذلك فالحب قائم، من الطرفين، لايحول، وحقيقي.

جانيت التي تمرّدت على دور فاوست ولم تُطِعْ يَهْوَه، معاً.

ورامة.

استقلّت بإرادة داخلية فيها، عن غواياتها معاً، كلٌّ منها.

لم تَبِعْ حياتها مقابل وهم الحبّ الذي كانت تعرف ببصيرتها العميقة أنه مستحيل.

لم تستمع جانيت لذلك الذي لعب قليلاً دور «يَهْوه»، حينما نهاها عن الثمرة المحرَّمة، وحظر عليها ـ من فرط حبّه ـ أن تأكل من تفاحة المعرفة الجسدية التي أرادها أن تتأبّى عليها أبداً.

وهي أيضاً لم تسجد ـ في دورها المزدوج.

ألم تكن ـ هي ـ مخلوقةً من جمر النار، وحمأ مسنون؟

أمّا الدمية صورتها الأخرى التي رفعها أمامها، فقد كانت من طين رخو، وهشّ الصلصال.

ألم تنذره من البداية بإرهاص النمط المتكرِّر؟ وافقت أولاً على خطوبة ناظر المدرسة الغنيّ، ثم هفّها الحنين إلى رومانتيكية الحب الوَلِهِ التدلُّهِ والهيام ساحر الموسيقيٰ، وإلى أحلام غدٍ كانت هي تعرف ـ في دخيلةٍ خفيّة ـ أنه لن يأتي أبداً.

فأعطت المحبُّ مايريد، لُهنيهة هفهافة القوام، معلّقة في اللاّزمن. وما يريده هو طعام الأحلام وطعام الآلام العذبة.

هل كان وفيق يحدس ذلك كله، في عمقٍ من نفسه؟

انتحاره ـ أي لفتة الإنتحار المجهَض الصارخ ـ هل كان عقاباً منه لنفسه أساساً، وليس احتجاجاً على حبيبته، أو يأساً منها، أو حتى غضباً عليها؟

أم كان فيه نوع من التبرئة لنفسه؟

الترعة الآن غطّتها أعشاب ونفايات الحياة، تراكم على مائها، الذي كأنّه مضرّج بالدم، صدأ السنين.

هل تتطهّر يوماً، يأتيها نقاء الظلام الأخير؟

سوف يقلع المركب وشيكاً.

المراكبي يفرد قلعه الأبيض المغبرّ قليلاً، يفكّ الحبال الملفوفة التي توثقه بالصاري، ويرخيها، يصطفق الهواء بالقماش السميك المرقّع في طرف منه برقعة جديدة مخيطة بقوة في الشراع، قال الفلايْكي بصوت ملايْكي: هِيلا هُوب هِيلا؟ لماذا تدخل سخريةُ النغمة الغنائية الشهيرة على مشهدٍ خالٍ من كل سخرية؟ لم يقل المراكبي شيئاً بل انزلق المركب الضخم، دون أن أحس، في الماء الساكن الداكن اللون.

رأيت الشطّ يتراجع بصمت للوراء، وأشجار التوت كثّة الفروع مترِبة الورق، والعنباية المفروشة بأوراقها الخضراء العريضة على تعريشة من الخشب المسودّ، تدلّت فروعها حتىٰ تراب الشطّ، وقامات الناس تصغر ببطء على حافّة الترعة، وتبتعد، والمركب يشقّ طريقه وسط الترعة بين المراكب التي مازالت راسية ومضطربة الحركة، نزول الناس إليها، نداءات ترنّ في الفضاء، خافتة ولها صدىٰ، الإستعداد للإقلاع، والهواء يشتدّ، وقد استقرّ كل من أحبهم، تقريباً، في بطن المركب.

مَنْ أقلع بهم المركب؟

مَنْ تركني وحدي على الشطّ؟

* * *

(٥)

في بطن شجرة عتيقة

شجرة السنوات متشابكة الأغصان، عضِلة، متضاربة الوَرَق، وشرايينها متفجرة.

الشجرة العجوز المتصلّبة اندلعت منها فسائل خضراء، غضّة، صغيرة، لدنة ومتدلّية، من نعومتها.

كنت أول من يسارع الخطىٰ، عارفاً بالسكّة من السنة للسنة، عبر الممرات الترابية العريضة والمدُقات الفرعية المتلوية، ومن بين حرشات الأشجار المتكاثفة، ومن فوق المساحات الفسيحة من العشب المجزوز الطريّ المندّى، ومن تحت متاهات ما يشبه أدغال النباتات الحوشية، في طريقي الذي لاحول عنه إلى هذه الشجرة العتيقة التي اتّخذناها، من سنين، مقرّاً لنا، ومأوىٰ، ومحطة، يوم شم النسيم كل عام.

الشجرة ستر وكِن وظليلة، هي أيضاً مفتوحة من أحد جوانبها - تحت تواشج الأغصان الأثيثة - على سعة من الخضرة ممتدّة أمامنا حتىٰ المدىٰ. وعلى جانبيْ هذا البراح العريض المنير الذي ينفسح له الصدر، يرتفع صفّان من أشجار النخل السلطانيّ الرشيق الخجول في سموقه ونضارته، أملس السيقان، أبيضها، يميس سعفه على استحياء.

قال له ياسوسن ياتمر حنّة.

ياورد أحسن من عِطر جنّة

أموت شهيد الجراح

ويعيش جمالك ويبقىٰ..

كانت الفروع التي تتدلّى على جوانب هذا الكهف المريح المكنون، غضّة الورق، مرحِّبة.

فردت أمي، على التراب في بطن الشجرة، حصيرة ملفوفة لم أعرف أين كانت قد خبّأتها، وأخذت، يساعدها بقية ستات وبنات العائلة، ترصّ الحلل والطواجن واللفف، وكانت عايدة قد وصلت تحمل على رأسها قفّة كبيرة، فأراحتها على الحصيرة، وكانت معها اسكندرة، وبنت خالتي هنّومة زنجية الملامح لامعة البشرة الأبنوسية، وأولاد أم صبحي ذات الوجه الصغير المصقول كأنّه من وجوه تماثيل التناجرا.

اكتشفت فجأة جاكتة بيجاما مخطّطة، مبلولة ومغضّنة، معلّقة على فَرْع داخلي جافّ. وأحسنت أنها علامة تدنيس، اقتحام لا يطاق.

لم يكن هناك أحد. أحسست بفجوة غضب ـ وعار ـ تنفتح في صدري.

جاء أخوالي وزوجاتهم، وخالتي وديدة وخالتي سارة، وستّي أماليا. أين كان جدّي ساويرس؟ هل جاء فيا بعد؟ هل كان قد خرج لصيد السمك بصنارته وبوصتة الطويلة من الفجر البدريّ؟. وكان كل منهم يحمل شيئاً من عدّة الأكل واللعب في شم النسيم.

لحق بنا أبي بعد ذلك بكثير، مستنداً في مشيته الوئيدة إلى عصاه الأبنوس ذات المقبض العاجي، الهواء يفهفه بجانبي البالطو البيج الخفيف ـ أول مرّة يُصيّف في اللبس هذا العام ـ عيناه العميقتان الغائرتان تلمعان بسرور العيد.

كان قد أنهى ـ من غير شكّ ـ مواعيده مع المراكبيّ الذي طوى قلعه الأبيض الشاهق.

كنت قد تركت المركب وهو ينساب ببطء، راجعاً، على مياه التّرعة المزدحمة، أسرعت إلى باب «النزهة» الحديدي المشغول العريض، باذخاً في جماله الحديديّ، مفتوحاً الآن على سعته، يتدفّق إليه الناس وهم ينادون، ويلغطون في بهجة، الأولاد والبنات يتواثبون ويجرون في ثيابهم الجديدة الزاهية ويتسابقون وراء كرات الشراب والجلد والمطّاط ـ ليس فيها «أديداس» ـ والأمّهات يهتفن: ياولد ماتبعدش بعيد، يابتّ يامقصوفة الرقبة امسكي إيد أخوكِ يابتّ.

على بعد خطوات، إلى يميني وأنا أواجه الفتحة المطلّة على براح الخضرة الفسيح، ومأوى الشجرة أوشك أن يزدحم بنا الآن، جاءتني هفّات من نسمات مبلولة، مائية، من المسقى الصغير الذي تترقرق مويجاته الرصاصية، طينية القوام، متسايلة ولها خرير خافت.

الولد السفروت الذي يلبس فانلّة على صدره الأسمر المخسوف العرقان، وبنطلون بيجاما مخطّطة ـ جاكتتها هي المعلّقة عندنا ـ مشمّر عن قدمين حافيتين صلبتين، اندفع كالصاروخ في وسط زحمتنا البهيجة المشغولة بنفسها، كأنّه يقذف بنفسه في غمار مغامرة وخيمة، دون كلمة، باستماته. كأنما لم يلحظه أحد غيري. اخترق ببراعة خاطفة غابة الأشياء والناس، وبمعجزة لم يصطدم بأحد ولم يقلب شيئاً، وانتزع جاكتة البيجاما من على الفرع، وكتّ.

كانت شلّته الصغيرة من العيال العفاريت تقف على الشطّ الآخر من المسقى، ترقب الحكاية. وعندما انطلق منحنياً برأسه وخارجاً من فجوة جانبية في جدار كهفنا الأمين، هتفوا بنفس واحد: هييه!

وعندما وصل، قفز عبر المسقى بخطوة واحدة، فأخذوا يتراقصون ويدورون حول بعضهم بعضاً، ثم يتقلّبون على الخضرة رأساً على عقب في شقلباظ منتظم متتابعِ الجسوم كأنّما يحرّكه زنبرك جماعيّ واحد.

أخشاب بطن الشجرة الحيّة ملساء، ومجوّفة، نعّمتها سنوات من النضج البطيء، تسري في لحمها المصقول اللامع شرايين متشرّجة من شعيرات الحسّ.

شعائر التقديس،

الشِعر الرومانتيكيّ،

أشاير الأزهار المروج التي لم أعرف منها إلا إيقاع موسيقاها،

الأقحوان والخشخاش والنرجس وعبّاد الشمس والبانسيه والآس والخزامىٰ والزعفران وسوسن المستنقعات والخلنج والدفلىٰ والرنّد والبسلّة.

الاستايس الكثيف الخشن الملمس ضارب إلى البنفسج.

الفرليانة دقيقة الفروع متضامّة في رهافة مائلة إلى الإصفرار.

الختمية المخملية شبه الشفّافة نسائية النسيج منبسطة الأوراق مدوّرة

الكنديولا مشمسة مضيئة بتوهّج تويجاتها

العَلق العذري الأبيض المُشْرَب بورديّ خجول

الأنترهينا بكؤوسها المضمومة على نكتار مرير الشهالة، عذب الملمس.

لماذا كلها تضرب الآن إلى هذا البنفسج الكابي الذي يبهج ـ مع ذلك ـ وهو ـ كما يقال ـ ورد حزين؟

الباتونيا المتفتّحة الرقيقة قاومت فعل السنين وظلّت هفهافة

الديمولفاتيكا ذات الوريقات الداخلية المنشعبة الكثيرة

والسلبيـة المتكاثفـة الحمراء النـاضجة تنضـح بدم الشهـوة وحنـين العاشق

والمنتور المنبثق في نقاط دقيقة بيضاء، معلّقة بين النـزوع اللامنتهي والتحقّق العابر الرقيق.

أزهـار الأشواق التي جمعتهـا بعد ذلـك بسنوات. لم أجمعهـا كلّهـا قطّ.

حديقة المدرسة العباسية الثانوية في اسكندرية، بعد الغداء أنام في وسط زهورها وورودها الفّواحة ثقيلة العَبَق، حرّيفة الرائحة.

في قلب المـروج والمراعي الشعـرية، عـلى تلال هيّنـة التحدّر غـير وعرة، تحت أشجار الكريز المزهر غـير ذي الثمر، والبلوط والصنـوبر والقسطل،تُونع في ظلّها البليل الدائم أنواع الفُطْر الشهيـة والمسمومـة معاً، بلا تفريق.

وفيهـا شجيرات التـوت البريّ والفـراولـة الـوحشيـة والحبق ودقن الباشا معاً، تتجاوب بينها من بعيد أصـداء نداءات البـوق وصيحات الفلاّحين: جـا. . .ااا ي ياواه. . جـا. : ااي ونباح الكـلاب وعواء ثاقب من بنـات آوى ورأس الجسر الحجريّ الأبيض الداخـل في ثبج النيل وصخور الطباشير الشاهقة يُزبد تحتها الموج، والسفن قد عادت بالغنائم والأعلام جالـدت الأنواء وحـاربت الكابتن بلود والقـرصانـة ذات الشعر الأحمر وأثخنتها جراح المـدافع لكنهـا أفلتت من غوايـات الكـاريبي وجزر الهنـد الغربيّـة المسحورة، أتلك ذكـريات أم أحـلام قرأتها أم الأشعـار الرومـانتيكية التي مـازالت تساورني حتىٰ الآن منـذ عـرفتها في غـرفتي ذات النافـذة العلوية الـزجاجيـة الـزرقـاء التي لا تغمض عينها قطّ ولا تعتم أبداً. أهذه دموع الكهولة في عينيّ أم ملح المراهقة المتنزّية؟ لا تريم.

زهـور الصبا المحنّطة وورده القديمة لم تذْوِ قطّ بـل جفّ ريقهـا الغضّ عبر السنين الطّوال الطّوال وإن بقيت جلدتها متماسكـة النسيج بعـد. هل انقضىٰ حقـاً عبيرهـا أم لعله مايـزال يضمّخ الـروح بنقاوة لاتمسّها شائبة؟

صفط الملوك ٥ يوليو ١٩٤١

عزيزي

وصلني كتـابك. . وأعتـذر لك أولاً عن تـأخرّي كـل هـذه المـدّة الطويلة في الردّ عليـك. . إذ خشيت إنْ أنا كتبت لـك الردّ في الأيـام القليلة التي تلت وصـول خطابـك. . أن أنقـاد لشعـوري وعـواطفي وحالتي النفسية فأكتب لك أشياء سخيفة لا معنىً لها إلا في نظري أنـا فقط. ثم أظنّ أنني لست بحاجة إلى أن أصف لك مشاعري ونفسيتي أثناء قراءة خطابك. فقط أخبرك أنّ هذا الخطاب جاء في حينـه. وفي الوقت الذي كنت في أشد الحاجة إليه فيه. . إنني كنت في حاجـة إلى مثل خطابك هذا من زمن بعيد.

إنّ «حياة البشر» هذه تخيفني كثيراً وتثيرني ـ لذلك فـإنني «أتعامىٰ» عنهـا وأتجاهلهـا ـ ثورات عنيفـة قاسيـة. . إنّ الناس جميعـاً في نظري لاشيء. . وكل ما يفعلونه ويعيشون لأجله رياء وسخف. . و«سحب الضجة والطنين والسخف» هذه تقتلني إذا أنا لم أهرب منهـا في زيفي وخيالي. . وبين أطياف الأحلام الكاذبة.

إنني أحاول دائماً أن أقنع نفسي بشيء لا أعرفه. . وأحاول دائماً أن أغالطها. . ولكنّها نفس لعينة ياصديقي. . سوف تسـوقني إلى الجنون ذات يوم. إنني أخاف هذه النفس دائماً. . أخشـاها وأمقتهـا. . فهي مصدر عذاب مستمرّ لي. . ومبعث شقاء دائم.

لماذا لا أنقاد للحياة كما ينقاد الحمار لصاحبه. وكما يفعل هؤلاء. .

لماذا ألوم الحياة دائماً وأثور على نفسي. وأتراوح بين شكّ.. ويقين..

لماذا أجلب على نفسي الشقاء والألم!

ولكن. هل أنا أكره الشقاء والألم حقاً؟ إنني أذكر طفولتي.. لقد كنت طفلاً كثير البكاء كثير الشرود.. كنت ألحظ في نفسي أشياء لم أكن أفهمها حينذاك.. كنت أسعد بالألم وأُسَرُّ بما يسبّب لي البكاء.. كنت أنتظر كلمة تسوؤني أو حركة تُغضبني لأبكي.. ولكن لا للإساءة ذاتها.. ولا للغضب ذاته.. بل لأن نفسي كانت تتلهّف إلى مثل هذه الأشياء لتتخلق منها ما يجعلني أنزوي في ركن بعيد أسعد فيه بالبكاء طويلاً.. أحسّ فيه بشعور غريب يأتي عن وحدتي.. وألمي.

لقد كنت إلى وقت قريب ـ قبل أن أتعلّم كيف أُخفي عمّن يحيطون بي دخيلة نفسي ـ كنت موضع إشفاق البعض.. و.. ازدراء البعض الآخر... فقد لحظوا فيّ هذه العادة الغريبة أو الطبيعة الشاذّة التي تدفعني إلى حبّ الألم والشقاء.

لم أكن أفهم حينذاك لماذا كنت أشعر بهدوء عميق ولذّة غريبة عندما يؤلمني شيء أو يشقيني فأنفرد في مكانٍ ما وأبكي.. بل لم أكن أفهم لماذا أنفر من أيّ إنسان يحاول إيقافي عن البكاء!

ولكن هل أفهم الآن؟ إن هذه الطبيعة مازالت في أعماق نفسي.. ولكن على نطاق أوسع.. والأشياء التي تؤلم نفسي.. وتُشقيني كثيرة.

لقد قرأت يوماً من قصيدة «الموعد» لسولي برودوم شطراً استرعى نظري طويلاً.. واهتزّت له أوتار نفسي في عنف.. وعدت بذاكرتي إلى الوراء قليلاً. وعيناي الشاردتان تحدّقان في الكلمات المتراقصة.. «ولننهلْ، فيما ترويه دموعنا الساكنة، من ذلك الحنان الذي يجعل من الشقاء إلهاً»..

ماأروع هذه الكلمة ياصديقي..

نعم.. ذلك الحنان الداخليّ.. الذي تولِّده الدموع في النفس.. نعم.. هو الحنان الذي كان يبعث في نفسي تلك «اللذّة الغريبة.. والهوىٰ العميق» عندما كنت أبكي.. هو ذلك الحنان الذي جعل الشقاء إلها..

نعم ياصديقي المحبوب ـ ما ألذّ البعد عن الناس.. والإنفراد عنهم. في حلم من الدموع. يبعث في النفس الجائعة حناناً غريباً.. إلا من همسات الملائكة.. ماألذّ ذلك الشقاء الذي أشعر به يخيّم على نفسي.. فتنكمش بين أحضانه.. تستشعر لذّته الطاغية.. نشوته الحالمة.. ويفيض عليها سكينة وسلاماً.

تقول ياصديقي إنّك تحبّ الصمت لكي تفرّ من نفسك إلى نفسك.. ولكن بعيداً.. بعيداً عن البشر وحياة البشر.. نعم إنّ من يحيطون بي.. بأجسادهم.. ورغباتهم.. ومعيشتهم.. و.. وكل شيء يحيط بهم.. يخيفونني... إنّ تفكيري في هذه الأشياء، أو أحدها، يكفي لدفعي إلى أعنف ثوراتك الهادمة التي تعمل في سكون.. ولكني لست أحمق! هل تعلم ماذا أفعل إبّان ثورتي.. إنني أقتل أحاسيسي النبيلة، ومشاعري السامية.. إنني أدنّس نفسي.. أو لستُ أدري بماذا أعبّر. فأتناسى ما أثارني في عاصفة من المجون والسخرية.. والإنسياق لكل شيء غير مقدّس فيّ.. فأنا أحتقر هذه الحياة التي تُثيرني ـ ولستُ أدري ماذا يدفع أولئك الحمقىٰ الذين يريدون كشف القناع عنها إلى ذلك.. فلا يعودون منه إلا بالشكّ أو الإنكار.. إن هذه الحياة لاتستحقّ من الإنسان كل هذه التضحية الهائلة.. التضحية بالإيمان.. الملجأ الوحيد. والأمن.. نعم. فالإنسان في حاجة إلى شيء يؤمن به ليستطيع أن يعيش.

وهؤلاء الذين يَدّعون أنفسهم مُلْحِدين.. إما كذباً أو حقاً.. هم أشقىٰ أهل الأرض طُرّاً.. وأحمق أهل الأرض كذلك. إذ ضَحّوْا بالإيمان، وجلبوا على أنفسهم الشكّ المُهلِك. والإنكار. الذي تقبله نفوسهم في عذاب مستمر في سبيل شيء تافه.. حقير هو الحياة... ولكني شخصياً لا أستطيع.. ولا أعتقد أنّه يمكن لإنسان كامل.. أن يمنع نفسه من التفكير. ومن العذاب. إلا أنني أحاول أن أهرب من كل هذا في بحرٍ من الجنون والعبث والمرح.

ولكني أملّ هذا العبث.. وهذا الجنون أحياناً.. ولا أستطيع الإستمرار في هذا المرح الزائف.. فأشعر بالحاجة إلى الهرب من نفسي.. ولكن ليس إليها كما تقول.. بل إلى نفس أخرىٰ أفزع إليها.. واجد في حنانها ورحمتها وحبّها ماينسيني أو.. يُعزّيني.

ومن هنا بدأت أتخبّط في ميدان الحياة.

.. لقد حاولت كثيراً.. وفشلت دائماً.. فوجدت الصداقة خيالاً سخيفاً زائفاً.

وجدت أن الحبّ الذي أنْشُده لاوجود له إلا في أخْيِلة المجانين!.

لكم خُيِّل إليّ أنني عثرت على هذا الحب النبيل الذي أبحث عنه.. فلكم أسعدني ذلك الخيال أياماً.. ولكني دائماً.. وبعد هذه الأيام القلائل كنت أتعثّر واسقط من برج أحلامي».

بالأمس القريب بلغت زهادة الحياة بشابٌ مصريّ مثقّف وشاعر أديب أن يقضي على نفسه ويُفني زهرة عمرة ويروح ضحية أفكار سوداء انطبعت على هذه الحياة فبغّضتها في عينيه وآراء عجيبة حبّبت إليه طلب السعادة و«اليقظة في الموت» فجرىٰ وراء ذلك الخيال يعدو إلى أن قضىٰ صريعاً مجندلاً. جنحت نفسه إلى دراسة الفلسفة فمهّد له

البحث العميق في كُنْهِ الحياة وقدرها أن يتغلغل في ذلك السواد ثم يطلب الخلوص إلى نور. فكان ذلك النور انطفاء جذوة الحياة.

هذا هو المرحوم أحمد أفندي العاصي الذي وُجِد منذ أيام منتحراً في مسكنه بشارع سعفان رقم (١٢) بالعباسية».

ماذا دعاني أن أحتفظ بقصاصاتٍ من مجلة «الدنيا» العدد ١٠٣؟ أيّ عام كان ذلك؟ أظنني قرأتها سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ وكانت منشورة قبل ذلك بعدّة سنوات. ورقها القديم قد اصفرّ جداً وغدا هشّاً جداً. (مازالت له سطوة، أيضاً، بطبيعة الحال).

«وكان الفتى مثالاً للشباب الناهض المتوثّب، دائب الجدّ حريصاً على وقته، نال شهادة الدراسة الثانوية قسم ثانٍ وهو في السادسة عشرة من عمره فالتحق بمدرسة الطبّ يتلقّى العلم فيها ثلاث سنوات متتابعة أقعده المرض بعدها عن الدرس وأرغمه الأطباء على أن ينفض يده منها ففعل.

أتدري لماذا مرض؟

رأى فيما يرى طالب الطبّ دروس التشريح العملية فأفزعته الرؤية وأهاجته مناظر أشلاء الإنسان وأحشاؤه يخرجونها من بطنه المبقور بعد موته، ويهشّمونها بـ«المنشار» وبـ«الساطور» بعد مفارقة الحياة ثم يقذفون بها هنا وهناك رِمَماً ممزّقة وأوصالاً مقطّعة، فراعه ما رأى وتضاءلت في عينه حياة المرء وثروة الدنيا المزخرفة وعيشها المنمّق، أمام داعي الموت ودمار التشريح. وتملّكته من ذلك حالة عصبيّة زهّدته في الحياة وأوقعته في المرض. فكان إخراجه من مدرسة الطبّ ومن بين أشلاء التشريح خير علاج.

وعكف على الفلسفة وهي أبحاث متعمّقة ذات ضروب وألوان،

آثر منها اللون الذي أحبّه من قبل فكان من شيعة التفكير الأسود وأنصار اليقظة بالمات والسعادة في عالم آت.

انصرف عن الطب ولكنّه أقبل على الأدب فدخل الجامعة المصرية فاجتاز سني الدراسة بها وخرج منها في طليعة إخوانه يحمل إجازة في الفلسفة والأدب.

واحتفظت الجامعة به بعد أن تخرّج فيها فألحقته في وظيفة في مكتبتها فكان مثال الموظف الكفؤ في نشاطه ومقدرته».

«أمسكت اليد بالقلم ثابتة راسخة وأمسكت باليد الأخرى ورقة أدنتها من عينين فيهما زيغ وعليهما بريق رهيب. فإذا بالكاتب يقرأ باللغة الإنجليزية هذه الجملة:

«It is the coward who fears death»

«الجبان هو الذي يخشى الموت».

وضع أحمد أفندي العاصي قلمه جانباً وقام ينفّذ ماانتواه ممّا صوّرته له أفكار سوداء ساورته ولازمته منذ عهد بعيد. وكانت هذه الكلمة هي آخر ما سطّرته يراعته التي طالما تدفّقت بالشّعر البليغ والنثر الممتع تجنح في غالب ما تسطّره إلى الإشادة بالموت والرغبة في الخلاص من الحياة.

بينا ترى المرء في الدنيا وغفلتها
إذ صار بالموت وهو الموقظ الصاحي
ماخوفنا من ممات كل منقذنا
ومرسل المرء من ليل لإصباح

وكان انتحاره انتحاراً عجيباً وجريئاً حقّاً إذ أغلق على نفسه

الأبواب والنوافذ وخلع ملابسه الخارجية وعلّقها في المشجب بنظام وترتيب ثم ذهب إلى غرفة المطبخ حيث ملأ «كوز» من الغاز من صفيحة مترعة بهذا السائل الملتهب وصبّه على ثيابه ثم أشعل النار.

انتشرت اللّهُب حوله تحرق جسده الغضّ وتشوي لحمه الشابّ وهو صامد في مكانه متجلّد لايتأوّه ولا يستغيث ثم هوىٰ إلى الأرض يتمرّغ عليها حتى احترق الجسم كلّه وغدت عظامه هشيماً، وخمدت النار دون أن تشتعل في غير ذلك الجثمان».

(أليس من الغريب ـ أم هو غريب؟ ـ أن يلقىٰ عالِمٌ فذٌ مثل جمال حمدان مايشبه ذلك المصير بعد مايزيد عن سبعين عاماً).

. . .

«فسلام على فريسة الأحلام وصريع الأعصاب الحائرة والأفكار الشنعاء ولعنة «على الفلسفة السوداء»...

انتهىٰ ماتيسّر من قصاصات العدد ١٠٣ من مجلة «الدنيا»...

ظلت صورة أحمد أفندي العاصي المنشورة في هذا العدد ـ بالروتوغرافور الأزرق الفاتح ـ تساورني طَوال هذه الستين عاماً: وجهه المدوّر المليء الذي يبدو راضياً عن نفسه وعن كل شيء ـ يا للغرابة!. أم أن الأمر ليس فيه غرابة؟ وكلّنا أقنعة؟ ـ وشعره الأجعد المعنيّ به مفروقاً من اليمين، مرفوعاً قليلاً بقوة خشونته، إلى اليسار، والشارب المنمنم الطرير على شفتين ناضجتين، أنثويتين تقريباً في امتلائهما، ونظرة ذكاء متوقّد لاشكّ فيها، مع الجاكتة الصوف الإنجليزي ـ واضح ـ المخطّطة الغالية، والصديري المزرّر، والكرافتة أنيقة صغيرة العقدة، ياقة القميص طويلة ومدبّبة على موضة الثلاثينات، وهواجس الموت نفسها، هي نفسها:

ساعة يُؤنسني فيها المَلَكْ
هامساً هيِّناً لمن قد أرسلَكْ
قائلاً لا تخشَ سوءاً يا فتىً
ها هو المركب قد أُعِدُّ لَكْ

مركب خِيرون العتيد، هل أعددت له قطعة العملة البرونز على فمك المختوم؟

سِرْ حثيثاً لا تُمانعْ إنما
في غدٍ تُثْني على مَنْ أوْصَلَكْ

منير، بعد ذلك بسنوات قلائل، في المندورة:

«أيّتها الروح إذا آن وقت الرّحيل
وأشرفت على شواطىء النوم الأبديّ
فلا تودّعيني . .
لِمَ تتركينني أصارع الموج في محيط لا شواطىء له؟
لِمَ تتركينني أضرب في الأرض . .
في ليلٍ لا فجر له . . ؟
. . .
ولكن لا ـ لا ـ هاهي خاتمة الرواية تقترب
ما أروعها وما ألذّها. كم أنت جميل أيها الموت
وَيْلي
إني لا أستطيع الحياة. ولكني لا أستطيع الموت
أيتها الأفكار السوداء التي تتدافع في رأسي

اهدئي. اهدئي قليلاً
واتركي مجالاً لأحلامي . . .»

وسوف تأتي الخاتمة في ٢٥ مايو ١٩٤٥.

لم يُتَح له مجالُ الأحلام إلا خلال سنوات ثلاث قصار، ولكنّها خصيبة مليئة بالنعمة، وبالشقاء أيضاً. الغريق في بحر السنوات ـ توأم غريقة زيوريخ، بوجهه الأسمر الناحل الطويل، وعينيه العميقتين بنظرة دفنية كأنها مشدودة أبداً إلى الداخل، جسمه الرقيق، روحه المرهفة الحادّة الحسّ بكل نأمة في مويجات الحبّ وإرهاصات الليل القادم، يقرأ شعره لي، والدموع في عينيه، لا تغيض ولا تنحسر ـ لم يَمُتْ قطّ ولم يغرق.

رقرقة أحلامهم جميعاً ـ الموتى ـ أسمع وشيشها، تهجس بي.

«أخي المحبوب . .

إنني لم أفشل تماماً. فقد عثرت على الحبّ. . وعلى الصداقة.

نعم. . عثرت على الحبّ. ووجدت تلك التي تتوافق مشاعرها مع مشاعري وأخلاقها مع أخلاقي ونفسها مع نفسي! ولكم سعدت بهذا الحبّ. ولكم أسعدتني نفسها النبيلة. . ولكنْ. . لكنْ! . . إنني مجنون وأحمق. . إن هذه التي عاهدتني. . وأسمعتني رأياً ـ هو رأيي في الحياة. . هذه التي كانت ترى أن الزواج جنون. . وحمق. . وقذارة. وأن الحياة يجب أن تكون حباً خالصاً عذرياً. . لا تشوبه الطبيعة أو الغرائز. . تلك التي بحثت عنها طويلاً. وعثرت عليها في كلماتها. . عثرت على جواب منها إلى إحدى قريباتي. . . ترقص فيه طرباً لقرب زواجها. . تخبرها (أن العريس أو الخطيب قدّم شبكة عظيمة وله عدد

كبير من البيوت المِلْك وله دخل كبير ويُدير مدرسةً كبيرة. . . و. . . و. . .).

إنّي أتعس مخلوق على سطح الأرض. . فقلبي الحسّاس المرهف. الذي بذل كثيراً من دمه حتى عثر عليها. . لا يستطيع أن يُصدّق. . أن هذا الملاك الصغير. . بأعوامه السبعة عشر. . بنظراته الملائكية. . ونفسه النبيلة. . وفلسفته السامية في الحياة ينزل إلى مثل هذا الدرك.

إنني أحترق جنوناً ياصديقي. . إنني أكاد أجّن حقّاً. . فلست أصدّق. لست أصدّق. . لست أصدّق.

إنني مجنون بدون شكّ. . فهي. . ياإلهي. . إنني لا أستطيع أن أتصوّر ملاكي الوديع الصغير. . في فراش رجل في الثلاثين. . يدنّس جسدها. . ويلوّثه. إنني لاأستطيع أن أتصوّر أن تلكما الشفتين اللتين لم أستطع أن أقبّلها مرّة واحدة ـ تقديساً ـ في حبي الخياليّ الطاهر. . تلكما الشفتين اللتين أسمعتاني مشاعرى وأحاسيسي وآرائي. . تتماوج في الصوت الحبيب. . تلكماالشفتين تلوّثهما قبلات الشهوة. . والعلاقات القذرة.

إنني لا أستطيع أن أتصوّر ذلك الحلم الذي رفعتُه إلى سماوات الطهر. . والتنصُّل من البشريّة، يسقط إلى درجة الحيوانات البشرية. . التي تأكل وتجهد وتعمل لتتوالد وتتكاثر وتحصل على اللذة البهيمية.

ولكن لِمَ لا؟. . إن الخطيب قدّم شَبْكة عظيمة. . وهو ذو موارد واسعة. . لِمَ لا؟. . إن هذا الجسد الغضّ الشابّ في حاجة إلى رجل في الثلاثين. . يُشبِع شهواته. ويُغرِقه في اللذات. . لا إلى شابّ صغير مجنون. كان يرى القبلة تدنيساً وخطيئة في الحبّ!

لِمَ لا؟.. إن خيالي اللعين.. وجنوني الهائل.. في حاجةٍ إلى مثل هذا ليطيرا بعيداً عنّي ويتركاني كسائر البشر.. وسائر الناس.

ماذا أنا بالنسبة إلى ذلك الرجل العظيم.. ذي الشَّبْكة العظيمة؟! ماذا أنا بجانب الذي ستقف بجانبه ليلة العرس الفخمة الصاخبة ذات «العوالم» و«الراقصة»، تتلقّى التهاني من الزغاريد بعد أن يُتِمَّ القسّيس «رباطه المقدّس»!!!

ماذا أنا.. الذي وعدتها بحفلة هادئة..... على يد قسّ أو راهب في دير ساكن.. نحتفل فيه بـ«زواجنا» ببعض أنغام «بيتهوفن» و«شوبان».. ثم نطير بعيداً إلى سويسرا.. فنقضي ليالينا على شواطىء بحيراتها الحالمة.. نطهّر أنفسنا.. نخلّدها في زواجنا العذريّ!

ماذا أكون أنا.. وماذا يكون فندقي الساكن بأنواره الهادئة.. بجانب ذلك الرجل العظيم.. وبجانب حفلته العظيمة الحافلة بالرقص والزغاريد والأنوار الساطعة والخمر.

ثم ماذا تكون ليلة عرسي.. على شواطىء بحيرة ساكنة.. أضمّها فيها إلى صدري.. تتعانق روحي مع روحها في طهر.. وسمّو.. بجانب ليلة عرس.. تنتهي.. بحجرة مزدانة بالأثاث الفخم.. وأنوار تحيط بالفراش... حيث تستلقي.. وتبتسم في سرور.. لزوجها الذي ينحني عليها.. ويلثم شفتيها.. ويداه تبعثان النشوة في جسدها الشاب جارفة.. طاغية.

ماذا يكون جنوني وأحلامي الطائشة. بجانب الحقيقة والعظمة واللذّة والسرور؛!..

لا..

ليس الذنب ذنبها. وإنما ذنبي أنا الذي أمعنت في خيالي الطائش. خُيِّل إليّ أن البشر يمكن أن يكونوا ملائكة. . . .

. . . فهي لم تزد عن كونها امرأة. . خُلِقَتْ. . لتَحْمِل. . وتَلِد. . وتأكل. . وتعمل. . لتَحْمِل. . وتَلِد. .

فهذه هي الحياة. . وهذه هي الطبيعة. . فأين أنا. . وأين أحلامي. . وجنوني؟.

إنني مجنون وأبله. . وأحمق. . ومخبول. . لماذا أحاول أن أسمو. . أطير لأقع دائماً مُهَشَّم الجناحين. . مُلوَّثاً بالدم والآلام؟

لماذا؟ نعم أنا مجنون. ولسوف أُلقي بهذا الجنون إلى أقرب صندوق قمامة. . وأغدو كغيري من الناس.

سوف أحبّ. . لأشبع غرائزي التي حاربتها طويلاً. سوف أخوض في بحار الشهوة واللذائذ والطبيعة حتى أغرق تماماً. وأتطهّر من جنوني وإلحادي بالحياة والحقائق.

سوف أغدو حيواناً. . كسائر الناس. فالحب الذي يطهّرني. وبحثت عنه ليحفظ عليَّ طُهري. قد ذاب وتلاشىٰ وطار في الهواء. فلأبعث هذا الطهر في أثره. . ولأغْدُ إنساناً حقيقياً. . له شهوات ولذائذ. . وطبيعة متسيطرة. . ليتني ألقاكِ ثانيةً يافتاتي. . فأهنئك بحرارة. . وأوصيك أن تستمتعي بزوجك إلى أقصىٰ حدود الإستمتاع. فالحياة قصيرة. والفرصة ضيقة. . والشهوات كثيرة.

. . ليتني ألقاك. فأعتذر لك عن جنوني الماضي. . وأخبرك أنه هراء. وخَبَل».

هاقد فرغت جعبتي من التعقيبات.

من أنا؟ وماذا أكـون الآن، لكي أحكم أو أدين أو أسخر أو حتىٰ أشفِق وأتحسّر وأتعاطف؟

أذلك كله انقضىٰ حقاً؟ أم أنني ـ كما لا أني أكرّر ـ قد أبقيتُه حيّـاً، نَضِـراً مهما شاب جلدَه من تجاعيد، بوسائل الحياة الاصطناعية؟

أم أنها تلك المحبات والصبوات والسذاجات والأشواق الطائـرة في سماء ملبّدة قد بقيت حية بقوة داخلية، بإرادةٍ مستقلة؟

وفي آخر هذا الشفق المشتعل الوجيز ـ أيّاً كانت قيمته ـ هـل فصم وفيق فصماً حاسماً بين «اللذة البهيمية» وبين «الحبّ الطُّهور»؟ وعـاش حياته كلّها مقصوماً اثنين ـ أو أكثر؟

أم أنـه دفن ـ بحركـة انتحاره ـ شقّـه «الملائكي» في حمأة الجسـد المتعطّش للمتعة «الطبيعية» ـ كما أسماها ـ مهما قارفها باشمئزاز، ولكن بتلمُّظ؟

هل هذا حدث؟

من يعرف؟

ومن أنا لكي أقول؟

ألم تمض حياتي أنا بعد ذلك في تراوح متّصل بين قطبين أجهد أن أصلهـما معاً في قـوس واحد متـأجّج متـوهّج الضـوء ولكنّ متذبـذب الشعلة؛ ومحرِق؟

أن أجد مطلق الطُّهْـر في ردغة بئر الشهوة.

أن أتمرّغ ـ بشفتيّ ووجهي بلد اني رساقي، وكلّي ـ على طين اللحم الـرخو الأنثوى النابض المبتـلّ، بينـما أحلّق في سحـاب محمحم فيـه خيول الملائكة، وترمح في موسيقىٰ إيقاع نورانيّ.

أين الشقّ وأين الإلتحام؟

في الحماة الوثيرة أم في معاريج الروح إلى السّماوات العُلىٰ؟

أم فيهما معاً ـ قال ـ يعني؟

في النهدين السمراوين اللذين رأيتهما وخبرتهما ـ كم عرفتهما، كم أعرفهما ـ ليلة ١٨ إلى ١٩ برمهات ١٧٠٩، تحت نافذة «ماجْريت» المعلّقة في سماء أكسفورد، في الحلم الذي يفوق في تجسّده كل واقعة وكل حادثة،لكي يمسّ، بل لكي يخترق، مشارف ذلك الذي لا يوصف ولا يقال، النهدين المنبثقين عن صدر منبسط ناعم وغضّ ـ بلاط حمّام دفيء متماسك ولَدِنٍ معاً ـ وبين الكرتين الممتلئين عمود اللوتس القديم متوّجاً ومتوهّجاً. ومن الشق البض أنين المتعة بالصوت الحميم القديم ومن صخر العمود الصحراويّ زحيرُ الإلتحام واندفاعُه الإندماج والغياب.

«عزيزي..

أعتذر لك عن هذه الثورة التي لا مبّرر لها بالنسبة إليك.. على الأقلّ.. وفي الحقيقة لم أؤخّر خطابي حتى الآن إلا خوفاً من أن يجري قلمي بما جرىٰ به الآن. ويُخَيَّل إليّ أنه لا فرار لي من هذه السخافات فهي تسيطر عليّ سيطرة تامّة منذ زمن. وتكاد تدفعني إلى الجنون.. فإنك لو عرفت هذه الفتاة مثلي.. وعلى فكرة هي ابنة خالي.. لو عرفت أخلاقها ونفسها لما كنت إلا في مثل حالتي الراهنة.. فأعتذر لك ثانية عن هذه الثورة.. وأجد بعض العذر في إمضائك الجواب السابق باسمك مشفوعاً باسمي معاً كأنها زلة قلم موحية ومحمّلة بالمعنىٰ.

هل تذكر؟

عزيزي..

قلت لك إني وجدت الحبَّ الذي قد أقصّ عليك قصته كاملة يوماً ما. . فأنا واثق أنها تشوقك كثيراً لأنها ليست سخافة عادية ممّا يدعوه الناس حبّاً. . وجدت هذا الحبَّ بعد أن عرفت فتيات كثيرات جداً. وخُيِّل إليّ أني وجدت فيها ضالّتي المنشودة ولكني سقطت من برج أحلامي دائماً. وهآنذا أسقط مرة أخرىٰ. ولكن هذه المرة. . كانت سقطتي أمرّ وأقسىٰ لأني أحبّ هذه الفتاة حبّاً جنونياً يفوق كل ما يمكن تصويره.

نعم مازلت أحبها برغم احتقاري لها. أحبّها في جنون. . جنون جارف لا يعرف حداً. . ولا عقلاً. . سوف أقص عليك كل شيء. مرة أخرىٰ. فإني أشعر أنك الإنسان الوحيد الذي أستطيع أن ألجأ إليه.

وقلت إني وجدت الصداقة. . نعم. . وجدتها في شخصك المحبوب. وفي نفسك النبيلة السامية. وأؤكد لك أنك الإنسان الوحيد الذي أطمئن إليه اطمئناناً أعمىٰ لا يعرف الحذر أو الخوف.

وفي هذه الصداقة النبيلة أجد بعض العزاء. . وبعض السلوى».

فهل كنتُ ليلتها ـ أوفى اختناقة صباحها الذي لم أشهق فيه ولم أغرق ـ عرفت أن كريمان خالص ملكة جمال مصر أصبحت ملكة جمال العالم في ١٩٣٢. وأما آن كلوزل فقد خلفتها على العرش في السنة التالية، وأن الآنسة شارلوت واصف هي ملكة الجمال لسنة ١٩٣٥، وكان الورق صقيلاً بالروتوغرافور الوردي الضارب إلى بنفسجي خفيف، والآن فقط بعد أكثر من نصف قرن أرىٰ كيف كانت جانيت حنّا قريبة الشبه جدّاً بشارلوت واصف. أما صورة أمينة البارودي ـ بالروتوغرافور البنيّ الغامق، وتحتها بالحرف المفرغ لونه بيج على أرضية بُنيّة شديدة العمق تكاد تكون سوداء ـ أنها تزوّجت

الوجيه مصطفى رياض ثم الوجيه مختار العابد ثم الأستاذ أحمد سالم وكان سبب طلاقها الأول اختلافها مع أسرة زوجها، والثاني لعدم تحقيق آمالها في الزواج، ولم تقل لنا مجلة «الإثنين والدنيا» في عددها ٣٨٢ لماذا كان طلاقها الثالث لأنه لم يكن قد حدث بعد. أما الست أم روايح فقالت - قبل ذلك بعدة أعداد - إن كلارك جيبل يعجبها لأن شعره أسود منكوش زيّ شعري. ولكن روبرت تايلور لا يعجبها لأنّه عيل صغيّر وفاشخ بُقّهْ بدون مناسبة عاملْ زيّ ولاد الذوات المنفوخين في الأتومبيلات، الجمعة اللي فاتت بس واحد منهم قابلني في باب الخلق فتح باب الطُربيل وقال لي «تتفسحي ياهانم» طلعت فيه طلعة قليلة القيمة أخد بعضه وجرى. فماذا تقولين الآن - لو أتيح لك أن تقولي - ياست أم روايح في خَلَف أولاد «الذوات» الأربعينيين، الآن في التسعينات أولاد االانفتاح الشرس والمنهوم - وآبائهم الناهبين الملايين في أمان الهاربين بعد أن سمّموا الناس بالفساد العضويّ والروحيّ معاً مجعوصين مازالوا في طُرْبِيلاتهم «الشَبَح» ذات الهوائيّ البذيء وعلى آذانهم التليفونات ذات الخلايا الكهربية يقودون، ويعاكسون في التليفون الغالي نسوانهم أو شراميطهم الغاليات الثمن أيضاً، باليد الأخرى. أما پولا العلايلي فقد تزوّجت الوجيه فؤاد سلطان وتطلّقا ولم يمكث الزواج أكثر من أسبوعين والسبب الأول أن الزوجين كانا طفلين ولولا النظرة الخارقة الثاقبة والثقة في عيني الإرستقراطيةِ العريقة لذكّرتني استدارة الوجه البيضاوية تقريباً والسمرة وتسريحة الشعر، بأصداء من الفتاة القبطية متوسطة الطبقة التي عرفتُها بضع ساعات في سيدي بشر والتي كنت أعرف قبل ذلك أنها فرحت بزوجٍ يقدّم لها شَبْكة محترمة، ولكنّها رفضت، أولاً، لم تستطع أن تتخلّ - بعد - عن أحلام حب سماويّ، مقدّس»، ثم بعد ذلك سارت الأمور مسارها الطبيعيّ وقالت نعيمة

حسين: سيبك ولاد العرب مفيش أحسن منهم ربنا يحميهم لشبابهم جدعان عليهم القيمة مش زيّ المفاعيص الخواجات. ولكن زوزو عبد الحيّ قالت أن روبرت تايلور دمه زي الشربات وقالت عن كلارك جيبل: لا ياخويا.. ده شبه جوز أختي ومورّيها الغلب أخد صيغتها وباعها وبيّعها تلات قراريط ورثتهم، ونازل فيها ضرب وإمارة زي ماتكون جارية واتجوزت سيدها لتجليات وتقلبات أقنعة المرأة الواحدة عبر الطبقات والثقافات هذا الجسد الأرضيّ الخصيب الذي عرف ستة رجال في ستّ حِقَب على مدى الدهور وعشق طوال ستة أيام لم يأنس قطّ إلى راحة اليوم الأخير وقد تموّجت على حفافيه اللدنة شهواتُ الرجال ودانت أعناقهم وتعثّرت خطاهم في طينها القويّ الرخيّ إيزيس وطن الأبد حاملة قمقم السماوات والأرضين عشتروت رامة أفروديت بجعتي السوداء وردتي النازفة دماً.

«عزيزي..

إني أودّ لو كتبت لك عشر صفحات أُخَر. ولكن أخشىٰ أن يحسب خطابي إليك طرداً لا خطاباً إذ زدت عن هذا.

إنني أشمئزّ من هذا الشيء الذي يدعونه زواجاً اشمئزازاً لا حدّ له. أشمئزّ منه ومن الدول التي تتبعه بقدر ما أحترم أولئك البلشفيك الذين ألغوا هذا النظام القذر السخيف من حياتهم.

إنّ «أندريه چيد» لم يعتنق البلشفيّة إلاّ لأنّه عدوٌّ للأسرة ونظام الزواج.. وهؤلاء الشيوعيون أناس يئسوا من السمو. أو لم يحلموا به. ولكنّهم لم يراءوا كغيرهم من الأمم. ولم يراوغوا. ولم يتّخذوا من الزواج ستاراً لأحقر الغرائز الطبيعية بل أطلقوا لها العنان صراحة واستسلموا لها في شجاعة وصراحة كما قال أندريه چيد اليائس: لنستسلمْ لرغباتنا وغرائزنا في سذاجة إلى أقصىٰ حدود الإستسلام.

فهؤلاء النـاس لا يعـرفـون الـزيف ولا الـريـاء. ويـدعـون الأشيـاء بأسمائها.

إنني إنسـان ينفر من هـذه الغرائـز إلى حدّ الجنـون. ومع ذلـك لا يستـطيـع التغلّب عليهـا.. إلا إذا أحبّ.. ففي حبي الـطاهـر.. أتطهّر.. وأذيب رغباتي وغرائزي.. وأُصفّي نفسي.

ولقـد حاولت أن أكـون مـلاكـاً.. فتحـطّمت أجنحتي.. وردّتني الـرجّة إلى صـوابي.. ولست آسفاً عـلى شيء سوى أسفي عـلى تلك الأيام التي أمضيتها مُغفّلاً.. مجنوناً!

...

عزيزي المحبوب..

لننسَ هذا الآن.. ولنعُدْ إلى عادتنا.. فنتحدث عن حياتنا.

أنـا هنـا أولاً.. إنسـان فـارغ. «يعني فـاضي». لا عمـل لي إلا القـراءة والكتابـة. وقد دفعني هـذا إلى ابتكار غـريب هـو أنّي اشـتريت كـرّاساً فخـماً بـه ١٢٨ ورقـة. وجعلت منـه مجلة أسميتهـا «القـبّرة»! فـألصقت على صفحتـه الأولى صورة فخمـة من الصـور الفنيـة. وفي الـداخل أكتب بضـع مقالات لابـأس بها. أولاهـا مقالـة استغـرقت صفحة عن شكسبير وحياته وأعماله، وعـدة مواضيع أخرى. وعنـدما نلتقي إن شاء الله سوف أعطيك هذه المجلة ـ التي سأصدر عدداً منها كل شهرا لتقرأها وتحكم بنفسك.. ولكن..! هل تتكرّم فترسـل لي مقالاً أنشره بها! صحيح! أكون شاكراً جداً. جَدّ. فاهم!

وعـلى ذكـر الفتـاة الإجـريجيـة.. هـل تعـرف أنها حلوة!.. أنـا لاأحـبّهـا.. ولايمـكن أن أحـبّ.. فقـلبي مـشغـول. ووجـداني مشغول.. بحبّ تلك التي ظننتها ملاكاً في يوم ما. ولكنْ. إني أعتزم تمثيل دور العاشق مع هذه الإجريجية المتلهّفة إلى ذلك. ويُخيّل إليّ أني

بذلك أردّ إلى حضرة الخطيبة المحترمة بعض ما أدتّ إليّ! ويخيّل إليّ اني ساجد كثيراً من التسلية والجنون في هذا الطريق الجديد الذي أسلكه.

...

ختاماً يا أخي المحبوب.. أتعشّم أن تعطف على ثورتي. وعلى محاولاتي اليائسة للتخلّص من ألمي، وأنا واثق من عطفك ومحبّتك ثقتي من أنّك ستسرع في الردّ على خطابي لتخفيف بعض ما بي.

أخوك المحب

(وفيق)

(......)

أنا كمان كاتب اسمي واسمك معاً.. فهمت بقى أنت كاتب إمضائي تحت إمضائك ليه؟ الروح واحدة.. مش كده!».

هل مِنْ أقنعتِها أم من تجلّياتها؟

هذا الهياج الثابت من الشعر المُضمَّخ بالذهب في ألق الصباح، عينين مجهودتين، تقاطيع هدّها التعب، على الصبح، وأشواق الليالي العقيمة. بنت في العشرين، لما تكد، تذهب تشتغل، رداؤها الرسمي أبيض، في شارع فؤاد الارستقراطي الخاوي اللامع الأسفلت، وسياراته القليلة الصامتة تقريباً، اسكندرية الشتاء، تدخل البيت الأبيض الأنيق النائم، مع الطاهي، والشوفير، أسيدة البيت هي التي تستيقظ في ملال؟ «هل جئت! صباح الخير» نغم الكلمات مدغوم، وقلة الإهتمام. شحوب الكفاح الصبور ـ أعرفه ـ دون زهو، وصمت أشواق غير مثمرة. خلف ستارة النافذة الشفّافة ديكور ماثل لاينطق بشيء. استشهاد دون اسم، دون نُصُب، محبة

لايعـرفها أحـد. الشارع قـاسٍ. العالم صلب صَموت. هذا الجسم الضيّق المنسيّ المهجـور - أهــذا جسمي الضيّق المهجـور؟ - يجـيش بأشواق العالم الصلب الصموت.

المركب الراجع من النزهة سقط عليه ظلام مساء شمّ النسيم.

الشراع الشاهق تتخايل له شُهْبةٌ مغبّرة، مـطوياً عـلى نفسه ملفـوفاً على خشب الصاري بحبال المراكبيّ القوية.

هل سقطتُ يومها في مياه الترعة الضحلة؟

أم كان ذلك يوماً آخر؟

* * *

(٦)
سوناتا رومانتيكا.. بدون تعليق

بدون تاريخ . .

«عزيزي وفيق

أخيـراً . . وبعـد أن كـدت أجّن قلقـاً . . وتفكيـراً . . وصلني خطابك . . ولن أطيل . . يكفي أن تعلم أنني كنت أقلّب صفحاته . . والـدموع تـترقرق في عينيّ . ! وأشكـرك عـلى ثقتـك بي . . وعلى إطرائك . . هذا الذي بالغت فيه إلى حد الإسراف . . والإغراق . . !

ليس لـديّ ماأقـولـه . . ردّاً عـلى خـطابـك هـذا . . فليس ثمّ مـا يُقال . . ! إنّما هذه المشاعر المضطربة المصطخبة . . تعبّر عن نفسهـا بنفسها . .

تقول إنك تخـاف نفسك يـاصديقي وعمقتهـا . . حقاً . . إن النفس البشريـة لشيء غـريب وعميق . . إنني، تمـامـاً مثلك، أخشىٰ هـذه النفس . . ولكني أحبّ جـانبـاً منهـا في الوقـت نفسه . . أبغضهـا في حيرتها . . وشرودها . . وخبثها . . أبغضها عندما تضيق بي . . وأضيق بها . . وعندما أتخبّط في حساسيتها . . وضعفها . . ولكنْ . . كم أحبّ ذلك الجانب الآخر منها . . دون أن أدري السبب؟! إنها كطائر هـائم أو حيـوان شرود يرود آفـاقاً واسعـة غـريبـة . . ويـرشف من ينـابيـع مجهـولـة . . فيهـا عـذوبـة . . وفيهـا مـرارة . . ولكنّـه لا يمـلّ . . ولا يتعب . . ولا يجد غصناً يحطّ عليه . . ويستروح ظـلاله . . . وهنـا سرّ العذاب . . وسرّ الثورة . . وسرّ القلق . . حقاً إن «الدين» يستطيع أن يمنحنا شيئاً من السكينة . . فهو يبهرنا بقوة هائلة قادرة محيطة . . نرتمي

في أحضانها.. ونطمئنّ إلى رعايتها.. ونُلقي إليها بأزمّتنا مُغْمَضي العيون.. ولكن.. أيها المحبوب.. هل تشعر بالإطمئنان التامّ؟..
إن أعظم الناس مدنيّةً ورقيّاً حقيقيّاً.. مازال في أحد أركان نفسه جزءٌ أثير محبوب.. تحتلّه الأساطير.. وتقصّ عليه بأسلوبها السحري المخدِّر أقاصيصها الحلوة المُغرِية.. وإنْ كانت خرافات.. هذه هي النفس البشرية.. تشعر بعجزها. وقصورها.. ولا يتسنّى لها بأي حال أن تستغني عن الأساطير.. والخرافات.. والقوى الهائلة.. والشياطين.. والملائكة.. وويل للنفوس الحسّاسة فإن حاجتها إلى مثل هذه الأساطير مضاعفة.. ومن هنا جاء هُيامنا بالأدب.. فالأدب قرين الدين.. وفيه أيضاً.. الخرافات.. والجنّيات.. والأزاهر.. والينابيع.. إنّ النفس ياصديقي لابدّ من أن تثور.. ولكنّها لابدّ أن تعود نادمة باكية.. مستغفرة.. ولذا نستطيع أن نفهم لِمَ كان كبار الأدباء.. متعلّقين بالدين أشدّ التعلّق أو ملحدين به أشد الإلحاد.. فمن الطائفة الأولى برنارد شو.. وجيد.. وأناتول فرانس.. فهم أشدّ الناس إيماناً.. وصراحة في الدين.. على رغم ماشاع عن إلحادهم جميعاً.. ولكنّهم البشر.. هذه المخلوقات اللعينة الغبية...!

لقد استرسلت في خواطري.. وشردت.. فأرجو المعذرة..

تقول إنك تمقت الزواج.. والأسرة.. وتحترم البلشفية لهذا السبب.. ولكنني أحب أن أصارحك بشيء لعلك لاحظته في أيام الدراسة.. كم من مرة تخبرني بفكرة أو عاطفة أحسّ بمثلها.. بها هي بالذات.. ولكني كنت أخشىٰ أن أخبرك بهذا.. لأنّك كنت صارحتني مرة بأنك تكره ذلك الشخص الذي يوافقك دائماً ويحبّذك.. وما كنت أحب أن أتّصف لديك بالنفاق أو المصانعة..

أيها العزيز. . إن مقتك للزواج. . وضيقك بنظام الأسرة. . نفس ما أشعر به. . وما أعجب له. . إننا لم نخلق لكي نتزوّج. . ونعمل. . ونتحمّل المسؤولية. . إنما نحن خُلقنا لكي نموت. . خُلقنا وقد بُلينا بهذه النفس الحساسة sensitive وهذا سرّ شقائنا وعذابنا. . حتىٰ لو وُجدنا في الفردوس! . .

والبلشفية. . . ! . . إنني حقّاً أحبهاوأحترمها. . أحبّ حريتها. . وصراحتها. . وسموّ مبادئها. . ولكن. . كل ذلك قد يكون صالحاً. . وعظيماً. . إذا كان المرء أو الفرد وحيداً. . أمّا في المجتمع. . فهي تجربة فاشلة. . إن الإنسان كمجتمع غيرُه كفردٍ. . ومن الثابت الآن أن مجتمعاً تسوده البلشفيّة. . لايمكن أن يقوم على قدميه. . الإنسان كمجتمع يشبه طائفة من القنافذ. . بينها أوسدة القطن الناعم. . تمنع احتكاك أشواك بعضها ببعض. . وهذه الأوسدة هي القوانين. . والبلشفيّة لا تعرف القوانين بمعناها الحقيقي. . لذلك فشل نظامها. . ولذلك تكوّن إعجابي الهائل بـ«رجل الغابة» الإنسان الأوّل. . كان هذا الإنسان كياناً مستقلاً بذاته. . في نفسه كلّ ما تحتاج إليه نفسه. . ومن أعماقه هو ـ لا من حوله ـ يستمدّ أشعة حياته ولذّته. . وإنني أُعْجَب به في وحدته. . ورفعته. . لقد كان فنّاناً. . وكان فنّه هو ـ التعبُّد ـ أقام لنفسه آلهة من الحجر أو العناصر. . وأخذ يتفنّن في التعبُّد لها. . في استرضائها. . بالنحت. . أو تقديم القرابين. . أنه لم يكن وحشاً. . بل كان إنساناً بمعنىٰ الكلمة. . إنساناً يحسّ. . ويسمو. . في هيكله. . وهيكله هو الطبيعة. . إننا الآن لا نعرف هذه الطبيعة. . إننا لانرىٰ فيها إلا صورة كاذبة تماماً متغضّنة قبيحة ابتنتها حياة المجتمع. . ليست الطبيعة هي مجرد السماء النقية. . والخضرة. . والجبال البكر. . إنما هذا جزء من الطبيعة. . وما الطبيعة إلا الوجود

كله الذي خلقه الله في حالته الطاهرة الأولى. . الطبيعة هي النـور. . والحرية. . والحياة الخالـدة التي ترفـع البشر طبقـة أخـرى. . نحـو الملائكة. . ولكن أين هي؟ كل ما أرىٰ حولي. . هو نفاق وتمويه دَفَنَ الطبيعة تحته. . وخنقهـا. . رغم أنها ماتزال تتنفّس. . إنني أرىٰ الطبيعة بعيداً عن كل ما يتعلّق بالبشر. . وهذا هو مبدأي الذي أؤمن بـه. . «الطبيعـة. . والفرد». . يمكنـك أن تعبّر عن ذلـك بـ«البلشفية الفرديّة»! الحرّية. . والـوحدة. . والفنّ. . والـطبيعة! . . من هنـا جاء اختناقي من المجتمعات.

لعلّني قـد أرهقتك بهـذه الأفكار المشتّتـة. . الحيرى. . التي مـاتزال تـدّوم في عقلي وتـدفعني. . في بعض الليـالي. . إلى حـالـة. . أهـول وأعنف وأنكى. . ألف مرّة من أشد حالات الجنون!!

عزيزي

أثارتني قصّتك. . إلى درجـة لاتتصوّرهـا. . وتركت في نفسي أثـراً عميقاً لايمّحي أيها الصـديق المحبوب. . هـل أسِرّ في أذنك كلمـة. . خـافتة. . وهـل تتقبّلها بـرفق؟ إنني لاأعترف بـوجود الحب. . ذلـك الحّب العذريّ الخالص. الذي تُكرِّس من أجله الحيـاة وتُضَحّى على مـذبحه القلوب. . ذلـك الحبّ الذي نتخيّله. . ونحلم بـه. . ونغني بأغاريـده. . ذلك الحبّ الـذي نتلهّف عليه. . ونحِنُّ إلى رشفـة من ينبـوعه. . لايـوجد. . اللهم إلا في أحـلام الشعـراء. . وأظنّ أنّ في ختام قصّتك. . مـايصلح أن يكون قـرينة وبـرهانـاً على ذلـك. . إن الرجل. . والرجل الشاعريّ النزعة. . مستعد أن يبذل هذا الحب. . وهو توّاق إليه. . ولكنّ الطرف الآخر. . أكثر واقعيـة. . المرأة مخلوق عمليّ. . لايميل كثيراً للخيال... والتحليق. . وأنا أوقن تماماً بكلمة لو نورمان «إن المرأة وعاء للحمل. . والولادة. . أو أداة تشبـه تلك التي

تُعلّق في حوانيت الجزّارين». . وأنت تعرف أن هذا هو رأي كاتبك المفضّل توفيق الحكيم. ولعلّك لو قلّبت قصص الحب الخالدة. . من «آلام فرتر» إلى أضرابها. . وكذلك قصص الحب الواقعية. . وخصوصاً التي يمثّل أحدَ أدوارها الشعراءُ الخالدون. . لوجدت أن الرجل دائماً هو الضحية. . وأن المرأة تعرف وظيفتها تماماً. . وتُشْفِق على الرجل. . فخياله الخصب هو الذي يخلع على المرأة تلك الأثواب الملائكية. . ولكنّ الرجل فقط هو الذي يجني ثمرة هذا الإسراف. . عندما يرتطم. . ويتحطّم وعندئذٍ فقط يُفيق. . ويأسف. . ويندم.

نستطيع أن نعتدل فنقول إن المرأة مخلوق يبعث التسلية. . والسرور. . واللذة، وأن هذه الصفات هي وسيلتها لتحقيق ما خُلقت لأجله. . وهو حفظ النسل. . ولكن يجب أن نحتفظ بخيالاتنا لأنفسنا. . ولأحلامنا. . قد يكون في هذا الكلام قسوة. . وخشونة. . ولكنّه ـ للأسف ـ لايزيد عن الحقيقة. . وما أشد سخافة الحقيقة. . الحقيقة شيء بارد جامد آليّ مُغْرِق في السخافة. . ولكن نحن لم نخلق إلا لنُرغم على ابتلاع الحقيقة، والويل لمن يحاول التمرّد أو العصيان! . .

عزيزي

هل نويت حقاً أن تكون إنساناً ذا غرائز وطبيعة متسيطرة؟! هل عزمت على أن تُلقي بنفسك بين أمواج المتع والللذائذ؟ . . هنيئاً لك. . أيها الصديق. . إنني لاأريد أن أثنيك عن هذا العزم. . لأنك لن تستطيع. . ولكن. . خبرني. . هل يمكنك أن تفرّ من نفسك أيها الصديق؟ . . إنها هي هي هذه النفس. . سوف تلذعك. . وسوف تعذّبك. . وسوف تسعدك في بعض الأحيان. . ولكنك لن تفرّ منها. . وليس هناك إلاّ الاستسلام. . والإذعان. . والهروب إلى العبث المصطنع. .

ليس هناك من تسلية.. إلا الهوية التي تفتننا.. وهي الأدب.. هذا الينبوع الخصب.. الذي نستطيع أن نُغْرِق فيه همومنا.. ونَدْفِن أحلامنا.. ونُقيم لها قبراً من المداد والورق.. ننثر عليه بين الحين والحين.. باقات الأزهار!...

ياصاحبي

أحبّ أن نبتعد قليلاً عن هذا النحيب.. وسوف نتسلّى على حساب شخص أعرفه ونعرفه.. هل رأيت القطّ مرة.. وهو يتحكك بك في أثناء عملك.. بشعره الأملس.. ويصانعك في دهاء هادىء.. وخبث كمين؟ وهل شعرت برائحة النفاق وهي تفوح منه.. وهو يتقرّب إلى قدميك في خضوع مصطنع؟ لعلّك تقزّزت منه.. فدفعته بقدمك دفعة قوية.. ولعلّه مخلص فيكون الذنب ذنبك.. ولكنّ هذا الشعور الذي حاولت أن أصفه.. هو نفسه الذي خالجني عندما رأيت ـ ذلك الشخص ـ وهو يتقرّب إلى مخلوق آخر.. ويبتسم عن أنيابه ابتسامة كلّها زيف.. ورياء.. وهناك صورة أخرى.. أتعرف تلك النظرة.. الذليلة الخاضعة المهتاجة الكابتة المعقدة.. النظرة التي ترتسم في عيني الكلب.. وأنت موشك أن تنهال عليه بالعصا؟.. تلك النظرة الضارعة المتوسّلة التي امتزجت بالمقت والحيوانية.. المهينة والمتحيّرة التي خالطها العجز والضعف؟.. وهل تعرف كيف ينكمش.. ويميل بكتفه.. وينحني برأسه يتفادىٰ العصا التي توشك أن تحطّمه؟.. ثم هل تعرف كيف يئنّ الجحش وقد أثقله عكم السماد البلدي فأخذ يخور ويسقط.. لولا عصا الفلاّح الغليظة.. وكلماته الخشنة تدفعه إلى الأمام؟ كم من مرة.. أتذكّر تلك المناظر حين أرىٰ ـ ذلك الشخص ـ وكم من مرة حوّلت رأسي بعيداً عنه.. لكي لا أذكر فيه تلك النظرات!..

هو متشاعر.. أُشفق عليه.. وأُشفق علي الشعر منه وأظنّك عرفته الآن.. ولكن مايزال أمامك شخصان.. تنطبق عليهما هذه الصفات.. فاختر مَنْ يحلو لك منهما.. ولك جائزة سنية!

* * *

راقتني جداً فكرة «القُبّرة» وأهنّئك بها بكل وقار واحترام... ولعلك تستمتع بأغاريدها.. وعلى فكرة أنا أحتفظ بترجمة قصيدة شلي «إلى قبّرة» وهي ماتزال تفتنني.. رغم أني قرأتها مايُنيف على الخمسين مرة.. وأنا أشكّ هل سأقرأها مائة مرة أو تسعمائة مرة.. وأمّا المقالات التي تطلبها.. فلا أستطيع إلاّ أن أعدك بها.. وعندما نلتقي أستطيع أن أزوّدك بحمل ثقيل تنوء به من المقالات التي تطلبها عقاباً لك على جرأتك.

آسف لأنني لم أستطع أن أطيل حديثي اليوم معك.. فقلبي مثقل قليلاً.. أنتظر ردّك بشوق هائل.. وتلهُّف.

في الختام تقبّل تحيّات وأشواق..

صديقك الوفيّ

......»

صفط الملوك ١٥ يوليو ١٩٤١

«عزيزي المحبوب

وصلني خطابك أول أمس.. وأحبّ قبل أن أكتب لك أية كلمة اخرىٰ أن أوبّخك قليلاً! فخطابك قصير.. وقصير جداً!.. وقد كنت انتظر خطاباً طويلاً مسهباً يخفّف عني ما أشعر به من آلام بُحْتُ بها.. راجياً أن تكتب لي مايُزيل بعض ماأشعر. ثم مالي أراك مثقل

القلب حقاً في هذا الخطاب. . فهناك شعور ثقيل. أو ألم مُرْهِق يطلّ عليّ من بين كلماتك. . فما الأمر ياصديقي؟ هل أحببت أنت أيضاً؟! أرجو مخلصاً أن يكون الأمر شعوراً عابراً يمر سريعاً ولا يُطيل مكثه.

هل تعلم ياعزيزي أني لاأشعر بأجمل وأسعد من الشعور الذي يملأ صدري حين أمسك خطابك. . وأسرع به إلى كوبري «الترعة الحمراء» لأقرأه غارقاً في النشوة. . التي تبعثها كلماتك الرائعة. . إنني أحسّ حينذاك كما لو كنت معي. . كائناً أثيرياً غير منظور. . يهمس في أذني أنغاماً تحمل النفس على أجنحتها الذهبية إلى أجواء السمّو. . والفن والجمال. . نعم فكلماتك دائماً تصعد بي إلى السماء لتُلقي بي بين أحضان رفيقة حانية. . تلمس بأناملها أكثر أوتار نفسي إحساساً. . فأشعر بشعور من يستلقي بين ذراعيْ ملك. . لست أقول هذا لأطريك. . أو أمدحك فأنا أبعد من أن أنزل إلى مرتبة مَنْ تعرف من زملاء المدرسة. . وليس بيني وبينك أية مجاملات أو مديح. . وإنما أنا أعبّر لك عن بعض مشاعري. . لتتكرّم. . وتصبّ بعض قطرات أُخَر من يدك المُقتِّرة البخيلة، في كأس نشوتي بأن تزيد خطابك ولا «تسخطه» فتجعله «ورقة البوستة». . فهمت بقىْ؟!. . آه. . أرجوك وبلاش بخل من هنا ورايح!.

عزيزي المحبوب

تقول «ويل للنفوس الحسّاسة. . فحاجتها إلى الأساطير مضاعفة. . ومن هنا جاء هُيامنا بالأدب».

نعم ياصديقي. . ويل للنفوس الحسّاسة. . فهي دائماً جائعة. ظامئة تتلهّف على شيء غريب. . . يبعث فيها الحياة والنور. . إنها تجد في الأدب قطرات. . أو جرعات تروي بعض ظمئها. . وتجد في الدين ما يبعث فيها السكينة والهدوء. . ويشعرها بالحنان

والإطمئنان.. ولكنها دائماً في حاجة إلى شيء آخر.. تجد فيه مادّة حياتها.. أو ذلك الذي يروي ظمأها الدائم.. ذلك هو الحب بآلامه وآماله.. بأحلامه وسعادته ونشوته الطاهرة المُغْرِقة.. ذلك الحب «الذي نتلهف عليه ونجنّ إلى رشفة من ينبوعه» ـ كما تقول أنت ـ الحب ياصديقي هو مطمح هذه النفوس الـ too sensitive. وهو مرماها في الحياة.. وهي لا تحب الأدب إلا أنه مرادف للحب وسموّه ومشاعره الطاهرة.. في خيالاته وأحلامه وآماله.. وأوهامه الدائمة.. ذلك الحب الذي لاتعترف بوجوده أنت لأن المرأة مخلوق عَمَليّ.. ولأنّ.. ولأنّ.. ولكن ما يعنيني أنا من كلّ هذا.. إنّ نفسي دائماً في حاجة إلى الحب حتىٰ ولو كان زيفاً وخيالاً لاوجود له. وأنت حين تطلب مني أن أكّف عن الحب لأنّ.. ولأنّ.. تطلب مني أن أكون متعقلاً أو عاقلاً.. أو.. أو.. ولكنّك أول من يعلم أن العقل.. أو التعقُّل هو أكبر عدوّ للنفوس الحساسة... وللقلوب الظامئة.. بل إني لأرىٰ الجنون والهوس صفة لازمة لأصحاب هذه النفوس.. ولست أخالك تعارضني في هذا..!

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تطلب مني أن أنظر إلى المرأة على حقيقتها فأراها مخلوقاً يبعث التسلية والسرور واللذة.. وهي الصفات التي تساعدها لتحقيق ماخلقت لأجله وهو حفظ النسل أو أراها كما يقول لونورمان «وعاء للحمل وللولادة»؟

إن المرأة لو نُظِر إليها هذه النظرة.. لما أحبَّ بترارك ولا ميشيل انجلو ولا حتى قيس بن الملوّح! إن المرأة ياصديقي هي المخلوق الذي وضعه الله على رأس القائمة التي تحتوي على «الزهور.. والينابيع.. والجنّيات.. والخرافات» فيجب على الرجل الحسّاس أن ينظر إليها نظرته إلى شيء يرىٰ فيه الجمال والنور والسموّ مهما كان مخدوعاً أو مغالِطاً نفسه.

وأذكر أني تناقشت معـك مرة في هـذا الموضـوع. وكان ذلـك على وجـه التحقيق يوم «أحـد السعف». وكنا عـلى الكـورنيش. وأمـامنـا مجموعة من «الأوانس»! فأثار وجـودهن مناقشـةً بيني وبينك عن هـذا المـوضوع. وأذكـر أني قلت لك حينئـذ إن الرجـل «يجب أن يخلق من المرأة شيئاً، مهـما كانت الحقيقـة» وهذه هي الحقيقـة مهما أغـرقت في تشاؤمك يـاعمّ.. فالحبّ الـذي تلتهب إليه تلك النفـوس الحسّاسـة ظمأً وحنيناً إنما مصدره ذلك «الوعاء للحمل والولادة»!

فيجب أن ينظر الرجل إلى المرأة على أنها ملاك.. وجمال ونور وكل شيء إلا حقيقتهـا وتركيبهـا الطبيعي.. ولا يهم بعـد ذلك أن يكـون الرجل هو الضحية. فـإنّ المتع الـروحية والمسرّات النبيلة التي يُغْـرِق فيهـا حبّه.. لا يعـادلها ذلـك الألم والارتطام والتحـطّم عـلى صخـرة الحقيقـة في آخر الأمـر.. وهو لا ينـدم. بل أنـه يجد في هـذه النهايـة مصدراً لشقاء شعري شرحت لك تأثيره - على نفسي على الأقـلّ - في مبدأ خطابي السابق.. وخذني مثلاً.. أنا الآن تحطّمت.. وارتطمت بصخرة الحقيقة المُرّة.. ولكن هل أنا آسف نادم على ما مضى؟ كـلاّ.. بل أنا مستعدّ أن أعيد مـامضىٰ ألف مرة أخرىٰ لأتحطّم ألف مـرة.. فهذه هي الحياة.. والشقـاء والألم ماهمـا إلا ضريبة تجبيهـا الحياة منّـا إزاء مـاتمنحنـا أحيـاناً من سعـادة! فنحن إذا حـاولنـا تجنّب الشقـاء والألم.. تجنّبنا السعادة تماماً في الوقت ذاته!

هـل توافقني الآن يـاصديقي أم أنـك في حاجـة إلى مزيـد؟ أليس ماأقول هو الصواب بعينـه والحقيقة بعينهـا؟.. خبّرني.. هـل أنت إذا أحببت فتـاة جميلة.. ذات عينـين سـاجيتـين وشعـر مسـترسـل حتى وسـطهـا تقـريبـاً.. ووجـه مـلائكيّ حفـل بـأسمىٰ أنــواع الجـمال الشعريّ.. ووداعة الزهور الصغيرة.. ورقّة نسائم الليل الـدافئة..

وصوت ملائكيّ حنون يُشعرك بأن الحياة إنما هي حلم بديع سعيد ناعم يتمثّل في نبرات هذا الصوت الساحر..

هل أنت إذا أحببت هذا الملاك.. وغرقت في حبّه إلى أذنيك حتى صرت ترىٰ القُبلة دنساً وخطيئة في شرع حبّك.. وهل إذا أحبّك هذا الملاك.. وأضفىٰ عليك صنوف الحب والحنان والسعادة مما يرفعك معه إلى السماء السابعة.. هل تستطيع بعد ذلك أن تنظر إليه على أنه «وعاء للحمل والولادة.. وأداة تشبه تلك التي تعلّق في حوانيت الجزارين» وهل تستطيع أن تقنع نفسك بأن المرأة مخلوق عملي.. وأنها.. وأنها.. ثم هل أنت تفكر في هذه المرأة تفكيراً جنسياً؟.. فتفكّر بأن لها جسداً يثير الشهوة البهيمية.. ويمنح المتعة.. واللّذّة الحيوانيتين.. هل تستطيع أن تفكّر في أن لها نهوداً جميلة وأفخاذاً بيضاء ممتلئة؟.. إنك تشمئزّ لمجرّد هذا التفكير وتتقزّز منه.. فأنت في حبّك إنما تنظر إلى هذه المرأة على أنها شيء جميل سامٍ طاهر.. خُلق للحب.. والحب وحده.

ويقودني هذا الكلام إلى مناقشة خطأ شائع تورطت فيه أنت نفسك.. ذلك هو كلمة «الحبّ العذريّ».. مامعنىٰ وضع كلمة «العذريّة» كصفة للحب، كأنما يمكن أن يكون هناك «حب غير عذري» وأن يعتبر حبّاً! ياصديقي أنت تعلم جيداً.. كما أعلم أنا أن الحبّ إذا لم يكن عذريّاً طاهراً سامياً.. بريئاً من كل الشوائب الجسدية الحيوانية.. لايمكن أن يُدعىٰ حبّاً، وإنما «غريزة جنسية». الحب لايوجد إلا إذا كان عذريّاً خالصاً بعيداً من كل الغرائز الحقيرة والشهوات الجسدية الدنيئة.. فكيف إذن يقولون «حبّاً عذرياً» كأنما يمكن أن يكون هناك «حبّ» غير عذريّ!

لست أود الإطالة في هذا الموضوع فهو بحث طويل.. وعلى

فكرة! هذا البحث هو أحد مواضيع «القُبْرة»! وقد بحثته بحثاً وافياً في ١٥ صفحة وأثبتُّ بالبرهان القاطع كل ماأريد أن أقوله لك الآن تحت عنوان «بين الحبّ والغريزة الجنسية»!

وأنهي هذه المسألة الآن طالباً منك في إلحاح ألا تُهمل الردّ على آرائي في خطابك القادم.

....

عزيزي..

أرجو أن أكون مخطئاً إذا لمحت بين كلماتك بعض اللوم والتأنيب على تورّطي في مثل هذا الحب الذي لَمحت إليه في خطابي السابق. ولكن يُخيّل إليّ أنك لم تفهمني تماماً، او أنا لم أشرح لك الأمر جيداً بإزاء الحالة القاسية التي كنت فيها.

ولست أدري مااللذي يدفعني إلى أن أبوح لك بكل هذا.. لعله الشعور بالراحة والإطمئنان حين أجد في نفسك الكريمة مأوىً لبعض همومي وذكرياتي.

ويُخيّل إليّ أني أجد لذة غريبة في تذكُّر مامضىٰ أمام قلبك الكبير.. وفي أن أقصّ عليك بعض ذكريات هذا الحب.. وبعض آلامه.. الأمر الذي كنت أشعر باشمئزاز وخوف شديدين من فعله مع إنسان آخر مهما كان قريباً مني!. ولكني حين أبوح إليك بشيء فأنا واثق بأني أبوح به إلى نفسي.. وكأنّ سرّي لم يخرج من بين شفتيّ إلّا ليعود إلى قلبي.

أولاً هي ابنة خالي، وتكبرني بنحو ثمانية اشهر أو سنة. إلا ان الناظر اليّ يُخيّل إليه أنني أكبرها بخمس سنوات على أقلّ تقدير.. فهي ذات وجه ملائكيّ يشبه وجوه الأطفال في براءته ووداعته،

ويحيط به شعرها الأسود البديع الذي يسترسل على كتفيها وظهرها حتى يصل إلى وسطها تقريباً.

كان ذلك في صيف سنة ٣٩ عندما جاءت مع أخواتها وأمها إلى منزل أخيها بالإسكندرية لقضاء فصل الصيف. لست أطيل عليك.. فقد وقعت في حبها من الليلة الأولى التي أبصرتها فيها في غرفة منعزلة من منزل أخيها.. كنت رأيتها قبل ذلك أيام الإبتدائية، أي في عام ٣٦ تقريباً.. وكنت وإياها في دور الطفولة إذ ذاك.. وقد أحببتها.. أو وقعنا معاً حينذاك في حب غريب هو حب الطفولة الذي يبتكر منه القصصيون أحياناً مايجذب قلوب قرّائهم.. ويثير خيالهم.

ولكني عندما رأيتها في تلك الليلة من ليالي الصيف الحالمة.. أي بعد ثلاث سنوات من آخر مرة التقينا فيها.. لم أعرفها تماماً.. بل أنا لم أكن لأعرفها لولا شعرها البديع الذي ظلّ على عهده طويلاً متموجاً على كتفيها وعلى ظهرها.. وعندما أمسكت بيدها الصغيرة الجميلة مُرَحِّباً.. ورفعتْ إليّ عينيها في دعة وسحر غلاّب. لم أتمالك من أن أخفض بصري مسرعاً.. وقد شعرت باضطراب بينما قلبي يخفق في عنف!

ولا أطيل.. فالحوادث التي تلت هذه الليلة كثيرة.. وتصلح موضوعاً لقصة طريفة أكتبها الآن وسوف تقرأها ذات يوم.

المهمّ. أننا وقعنا في الحبّ مرة أخرى. فقد وجدت فيها كل مايثير خيالي ويجذب قلبي المتلهّف.. ووجدت فيها جميع الصفات التي طالما حلمت بها في حبّي المنشود. وجدت الجمال الطاهر والدعة. والهدوء. والسحر الملائكي. ووجدت فيها النفس النبيلة الفنانة التي تشعر بمشاعري. وتحسّ بإحساساتي. وتشاركني في نظرتي إلى الحياة.

لست أدري ماالذي وجدته فيّ حتى أحبّتني كـذلك. أحبّتني كحبي تماماً. حتى انـدفعتْ ذات يـوم، رغم طبيعتهـا الخجلة الـوادعـة، فصرّحتْ لي بما لم أجرؤ أنـا على التصريـح بـه. . وهنـا انطلق لسـاني بكل الأحاسيس والعواطف التي كانت تجـول في صدري. . فـوجدت لها في عينيها وفي كلماتها الخَجْلىٰ صدىً وبجيباً.

وحدث بعد ذلك أن شاء الدهر أن نفرّ قليلاً من الـرقابـة العائليـة الصارمة التي كانت مضروبة علينا. فذهبت مع خالها لـ«سيدي بشر» بناء على طلبه. وعلمت أنا بهذا من أختها الوسطىٰ التي كانت تعطف على حبّنا منذ الطفولة! فأسرعت إلى سيدي بشر!

وفي هذا المصيف البديع الحالم. قضيت معها. . يومـين. . يومـين اثنين فقط. ولكنهما عندي بمثابة سِني حياتي كلّها.

. . .

وصلت إلى سيدي بشر حواليَ الساعة الرابعة بعـد الظهـر. . وإذا كنت تعرف هذا المصيف جيداً، فأنت بدون شكّ تعرف ذلك المرتفع الرمليّ الكبير الذي تقوم عليه فيلاّ «مندرل» ويوجد أمـام (سيدي بشر نمرة ٣). في هذا المكان توجد فيلاّ خالي. في أعلىٰ المرتفع. . وفي هذه الفيـلاّ. . حيث كنا نصـطاف عام ٣٦ قـام بيننا حب الـطفولـة الذي ذكرته لك. وجدتها مع بعض الفتيات على الرمل أمام الفيلاّ وجلست معهنّ قليلاً. ثم قمت داخلاً. وبعد برهة تبعتني هي.

وفي حواليَ الساعة الثامنة خرجت معها لنتنزّه على الكورنيش.

إنني أحمل لهذه الليلة أجمـل ذكرىٰ في حيـاتي ياصـديقي. . وأُحِلّها من نفسي محلّ العبادة والتقديس.

كم كنت سعيـداً في تلك الليلة وكم كـانت سعـادتي سـماويـة

خالصة.. وأنا أسير معها.. ويدي في يدها، صامتين.. وقد غرقنا في بحر من النشوة والهناء ووصلنا في سيرنا إلى بعد «الأمي».. حيث كنا نذهب أيام الطفولة، وهناك وقفنا. واستندنا إلى السياج الحديديّ.. وقد أمسك منّا بيد الآخر في رفق وحنان. وكان البحر الخالد يمتدّ أمامنا ما لانهاية. وقد خيّمت عليه ظلمة رفيقة.. كانت أشعة الهلال تتخلّلها كأسلاك من فضة تتماوج.. إلى أن تصل إلى قمم الأمواج المائجة.. فترقص على زَبَدها الأبيض رقصة سعيدة فرحة.. يُنْشِد لحنَها ارتطامُ الموج بجدران الصخور العالية.

وخلفنا كان يمتّد الكورنيش. بنوره البنفسجيّ الحالم. الوديع. الذي كان يمتزج بضوء القمر الفضيّ.. فيكوّنان ضوءاً سماوياً باهتاً كان يكسو رمال الشاطىء بثوب خياليّ ساهم. وبجانبي.. كان ملاكي الحبيب ساكناً.. وقد أخذت نسائم الليل الرقيقة تلعب بشعره البديع.. فتنثره أسلاكاً.. على وجهي وعلى كتفيها.. ونظرت إليها.. كانت شاردة.. وقد غرقت في شبه حلم عميق.. رأيته يتماوج في نظراتها التائهة بين البحر المرح العابث.. والشاطىء النائم الوديع.. بهرتني النظرة المرتسمة في عينيْها الساحرتينْ وشعرت بقلبي يستجيب لها.. كما يستجيب في ذهول لمقطوعة شعر خالدة.. أو للحن موسيقىّ مُغْرِق في الجمال.. وشعرت بأحاسيسها النبيلة تسري إليّ.. وتُغْرِق قلبي في فيضٍ من النشوة الحالمة.. فضغطتُ يدَها في رفق.. وذهول.. ورفعت إليّ عينيها في سكون وعلى شفتيها ابتسامة وادعة.. وفي تلك اللحظة.. عرفت حقاً أني أحبّ هذه الفتاة.. وعرفت أن روحي قد اندمجت في روحها.. إلى الأبد.

وظلّت عيناي متعلّقتينْ بعينيْها مدّة طويلة.. وقد غرق كلانا في حلمه العميق.

همست. . وقلبي غارق في فيض من الحبّ والنشوة والسّعـادة. . :
بتفكّري في ايه؟. . .

فنـظرت إليّ في خجل. . ثم أشـاحت بوجههـا. . فأعـدت سؤالي وأنا أضغط يدهـا في رفق. . فأخـذت تقصّ عليّ حلمهـا النشوان. . الذي تمثّل في جزيرة صغيرة. . تائهـة في عُرْض المحيط. . ليس فيهـا من الكائنات غير الأشجار والأزاهـر. . والطيـور الصغيرة الجميلة. . التي تـأتي إليها في الصبـاح فتوقـظها بتغـريدهـا العذب. . لتلتقط من كفّها الحبوب. . وتقف على كتفيها. . لتُنْشِد أعذب أغـاريد الحب. . والجمال. . وهمست ثانية. . أسائلها. . هل تكونين وحيـدة؟ ـ لا. . . قـالتهـا وهي تخفض بصرهـا في خجـل الهب وجنتيهـا بلون الـورود الـدامي. . وظللت أسـائلهـا. . وهي غـارقـة في خجلهـا أو دلالهـا الحبيب. . حتىٰ رفعت عينيهـا إليّ أخيـراً. . وهمست في دعـة وهي تضع يدها في ذراعي. . ـ أنت. . ياوفيق. .

ولست بحاجة إلى أن أقصّ عليك ما جرىٰ بعد ذلك. . فقد فتـح كـلٌ للثاني مغـاليق قلبه. . وعـدنا إلى الفيـلاّ في تلك الليلة وكلّ منـا يشعر بأنه سَمَا فوق البشر آلاف الدرجـات وصعد إلى أقصىٰ سـماوات السعادة الكاملة.

في تلك الليلة لم أنم قليلاً ولا كثيراً. . فقد فاضت بقلبي السعـادة إلى حدٍ أنساني النوم وأنساني كل شيءٍ عدا الحب والأمل والسعادة. . ياإلهي. . ماأسعد تلك الليالي التي يقضيها الإنسان غـارقاً في حبـه. . ناسياً كل شيء عن الحياة وعن الدنيا سوىٰ هذا الحب بآماله وأحلامه السعيدة. وما إنْ جاء الصباح حتى كنت معها نقطع رمال سيدي بشر المهجـورة تحت شمس الصباح الـزاهية. . نقـطف الأزهـار الـبريـة، ونراقب الحشرات الصغيرة وهي تنساب بين الأشواك وقد توهّج كيانها

تحت ضوء الشمس حتى صار في بريق الذهب. لقد لهونا في ذلك الصباح كما لم نفعل من قبل وشعرنا بالمرح والسعادة يغرقاننا في لهونا إلى حدٍ أحالنا إلى شبه طفلين.. يعدو كل منهما خلف الآخر ضاحكاً مرِحاً. على الرمال الصفراء.. وبين الأشواك المتناثرة والزهور البرية الصغيرة البديعة الألوان.. كم ضحكنا.. وكم لهونا.. وكم صعدت أصواتُ مرحنا إلى قمم التلال الصغيرة.. وهبطت متماوجةً بين جدرانها الرملية الجميلة.. المتوهِّجة.. لم نتبادل كلمة عن الحب.. ولم نذكر هوانا بكلمة واحدة.. بل انطلقنا من كل القيود.. وأطلقنا لنفسينا العِنان.. فلم نعد إلا والشمس قد اشتد وهجها حتى أحرقت الرمال أقدامنا العارية.. فأخذنا نقفز لنتجنّب الرمال المحرقة ونحن نضحك.. ونصرخ في وقت واحد.

وصلنا الڤيلاّ.. والساعة حوالّي العاشرة.. فأسرع كل منا بارتداء ملابس البحر.. وأسرعنا عَدْواً كطفلين عابثين ـ وسط نظرات الخال الدهشة.. ونظرات زوجته الحاسدة! ـ إلى البلاج حيث ألقينا البرانس في كابينة الخال.. وألقينا بأنفسنا بين أحضان المياه الحانية.. وقضينا ساعة ونصفاً في الماء تقريباً.. ثم ألقينا بأنفسنا في «برسوار».. واستلقت هي أمامي على ظهرها.. وقد أسندت رأسها إلى يديها بينما شعرها المبلّل بماء البحر ينتشر حولها في سحر خلاّب وهي ترقبني باسمة.

أخذت أجذّف بقوّة حتى ابتعدنا تماماً عن البلاج.. وصرنا في عرْض البحر، وليس خلفنا إلا الماء والسماء والشمس التي كان ضوؤها الذهبيّ يكشف لنا البلاج البعيد والمستحمّين كنقط سوداء صغيرة.

ألقيت المجاديف بجانبي واستندت إلى مرفقي.. أرقبها في حنان.. وقد استلقت أمامي على سطح «البرسوار» الضيّق.

وخيّم علينا سكونٌ مرِحٌ سعيدٌ. . وكلّ منّا يحدّق في عينَي الآخر باسماً.

مرّت علينا ساعة كانت من أسعد ساعات الحياة. . إن لم تكن أسعدها جميعاً. . وقد تركنا «البرسوار» لأيدي الأمواج الصغيرة تداعبه برفق. بينما استندت هي إلى كتفي غارقَيْن في حلم سعيد نشوان.

. . .

وقضينا الساعات القليلة التي تلت الغداء في الحديقة الصغيرة التي تطلّ عليها الفيلا. . كانت مجلة «الإثنين» على ما أذكر معي.

بينما نحن نقلّب صفحاتها ضاحكين إذ وقع بصري على عنوان «زواج الحبّ» بقلم الدكتور ناجي. . وقد فتح هذا المقال بيننا حديثاً بديعاً انتهى بأن أحسستُ بأن هذه النفس النبيلة التي أحبّها تفوق نفسي سمّواً وطُهراً. . وتنظر إلى الحياة والحبّ نظرة تسمو على نظراتي بكثير. . بل لست أنكر عليك بأن كثيراً من الآراء التي قرأتها في الشطر الأول من خطابي هذا إنما هي آراؤها وأفكارها بالذات!!

. . .

وهكذا مرّ الأصيل والليل. . واليوم التالي. . ونحن غارقان في سعادتنا التي لا تعرف حّداً. ومرحنا البريء. . وحبّنا النشوان. . ومشاعرنا النبيلة.

. . .

إنني أعود إلى الماضي. . وإلى هذه الذكريات السعيدة بقلب ملؤه الحرمان والحنين. . والحزن القاتل. . أعود إلى الماضي. . وفي قلبي ثورة عنيفة قاتلة. . وشكّ مُحْرِق أليم. . وخوف من المستقبل يصيبني بالجنون لمجرّد التفكير فيه.

ياإلهي.. ماذا يكون من أمري لـو تزوّجتْ حقـاً؟! ماذا أفعـل.. وكيف أعيش.. وأنـا أعلم أن حبي وآمالي وأحـلامي وذكريـاتي كلها ذابت وتلاشت من الوجود؟ ماذا أفعل وخيالي المقيت يلاحقني بصورة ملاكي الحبيب الطاهر في فراش الدنس والحيوانية البشعة؟! إنني أجنّ ياصديقي.. أجن لمجرد التفكير في هـذا.. وأنت تحسّ وتعرف دون شك ماذا يكون حال إنسان مثلي في هذا الموقف..

مـاذا أفعـل؟.. وكيف أتصرّف يـاصـديقي؟ إنني لاأصـدّق ولا احتمل التصديق أنّ مـلاكي يقبل هـذا الأمر راضيـاً مغتبطاً.. لابـدّ انهم أرغموه.. ولم يستطع فراراً.

ولكن! ما ذنبك أن يـاصديقي حتىٰ أزعجـك بكل هـذا؟.. إنني أعتذر لك.. وأرجـو أن تجد لي عـذراً في حالتي النفسيـة البائسـة.. وأعدك.. وعداً قـاطعاً ألا أعـود إلى هذا المـوضوع ثـانية. فقـد كان الأجـدر بي أن أطوي عليـه القلب ليكتـوي بنـاره المحرقـة في سكون واستسلام.

عزيزي المحبوب..

لنتركْ هذا النحيب ـ كما تقول ـ الآن.. ولْنَعُدْ إلى ماكنا عليه.

واولاً لقد أعجبني جداً تصويرك البديع لشخصية زميلنا في المدرسة في تزلّفه إلى صديقنا وتقـرّبه إليـه.. هل تعلم أنّي أغـرقت في الضحك وأنا أشعر وأذكر من كلامك رائحة النفاق والنظرة الـذليلة الخبيثة التي ترتسم في عينيه وهـو يتقرّب إلى صـديقنا في خبث ويبتسم عن أنيـابه ابتسامة كلها رياء!

أما عن قولك أمامي شخصان فهو خطأ. فالشخص الآخـر الذي تقصـده.. هو إنسـان بـائس مسكـين أعـطف عليـه أكـثر ممّـا أزدريـه

وأشعر أنني كنت أودّ أن أواسيه وأعزيه بدلاً من هجومي الخاطف السخيف عليه!!

والآن ماهي جائزتي بعد أن أجبت على سؤالك الظريف؟..

أرجو أن تكون الجائزة هي ردّ «سريع حافل كبير ضخم هائل»! يعوّض الخطاب الذي أردّ عليه الآن.. فاهم وإلا لأ!

والآن.. تعال هنا. حضرتك بتسخر مني على فكرة «القبّرة» اسمع ياعمّ.. أنا عارفك كويس فأنت شخص «مدنيّتك محدودة وجاي من أخميم ديك النهار»! أنا عارف حضرتك لما تقول «بكل وقار واحترام» يبقىٰ غرضك إيه من الوقار والإحترام ده.. طيب بسّ أما أشوف وشك!

عليك أن ترد عليّ وترسل لي مقالاتك في خطاب خاصّ أرسل لك أجرته أسوة بما تفعل المجلّات اللي بصحيح.. يعني إذا دفعت عليه ١٢ مليم في البوستة أرسلت لك شكري الخالص مع ورقة بوستة بـ١٢ مليم. فاهم؟

أما عن النتيجة.. فسيبك منها.. ملعون أبوها.

ختاماً أرجو أن لا تكون قد تضايقت من خطابي هذا المملّ وشكواي التي أخجل منها.. في الحقيقة.. ولا أرىٰ لها معنىٰ.

وعلى أي حال.. أنا منتظر ردّك سريعاً سريعاً وحافلاً.

وتقبّلْ أعطر تحيّاتي وأشواقي..

أخوك المحبّ

وفيق»

طبق الأصل، بعد ٥٢ سنة..

* * *

(٧)
سلسلة حديد تسد الطريق

«أخميم ١٨ يوليو ١٩٤١

عزيزي وفيق

تحياتي العاطرة وأشواقي القلبية.

هأنذا أكتب إليك في اليوم الثاني من وصول خطابك إليّ إذ إنني لست مثلك «لكع». إن خطاباتك بطيئة ياصديقي وهائلة البطء حتى ليُخيَّل إليّ أنها تصل إليّ بعد أن تقطع المسافة بين صفط الملوك وأخميم بسرعة «زحف السلحفاة»! أو أبطأ قليلاً.

ولا يعوضّني عن ذلك التلّهف والقلق الذي أنتظرها به إلا روعتها وسحرها ولذّة قراءتها... وكما وبّختني فأنا أحبّ أن أردّك الدَّيْن وأوبْخك بدوري قليلاً.

تقول في ختام قصتك «إنك أزعجتني وأنك تعتذر وتعد وعداً قاطعاً (؟!) ألاّ تعود لها و.. و.. إلخ»... إن هذه الكلمات ياصديقي بمثابة صفعة هائلة لي. وهي تؤلمني حقاً.. فخطاباتك وكلماتك هي أجمل.. وأروع.. وأنبل مايمكن أن يمنحني السعادة والسموّ.. إنها تنفذ إلى سُحُب المادة والقلق والظلام التي تدفن من تحتها كياني.. فتصهرها.. وتُسْقِطها قطراتٍ من ندىً شفّافٍ جميل.. وتحيلني إلى كائن أثيريّ غير منظور.. وتحملني حقّاً إلى أكوان حالمة مليئة بالطُهر والنقاء والجمال.. بعيداً عن هذه الحياة بآثامها.. ولَغْوها.. وسُخْفها..

خطاباتك التي تشفّ عن نفسك الكبيرة.. النبيلة.. هي النور الوحيد الذي يغمر نفسي بضوء مراوغ جميل في هُوّتي الحالكة التي أتخبّط فيها بين النار.. والجليد.. إنني لاأقول هذا الكلام رداً على كلماتك التي أسرفت فيها حقاً... وإنما ثِقْ أنني كل مرة أقرأ فيها خطاباتك.. اشعر أنني بعيد عن هذه الدنيا.. وأنني سعيد حقاً.. فإيّاك أن تزعم أن خطابك مملّ.. وأن شكواك مش عارف إيه.. وأنّ.. وأنّ.. وأرجوك بدوري أن تستذوق يا سي وفيق.

تقول إنك تحسّ في كلماتي «بشعور ثقيل.. أو ألم مرهق».. نعم.. أيّها الصديق.. إنها كآبة صامتة.. تغمرني في كثير من الأحيان.. وتظلّ معلّقة.. ثم تذوب كما تتلاشى ظلمة السَحَر في الفجر الأبيض الزاحف.. ولكنّها في هذه المرة أسلمتني إلى نوبة من نوبات اليأس والتبرّم والسأم.. لم أتخلّص منها إلا حين أمسكت القلم وشرعت في الكتابة إليك..

ياصديقي..

إن كلامك عن الحب رائع حقاً.. ونبيل حقاً.. وهو أشبه حقاً بأنغام سماوية مقدّسة.. تتساقط إلى نفسي الحيرى.. فتتلقّفها في ظمأ.. وتلهُّف.

إنني مثلك ياعزيزي أحلم بهذا الحب الذي تصفه في كلامك الشاعريّ الساحر.. وأحنّ إليه.. ولكني لا أجده.. وهنا وجه الخلاف بيني وبينك.. فأنت تزعم أنه موجود حقاً في هذه الدنيا.. وأنا أجد أنه لايوجد إلا في أحلامنا.. وأخيلتنا.. وأنا أوافقك في أن الرجل يجب أن يخلق من المرأة شيئاً مهما كانت الحقيقة.. نعم يجب عليه أن يستمدّ من أعماقه.. وأحلامه.. ثوباً فاتناً يضفيه على المرأة.. فتبدو كما يدعوها كِيانه «عروس أحلامه».. يجب على مثل

هـذا التعس أن يغـرق في زيفـه.. وأن ينعم بهـذه السعـادة التي تحنّ إليها نفسه.. والتي تجد في الحب سبيلها إلى الظهور.. ثم يجب عليه أن يشقىٰ.. بعـد ذلك ويتعـذّب. ففي هذا الشقـاء.. أسمىٰ أنواع السعادة.. ولكن في النهاية....... ما أمرّ الحقيقة!

ما أشبهنا بالطفل التعس.. الذي يفرّ من عصا معلّمه القاسية.. إلى لعبه و«عروسته» يدللها ويناغيها.. ويحدّثها.. ويعيش في دنياه الخاصّة به.. لكي يهرب من قسـاوة حياتـه.. ومرارتهـا.. ما أجمـل اللذة التي يشعـر بها حـين يُحَدِّق في عينيْ «عـروستـه» ويهمس في أذنها «بحـدّوتته» المحبـوبة!.. هـذه السعادة.. سعـادة الحب.. سواء في تلهُّف النفوس الحساسة إليها.. أو تمتُّعها بها أو شقائها بـذكريـاتها.. هي سعـادة.. وهي نبل.. وهي سمـوّ. وهي هي العـزاء والسلوىٰ عن مرارة الحياة وسخـافتها.. إن في نـار الحبّ المحرقـة.. ما يُـطهّر تلك النفوس.. ويرفعها.. وينقيها.. وإن تلك المقطوعات الشعرية أو الموسيقية الساحرة، بـل أستطيـع أن أقول إن كـل قطعـة من الفنّ الجميل.. تهتزّ لها أوتار القلوب في عنف هي نتيجة مباشرة.. أو غير مبـاشرة.. «للحب».. أو للشعور القـويّ الذي تنعكس فيـه صورة أحلامنا.. وحنيننـا.. والذي تصبّ في جـدوله البلّوري كل ماوضـع الله في النفوس من سموّ.. وحساسية.. ونور.. وهو يُدعى «الحبّ» ولكنني أكرّر ثانية أن هذا الحبّ لايوجد في الحيـاة وأنّ بترارك وشيـلي وقيس حـين أحبّـوا لم يحبّـوا إلا أحـلامهم. وخيـالاتهم رغم أن هـذا الحبّ يرفعهم.. ويحيلهم إلى بشر تجرّدوا عن المـادة.. ونبذوا الحيـاة كلّها.. لكي يكرسوا نفوسهم لهذا الحب.. ولعلّ أروع مَثَـل.. هو قيس الذي أعتبره أنا من أسمىٰ النفوس النبيلة التي رآها القمر! فقـد نبذ الحياة.. والمتعة.. والثروة.. والعقل.. لكي يهيم في البيداء..

ويهتف في ضوء القمر الفضيّ. . وبين همسات الملائكة باسم محبوبته «ليلى! . . . ليلى»! . .

تتعاورني الصور القديمة ـ وهل ثمة شيء آخر؟ ـ تناوشني وتراودني، تساورني وتُغويني، وجوهٌ وجسومٌ أنثوية قد حققتْ في روحي أنا خلودَها العابر، أو ثباتَها على الأقلّ بقيتْ، ديمومتها متوقفة عليّ أنا وحدي، نجوم ساطعة في عتمة الثلاثينات والأربعينات، فانتازيات لامعة على بطاقات رمادية مصقولة. يجمعها رفلة أفندي من علب السجاير الورقية المقوّاة البيضاء التي تُفتح ـ كصناديق پاندورا ـ إلى أعلى، فتكشف عن السجاير المبطّطة مرصوصة صفّين على بطونها، لها عَبَق نفّاذ، مذهّبة الفمّ وعليها «چناكليس» بالحروف الإفرنجية والعربية ذهبية اللون أيضاً. وتحت الورقة الشفّافة ـ كأنها دهنية الملمس ـ البطاقة الهدية: نجمة ـ أو نجم ـ من هوليوود.

يحفظها رفله أفندي في علبة خشب «أرتيك» رقيقة محفورة بتجويفات منمنمة مرهفة على شكل زهور ونباتات متفرِّعة مُفَرَّغة في جسد الخشب الرهيف.

«قضى رفله أفندي سنوات طويلة مدرِّساً للجبر والهندسة في المرقسية الثانوية في اسكندرية، وكان عَزَباً، وله شقة في محرم بك، ولم يتزوّج إلا عندما كبر جدّاً، ولم يخلّف وكان عندئذٍ مفتّشاً ثم ناظراً في سوهاج».

«كان يقول لأمي بلهجته الصعيدية الإسكندرانية العذبة الجَرْس: «يامرة خالي». كانت أمه بنت عم أبي، عرفتها في أخميم: امرأة صلبة وحاسمة وتسدّ مسدّ ألف رجل، وتلبس طرحة سوداء مهفهفة شفّافة».

«كان رفله أفندي مدوَّر الوجه، أبيض البشرة وناعماً قليلاً، وله

عينـان جاحـظتان شيئاً ما، تـتألّقان بـالمرح، وسريـع النكتة متـدفّقاً بالكلام، وله شارب مشذّب ينزل من تحت أنفه بين خطّين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذي تظهر صوره في اللطائف المصوّرة».

وكنت أحبّه كثيراً.

كان يعزف الآن في الغـرفة الـداخلية، عـلى العود، مـوسيقىٰ «ليه تلاوعيني وأنت نور عيني» بشجاها الراثي للنفس المُشْفِق على آلامها، تتجـاوب بخفـوت في رنّـات لهـا صـدىٰ ـ من وراء الجـدران والبـاب المفتوح ـ مع أشجان طفلية غير مبرّرة.

جمال وجهها الجليـدي البلّوريّ تقطعـه عينان نجـلاوان مفتوحتـان على سعتهما بكل رعب السينما المصنوع تحت قبلة مستر فردريك مارش مستر هايـد قبحه وتشوُّهه المُدَبَّر المحسوب معدّ بعنـاية لكي ينفّـر، ويجتذب معاً: مريام هوبكنس.

چوان كراوفورد وروبرت مونتجمري: نمـوذج ونمط وحلم الشاشـة البيضـاء الرومـانتيكية، الشعـر المصفّف بدقـة، ليست فيه خصلة ولا شعـرة واحدة غـير مسوّاة، والنـظرة الحالمـة (أمام الكـامـيرا) وصـدىٰ ابتسامة كامنة. هي، تضع يدهـا على يـاقة جـاكتته العـريضة وتسنـد رأسها إلى كتفه العريضة. هو، الثقة والأمـان في وجهه الـذي يعتمد عليه في مُلِمّات العواطف، يتقبّل الحلم.

بتّي جرابل، نجمة راديو، من البروفيل، شقـراء كاملة الجـمال إلى حدّ الهندسة، مقوّسة الحاجب في خطٍ تام التدوير، الشفتان الرقيقتان الناضجتان معاً مصبوغتان تلمعان بالبريق مُفـترّتان عن طلب مـرهف ـ لايكـاد يخفىٰ ـ للحب، ثم الأنف المنحـوت والشعـر معقّـد البنـاء مركّب الإستـرسال محكم الأنثيال..

چوان كراوفورد وحدها، بالروتوغرافور البهـج البُنّي الفاتـح الذي

كانت تؤثره مطبوعات دار الهلال (الكواكب: ٥ مليمات) في الأربعينات، ثوبها الساتان سابغ ينسدل على ساقينْ شامختينْ تبدوان ـ تحت النسيج ـ كاملتَيِ النعومة ومرمريّتينْ.

جريتا جاربو في زيٍّ شرقيٍّ موغلٍ في عالم ألف ليلة وليلة المُتخيَّل المُهندَم، نظرتها الساجية العميقة المليئة بالسر تطعن الروح المستهامة وتحمل كل غموض عالم غريب تحت الحُلِيّ الضخمة المعدنية الثقيلة تتدلّى على جبينها الناصع المدوّر وتسقط ـ حلقتينْ متعاقبتينْ كبيرتينْ على دوريْن ـ من أذنيها، لفّة الرأس نسيج باذخ تُخفي الشعر وتضرب القلب.

والاس بيري وجاكي كوبر في «البطل». الطفل الذي يعين والده «البطل» يسانده في محنة كفاحه الجسمانيّ الأساسيّ (العاطفيّ المسرف في العاطفيّة مثل كلّ حكاياتي) الطفل الصبيّ تستثيره فاتنات هوليوود المغويات المصنوعات ببراعة، ورومانسيّات البطولة أيضاً، الموزّعة بمعرفة شركة جناكليس للسجاير المصرية الفاخرة، يعود الآن إلى غيط العنب مع أمه في زيها البلدي، ملاءتها الحريريّة اللفّ المُحْكَمَة حول جسمها الرشيق الناعم والبُرْقُع الشبيكة المخرّم المفهاف، بقصبته الذهبية المُحزّزة على أنفها، يُخفي ـ ويضيء ـ نصف وجهها المُشرِق.

مع الصبيّ الطفل جِمْلٌ من هذه الأطياف الطائرة التي لم تغادره

ـ أظنّها لن تغادره أبداً حتىْ آخر لحظة في حياته: وبعدها؟ هل بفعل الكتابة تبقىْ؟

هاه..

قالت لي نايرة بالأمس فقط: أحياناً أحسّ أنني بعيدة عنك جداً.

عندما تنقلب فجأة إلى إنسان شديد القسوة. كأنّك جرّاح.

قلت لها: أنا؟ لا أعرف في نفسي هذه القسوة، أبداً. ربما كان ذلك بفعل ما أفضّل أن أسميّه صرامة عقلية، أو نزاهة فكرية، أو أشياء عنترية من هذا القبيل.

ضحكتُ، وضحكتْ هي على التليفون.

كانت شوارع محرّم بك هادئة ومظلّلة في الغروب. وهناك ربوة هيّنة الارتفاع، مرصوفة كلّها بأحجار البازلت العريضة السوداء، دافئة، لامعة ونظيفة كأنّها بلاط حمّام، تنبثق من بين شقّ في تدويرات البازلت الناعم أعشاب خضراء نديّة، مبلولة وشهويّة.

وعلى قمّة الربوة سلسلة حديد، ضخمة الحلقات، تمتّد بين عمودين مدوّرين مغروسينْ في الأرض، لهما رأسان مفلطحان.

هل كانت السلسلة الحديد لتمنع مرور عربات الكارّو وشَطَطَ أحصنتها الجامحة؟ أم لتعوق انحدار السيارات التي كانت قليلة ومربّعة الفوهات ولها رفارف تضع عليها رجلك قبل أن تفتح أبوابها العريضة؟

أم لشيء آخر؟

كانت السلسلة الحديد المشدودة بين العمودينْ تسحرني.

في أحيان قليلة، ونحن عائدان من عند ابن عمتي رفلة أفندي كنت أجد أن السلسلة الحديدية منزوعة من أحد العمودينْ، ملقاة على أحجار البازلت، طريحة على الأرض بجسدها العَضِل الكثيف الحلقات، مُستسلمة.

أما دولوريس دلريو، عارية الظهر والصدر إلا من إكليل الزهور الإستوائية الباذخة، شعرها منفوش بقصد ومكر، ومن وسطها تنزل الجيبة المضفورة من قشّ النخيل، فيحملها بين ذراعيه الحانيتين القويّتين جويل ماكري عاري الجذع تماماً - يدها مبسوطة على منتصف صدره تماماً ويدها الأخرى وراء عنقه بتلك الحركة النسوية الشبقة التي أعرف أثرها المدمّر الدافق في صميم حقوي، عيناها مسمّرتان بعينيه، يُحدِّقان أحدهما إلى الآخر بولَهٍ واستغراق، لا تستطيع تغيير مسارها المدفون في عمق عينيه، ولا يستطيع.

فرانسيس دي، شرقية الملامح تكاد تكون مصرية، قوية الذقن لكنها حالمة العينين شاردة النظرة، شعرها الغنيّ يعكس أضواء البروجكتورات القويّة فيبدو مثل موج الليل الخصيب.

أما ليليان هايد الألمانية فهي «الربيع بأجلى معانيه» شقراء، باسمة، ترفع بسمة صافية عن أسنان لامعة مكينة، وعينين صافيتين، إلى أزاهر مطلولة تونع وتنبثق من على تعريشة مصنوعة الهندسة.

ونانسي كارول في ثياب البحّارة، غُلاميّة، مقصوصة الشعر، قبعة صغيرة أنيقة لا تكاد تُخفي رأسها، سوف تذكّرني فيها بعد ذلك بكثير بقبعة زرقاء صغيرة أهديتها إلى رامة في روما صباح يوم سفرها. كنت قد وصّلتها للمطار قبل أن أقتل التنّين. هل قتلته أبداً؟ هل قتلته؟

كانت القاعة المنيرة الدافئة مزدحمة بالمشاهدين، على الكراسي الخزران المصفوفة، في غير راحة، أصوات احتكاكها بالباركيه تندمج في لغط بهجة التشوّف، أمام خشبة المسرح. كان الجوّ متوتّراً بالشغف والانتظار واستشراف المتعة الآتية، ولم يكن لي كرسيّ، وقفت مسحوراً وقلق الجسم بجانب أمي في الزحمة بين النسوان، روائحهن النسوية تملؤني وتدغدغني، أمدّ عنقي للمسرح الصامت المقفل على أسراره.

هل كانت جمعية الشبان المسيحية - أم كانت جمعية الشابات المسيحيات؟ - عندئذٍ في مكانها اليوم، في شارع عبد العزيز الهادىء الفسيح، بالقرب من شارع شامبليون الذي كان عندئذٍ أرستقراطياً، بَليلَ النسمات مفتوحاً أمام البحر، تصطفّ على جانبيه أشجار النخيل السلطانيّ، وترتفع على أحد صفّيْه - بعد تقاطع محطّة ترام الأزاريطة - ربوة المستشفىٰ الميري المرهوبة الجانب؟

وهل كان هناك أنني عشت مع إستر مَلْحَمَتَها؟

ملكة الفرس السّاحرة زوجة الملك احشويروش التي أنقذت أهلها من الإبادة، جميلة، ساطعة الحضور.

الأضواء الحارقة على خشبة المسرح الصغير. الستار المخملي الأرجواني يرتفع ببطء ليكشف عن قاعة العرش الذهبية المهيبة. الملك في طيلسانه يخبط بصولجانه على الخشب، لحيته طويلة على صدره وعيناه تبرقان، بالغضب أم بالجلال؟

إستر - عشتار السيدة الصغيرة الكوكب المشعّة عروس السماء شجرة الآس، تدخل، تجري مندفعة غير مأذونة وغير مطلوبة، ثوبها الأبيض السابغ يتطاير حول ساقيها وهي تنطلق حتى سفح العرش، لتسقط أمامه جاثية، شعرها أسود منسدل على كتفين من الساتان، سوسنة الحقل، مصبوغة الشفتين الحادّتين بحمرة قانية. ولكن في صوتها - عندما تكلمت - بحّة غُلامية، صدرها ناهض مليء. هل هو أنثويّ، أم لزوم التمثيل؟

كان الملك - في الأول - غاضباً، يستنكر بقوة وخشونة دخولها عليه دون إذن. لكنّه أصغىٰ إليها. قالت إنها صائمة، وإنها تصلّي لله، وتتضرّع للملك تكشف له مؤامرة هامان الذي ينوي أن يعصف بها وبناسها.

وكـان مردخـاي ـ مستشار الملك ـ يقف عـلى مبعدة قليـلاً، شيخاً متصب العود، متهدِّل الشيبة، ممسكاً بعصاً غليظةٍ ذاتِ عُقَد ناتئة.

ودخلت البنـات الصغيرات، فـراشات متـطايرة السيقـان، يترنّمن بالتراتيل، وبالشكر لله، بأصواتهن الرفيعة الثاقبـة، وجيباتهن الـوردية المنفوشة تصعد وتهبط مع الأجسام الضئيلة الرشيقة.

ونحن ننزل السلالم ـ أمي الآن في فستانها الإفرنجي السمنيّ اللون وشعرها مقصوص ألا جارسون على طريقة كونستانس بنيت، تشبهها على نحوٍ ما، ورفله أفندي يمسك بيدي، وباليد الأخـرى يسند امـرأة خـاله في نـزولها عـلى السـلالم المتحـدِّرة، والنـور القـويّ يسقط عـلى الإعـلانات الملوَّنـة بالأحمـر والأخضر والأزرق ـ مرسـومة ومصبـوغـة بـاليد، ومثبتـة على الحيـطان بمسامـير رسم كبيرة، وفيهـا صورة إسـتر الراكعة أمام عرش غاشم الحدود لكنّه مكين.

الشارع الصامت مُعْتِم قليلاً، وشبه خاوٍ.

«عزيزي وفيق

تقـول إنـك تخشىٰ أن يكـون في كلماتي بعض اللوم والتـأنيب عـلى تورطّك في حبك النبيل.. لك الله.. إن حبك أسمىٰ.. وأرفـع من أن يصل إليه لوم أيّ مخلوق.. إنك حلّقت في الأجـواء المقدّسـة التي حَلّق فيهـا بترارك.. وشـلي.. وقيس.. بينما أنـا ماأزال في الأعـماق السـوداء.. الموحلة.. بـين أطلال المبـادىء الجـامـدة.. وبـين أذرع شياطين الأفكار الجنونيـة.. والمشاعـر الغريبـة.. الظمـأى.. فكيـف ألـومك.. وكيـف أؤنبـك؟ إنّي ما كنت لأتـردّد في أن أتـورّط ضعف تورّطك لـو أتيح لي نصف مـا أتيح لـك.. وما كنت لأحجم عن أن ألقي بنفسي بـين ألسنـة اللهب فـأنـا لا أعــرف الحب إلا في أبيـات الشعر.. وسطور الروايات!.. وقد يكون في ذلك بعض الغرابـة.. نعم.. إنني عرفت شيئاً يمكنك أن تسمّيه كما تقول «سخافة عادية ممّـا

يسميه الناس حبّاً، ولكن ليس ممّا أسميه أنا وسوف أقص عليك بعض القصص المسلية.. التي قمت فيها بدور البطل.. والتي يمكن أن يفخر بها بعضهم.. ولكنني أعتبرها مجرّد سخف.. وهراء.. ولك أن تنتظرها.. في غير شوق.. إلى خطاب قادم...

عزيزي..

هل تعلم أني وصلت إلى حالة غريبة لا تطاق.. فقد فقدتِ الحياة لديَّ معناها وكل ما يقيم له الرجال وزناً.. وأصبحتْ حملاً ثقيلاً.. ألقي على كتفي.. وأُرغمت أنا على السيْر به.. في صحراء مقفرة.. موحشة.. مقيتة.. إنني أصبحت أنظر إلى الناس.. وعلى شفتيّ طيف ابتسامة عابرة.. باهتة.. مُحتقِرة.. إن هذه الكائنات تتقاتل وتصطرع في سبيل أشياء لا أفهمها.. ولا أعرف لها قيمة.. المتعة.. الثروة.. الشهرة.. العمل.. الحياة العائلية السعيدة.. كل هذا.. سخف كبير.. ذرّات من التراب.. تؤذي عينيّ إن نظرت إليها.. إنني ابحث عن أشياء لا أجدها.. ولا أعرفها.. ولا أنالها.. أبحث عن الحرية.. والطبيعة.. والجمال.. عن هيكل مقدّس.. ألثمه خاشعاً.. وأقدمّ له قلبي بخوراً وقرباناً في التذاذٍ وسرور.. ولكنّ ما أمرّ خيبتي حين لا أرىٰ أمامي إلا عيوناً أطفأ الحقد نورها.. ونفوساً أكلها البغض والطمع.. تقتتل وتنافق.. في حيوانيةٍ دنيئة!.. هل تعرف كيف أعيش الآن؟.. إنني أقضي نهاري مُحدِّقاً في لاشيء.. مفكّراً في لاشيء.. حيّاً كميت.. أسير كمن في عالم آخر.. وأرمي في جوفي بضع لقيمات.. وتنفرج شفتاي عن بضع كلمات.. ويلتهم نفسي سأم لا يُحْتمَل.. تستطيع أن تفهم الآن كيف أجد في نفسك.. أنت وحدك.. خير عزاء وتشجيع.. على المضيّ.. إلى ما لا أدري!..

إنني أدخل بك الآن أرضاً موحلة.. رخوة.. ومستنقعات راكدة

أقضي فيها أغلب يومي.. هل تذكر يوم أن قلت لك إن نهايتي ستكون إمّا الجنون وإمّا الإنتحار..! إنني أزداد يقيناً من ذلك كلما ازددت انغماراً في الحياة.. وفي الواقع أليس للمرء حقّ الموت كما له حقّ الحياة تماماً!.. لقد وجد المرء نفسه في قفص هائل كبير.. لا يجد فيه شيئاً يروقه أو شيئاً يغريه بالبقاء.. إنني أحّن إلى الأبدية.. حيث الخلود.. والنور.. والهدوء.. إنني لا أطيق الحياة.. ولا المسؤولية.. ولا هذه القذارة التي ينغمس فيها البشر.. إنني أحّن إلى الإنطلاق من هذه القيود الثقيلة.. إنني أهيم بالحرية.. والإبتعاد عن هذه الأشياء القبيحة.. الخبيثة.. المنافِقة..

إنك تقول لي: «الدين.. والله.. ألم يقل بالصبر.. وبالإستسلام»؟ آه.. إنك تغريني بالتعقل.. التعقل الذي تمقته.. ولكني أقول لك «إنني أريد أن أفرّ إلى أحضان الدين.. بعيداً عن هذه الحياة.. فأنا ابنه العاقّ.. هو الرحيم الغفور العطوف.. هل يصدّني.. ويقصيني»؟ وعندئذٍ سوف تقول لي «وجهنم ـ إذن.. والجنّة»؟.. ولكن ألم أقل لك إننا في أرض رخوة.. سوف نغوص في الأوحال إلى رُكَبنا وسوف تهبّ علينا عواصف جارفة من الأفكار المتضاربة.. فهيّا بنا سريعاً نخرج بسرعة.. نعم.. ولكني ماأزال أقول لك إن كل دقيقة تمرّ في حياتي.. إنما هي دليل على الجبن.. والعجز.. والتردّد.. وإن الإنتحار شجاعة رائعة.. وإنني أحسد أولئك الذين نفذوا من هذا الستار الرقيق الذي يفصل الحياة عن الموت، والظلام عن النور... والفناء عن الخلود!...

ولكن.. هأنذا استسلمت لحدّتي وثورتي.. فأرجوك أن تغفر لي هذا الجنون.. وأن تصفح عن هذه السخافة.. فأنا أحب أن أفضي إليك بشيء يسير ممّا يحطّم كِياني.. شيئاً فشيئاً.. وإن الصمت الطويل.. ليثقل عليّ.. ويهدّني.. فلأقذف إذن بهذه الثرثرة

الفارغة . . وأتوسّل إليك أن تعتبر ما قرأت جنوناً مقيتاً لا قيمة لـه . . ولا وزن . . »

الآنسة أمينة رزق نجمة متألّقة في سماء المسرح والسينـما، لعلها في العشرينات من عمرهـا، جميلة وصبيّة وفي ذراعهـا غويشتـان شرقيتان سميكتان حافلتان بالنقوش والتدويرات والكريّات، وهي ترفـع ذراعاً بضّـة تسنـد بهـا رأسهـا المكسـوّ بشعـر كثيف أسـود، وكلّهن، كلّهن يحلمن بتلك النظرة الشاردة الساهمة، من أول جانيت حنّا إلى جانيت مـاكدونـالـد، من أول شـارلـوت واصف إلى سـوزان فلمنـج الممثلة الجديدة التي كانت تعمل عـلى مسارح بـرودواي ثم اشتغلت بالسينما أخيـراً وهي تعمل لحسـاب شركة بـرامونت وهي التي احتلّت أحـلام صبـاي الباكـر كانت عـارية الصـدر تحت ثـوب ـ أو مـايـوه ـ صيفيّ مـزركش، ونهداهـا، تحت شريـطيْن رفيعـيْن يـدوران بعنقهـا خِلْف خلاف، متدفّقان بالامتلاء والغوايـة ويدهـا مسندة إلى مـايشبه رمـال الشاطىء (في الإستديو بلا شك) ويدها الأخرى مرميّة بلا اهتمام على ساقيها الطويلتين الناعمتين، ونـظرتها ـ حتى الآن ـ تسيـل لها بـواطني وجداً. أما مادج إيفانس ـ فهي في ثـوبها الحـريري بحمّالات تكشف عن نهديْن صغيريْن ساقطيْن حُرّيْن (في تلك الأيـام لم يكن السوتيـان محبوباً أو شائع الإستخدام، جاء بعد ذلك عنـد چين راسـل وصوفيـا لورين وأضرابها) وهي ترفع وجهها وحاجبيها قوسيْن مربعين طويلين يـدوران حتى المِحجرين في خطٍ عـرفتُـه في ليـالي الحُمّيـا والشهـوة والشُطَط.

مِرْنا لوي، دورثي جورداي، چوان مارش، چـين هارلـو، لوريتـا يونج، أليس فاي، سونيا هيني، جلوريا ستيوارت، آنّا مـايْ وُونجْ، سلفيا سيدني، وجنجر روجرز التي تـدلّهت في ملامحهـا بحبّ نوريس

فخري سنوات طوالاً ـ أوشكت أن أسلم نفسي لأنياب التنّين وأمواج الليل القاتلة في عشيّة عاصفة على عشب، شاطىء السلسلة المتخثّر والكثيف الطيات في الشاطبي ـ هل كانت ليلتها ليلة الجمعة الكبيرة؟، ومادلين كارول، وكارول لومبارد وجين تيرني وآن شريدان أسماء سحرية أطياف سرّيّة. .

«عزيزي وفيق. .

لعلّ من الطريف أنني حضرت منذ قليل حفل زواج. . ممّا يحلم به كثيرون. . وسوف أقص عليك. . لكي أبعث الإبتسامة إلى قلبك الكبير. . كانت الغرفة كبيرة. . ومزدحمة. . تُنيرها أضواء قوية. . وترتفع فيها ضجّة صاخبة الصيحات. . والزغاريد. . والضحكات. . جلس العروسان المسكينان. . على مقعد وقد ارتدى «العريس» بذلته السوداء. . وطربوشه الأحمر(١) جلس كالفأر وقد وقع في مصيدة ضيقة. . ويتلفّت بقلق. . وفي عينيه نظرة متوجّسة وعلى شفتيه ابتسامة تقليدية زائفة. . أما «العروس» فقد جلست في أرديتها الناصعة. . وتاجها المزيّن بالفلّ الأبيض. . في وداعة. . واستسلام. . وكانت جميلة حقّاً. . وأخذت «وصيفة الشرف» تحرّك مروحتها في حدّة وعنف لتجلب بعض الهواء على وجه العروسين. . ولكن يظهر أنها فشلت لأنها كانت تزيد المروحة التعسة تحريكاً وتقليباً في سرعة. . وغيظ. . أمّا القسيس. . فقد أخذ يقرأ من كتاب أصفر قديم. . ويرفع صوته إلى حدّ «التجعير» لكي يرتفع به عن الضجّة. . بينما قطرات العرق الكبيرة المتابعة تسقط على شاربه الوقور. . ولحيته السوداء. . لقد كان، يربطهما برباطه، المقدّس. . ويوصيهما خيراً. . ثم انتهى أخيراً بأن ضمّ رأسه إلى رأسها ورفع الصليب وقد غُرِسَتْ به شمعة مضيئة. . لقد انتهى الأمر. . . الشمامسة يرتّلون بأعلى أصواتهم «كيرياليسون. . كيرياليسون». .

وخُيِّل إليّ أن العروسين في تلك اللحظة.. كانا كمسجونينْ.. ينتظران الحدّاد الذي سوف يصوغ لهما القيد الحديديّ.. ويسمعان صبيانه.. وهم يغنّون في مرح.. بينما هما سوف يُسْلَمان إلى السجن.. الدائم.. البغيض.. وأفلتُ أخيراً.. وفي رأسي صداع قاتل.. وفي نفسي سخرية مريرة..

...

هل تعلم كم الساعة الآن؟.. إنها الواحدة صباحاً.. والواحدة صباحاً شيء رهيب في أخميم.. فقد اشتمل البلدةَ كلُّها نقيقُ الضفادع البعيد.. على شواطىء التُّرَع المنسابة.. وامتلأ الجوّ كما يُخيَّل إليّ بأرواح سجينة.. معذّبة.. سوف أتركك الآن ـ وإلى حين ـ لكي أُطلّ من نافذتي على شوارع البلدة الهاجعة القاتمة... إنك تستطيع أن تعرف بعض الشيء عن تلك الليالي القلقة المحمومة التي أقضيها هكذا.. إن نفسي هذه تسوم جسمي المسكين سوء العذاب.. ويكفيه هذا القلق المضني.. وهذا المضض اللعين.. ولكن ماذا نفعل؟.. غير أن نستسلم.. ونستكين؟...»

لا.

لم يحدث.

لم نستسلم، لم نستكِنّ، لم نيتكِنّ.

قلت: مسرح الكلمات الخارقة الأنوار، ألا ينطفىء سريعاً؟

قلت: لا ينطفىء.

قلت: هاه!

هاهي يدي في يدك.

«أقام النائب المحترم الأستاذ حامد طُلْبة صقر مأدبة غذاء فاخرة

بكازينو الشاطبي تكريماً لأعضاء الوزارة الحاضرة. وقد حضر هذه المأدبة أصحاب المعالي صبري أبو علم باشا، وأحمد نجيب الهلالي باشا، ومحمود سليمان غنّام بك، وعبد الحميد بك عبد الحقّ، وعبد الفتّاح باشا الطويل، وكامل باشا صدقي، وفهمي بك ويصا، واعتذر عن الحضور الوزراء...»

«الجمعة ١٦ أبريل ١٩٩٣ «الأهرام»:

أسيوط ـ موسىٰ بولس:

«واصلت نيابة أسيوط تحقيقاتها في حادث اغتيال اللواء الشيمي وحارسه وسائقه.. وكشفت التحقيقات عن مفاجأة حيث تمّ التوصّل إلى شاهِدَيْ رؤية.. شاهدا الحادث أثناء ارتكابه وتعرّفا على ثلاثة متّهمين من الإرهابيين الستّة الذين نفّذوا الجريمة، وطلبا حماية الشرطة لهما من بطش وإرهاب هؤلاء القتلة.. حيث اعتادوا تهديد الشهود في مثل هذه الحوادث.

وكان أحمد أبو ضيف رئيس النيابة الكلية قد انتقل لمعاينة مكان الجريمة للمرة الثانية ومعه حلمي عبد الرازق مدير النيابة وعبدالسلام سليمان وكيل أول النيابة.. وأثناء قيام فريق المحّققين بتسجيل وقائع المعاينة اكتشفوا وجود كشك لبيع الخضار بشارع أبو الحجّاج يبعد عن مسرح الجريمة بحواليْ ١٠ أمتار فقط.. وتبيّن أن الكشك خاص بسيدة اسمها كمال رمضان حسن «٥٠ سنة» فتم استدعاؤها. وبسؤالها فجّرت مفاجأة جديدة بقولها إنها تعرّفت على اثنين من الجُناة، وهما عبد الحميد علي عقر «٢٥ سنة» وطه الموشىٰ «٢٣ سنة» وأكدت الشاهدة أنها يمكنها التعرّف عليهما فوراً.. ولكنّها طلبت حماية رجال الأمن لها قائلة «إنني أرملة وحيدة أعول نفسي» في نفس الوقت الذي تخلّى فيه بعض الشهود عن سلبيتهم وتقدّم أحدهم للنيابة

ويُدعىٰ عبده عبد الكريم مخبر سرّي. . وهو مخصّص لمراقبة منطقة الحادث أمنياً وأكّد أنه شاهد ٦ أشخاص من بينهم أربعة إرهابيين يحملون البنادق الآلية واثنان آخران من المتّهمين الستة يحملان مسدسات، وأكّد الشاهد الثاني أنه تعرّف على اثنين من الجُناة هما طٰه الموشي ومصطفىٰ محمود عيسىٰ.

وقد طلب المستشار عزت محمد مسعد المحامي العام لنيابات جنوب أسيوط سرعة القبض على هؤلاء المتّهمين.

كما واصلت أجهزة الأمن جهودها لضبط الجُناة بعد أن تمّ القبض على ٥٠ من المشتبه فيهم أمس، حيث لاتزال حالة حظر التجوّل مفروضة على مركز أبو تيج لليوم الخامس على التوالي.

ومن ناحية أخرىٰ تمكّن النقيب عامر محمود عامر من إبطال مفعول عبوة ناسفة تمكّن صبيّ صغير من التسلّل إلى ميدان الجامع الكبير بديروط وألقىٰ بها أما كنيسة «البلاموس». . . وقد تمكّن حراس الكنيسة من مطاردة المتّهم وتمّ القبض عليه واسمه حسن رمضان محمد (١٦) سنة طالب بالصفّ الثالث الإعدادي».

«حول خبر أستاذ

يحاول قتل عميد سابق»

«جاءنا من الدكتور عمرو فؤاد عميد كلية حقوق طنطا بخصوص الخبر المنشور بجريدة «الأهرام» يوم الإثنين الموافق ١٢/٤ «أستاذ بحقوق طنطا يحاول قتل عميد حقوق سابق «أنه لايوجد بكلية الحقوق جامعة طنطا أي عضو هيئة تدريس أو مدرّس مساعد أو معيد أو موظّف يحمل هذا الإسم. كما أنه لا علاقة لأيّ شخص بالكلية بهذا الحادث».

الثانية عشرة ليلة ٣٠ مارس ١٩٤١ : يوميات.

«ما أحلىٰ الجنون، والإنطلاق من القيود، وعدم المبالاة بحيوانات البشرية والسموّ عن تقاليدها المقيتة. حقّاً ما أحلىٰ الجنون.

ماهذا الهذر والسخف؟

قال لنا بالأمس «علي أحمد» مدرِّس الجغرافيا ـ ياحفيظ ياربّ!! ـ في معرض الحديث إن تلميذاً سرق منه قطعة من الحجر نفيسة.. ونفاستها تتوقّف على جمالها وروعة فنّها.. فقال وفيق إنّه فنان!! وإنه محقّ في عمله! فما كان من الأستاذ الجليل إلا أن هزّ رأسه باحتقار بالغ وتلفظ كلمات تدل على ازدرائه الشديد..

أف... هذا التلميذ فنّان عظيم حقّاً.. يذكّرني.. بجبرائيل دانِنْزيو... شاعر إيطاليا المجنون العظيم الذي سرق صورة الجيوكوندا من أحد المتاحف فتمتّع بها أيّاماً «تمتّعاً فنّياً» وأعادها إليه... هذا هو الفنّ الحقّ.

تُرىٰ لو علم الأستاذ.. بالطبع كان يحتقر جبرائيل أيضاً ويزدريه ويقول، كما قال: «هذا... هذا ليس بإنسان إنّني أعتبره جيفة.. لصّ...» لست أدري في الحقّ أيّهما الجيفة واللصّ!! وبالأمس أيضاً أعجبتني صورة فنّية في أحد أعداد المقتطف.. وهي تمثّل «آفاق الشِّعْر الواسعة» في صورة فتاة جميلة.. قد اعتمدت ذقنها على إحدىٰ يديها.. ورنت بنظرة ساهمة بعيدة.. إلى آفاق واسعة بعيدة.. وإلىٰ شجرة جميلة.. كطيف ماثل.. وقد رمىٰ شَعر الفتاة المجعّد المقصوص.. ظلالاً حبيبة على جبينها المستدير... وانطبق فمها برقّة.. فبدت شفتاها رائعتيْن.. وهي متسربلة بسربال سابغ فضفاض لا يُظهر إلا قدميها الصغيرتيْن.. إحداهما فوق منصّة مرتفعة قليلاً والأخرىٰ فوق الأرض، وقد تدلّت ذراعها العارية البضّة

من كُمْ الرداء القصير... في صورة شاعرية حقاً... أعجبتني الصورة.. فنسختها... وجاهدت نفسي كيلا أسرقها!

رأيت اليوم وجهاً جميلاً مكروباً.. كم كان ساحراً بديعاً... وما كان أبلغ أثره في قلبي التعِس الحسّاس.... فِداك روحي... لو كانت الروح فِدىً... ولكن...

شوقٌ يستعِر... مكظوم... خفيّ... ولكنّه شوق يستعِر...

«في هذا العام عرفت أشخاصاً تسلّل بعضهم إلى دنياي الخاصّة، بدون استئذان، ورغم الأبواب الثقيلة، فأضيفوا إلى مجموعة المجانين الذين يعيشون هناك...

منهم الشيطان المجنون وفيق. أحببت هذا الفتىٰ كثيراً، واقتربت روحي من روحه كثيراً وتعانقت مشاعري بمشاعره كثيراً.

هذا ما أُحسّ به من ناحيتي. أما هو فلست أدري.

فهو شيء معقد التركيب متداخل الأجزاء غريب التكوين.

أنا أُحسّ أنه يشبهني في كثير جداً ـ وإن كنت أُخفي عنه هذا ـ ولا عجب في ذلك، فأنا لا أحب إلا شخصاً أجد فيه صدىً لما يعتمل في أعماقي.

(بطبيعة الحال).

ولكنه يختلف عني في روحه المرحة التي تُخفي وجيعة مُرّة. له مشاعر مرهفة أيضاً، وفيه شاعرية قوية ـ وإن لم يخطر ببالي أنّه قد ينظم بيتاً في يوم من الأيام.

(سوف أعرف أنه يكتب قصيدة النثر أيضاً، بعد ذلك بكثير)!

أعصاب رقيقة، وذكاء حادّ في الواقع.

(أتصوّر أنه كان عندئذٍ قد بلغ من النضج ـ والخبرة ربّما ـ ما لم يكن يخطر لي على بال)!

في نفسه جمال شفّاف.. وفي روحه خفّة محبّبة... مغرم بتصنّع الجنون.. والإغراق في العبث.. «ولعلّ ذلك لكي يهرب من البكاء الذي يدعو إلى الجنون الحقيقي»!! كم من مرّة يخبرني فيها بفكرة أو عاطفة أُحسّها أنا في أعماقي.. هي بالذات.. ولكني أصمت..

في بعض الأحيان.. أُحسّ أنه يبتعد عني بسرعة هائلة آلاف الأميال.. وإن كنت لا أدري سبب ذلك.. ولكن هذا هو الواقع.. فجأة.. أشعر بظلام كثيف وقد غشّى الصلة بين روحي وروحه في ضربة خاطفة.. كأنما يرتفع بيننا حجاب قويّ... ولكنّه ينهدم بعد لحظة.. وأنظر إليه بصمت.. فأجده ينظر إليّ.. ولكن لم تتجاوز الشفاه كلمة.. لعل ذلك أنه يريد أن يتكلّف الابتعاد عني.. أو لعلّ السبب قسوة المجتمع وسخافته وتقاليده الفارغة التي لا تتّسع لمثل هذه المشاعر المقدّسة... ففي الواقع هو لا يدري أنني أميل إليه إلى هذه الدرجة وإنْ كنت واثقاً من أنه يشعر بذلك... ولكنّ لغة الحديث لا تحتمل شيئاً من ذلك.. ولولا نجوى المرء للورق لما عرف العالم سحر العاطفة وسموّها.. إن المرء ليجد نفسه فجأة مسوقاً في تيّار بحبّه وإنْ كان قد أُرغم عليه.. وفي الإرغام لذة في بعض الأحيان... إنني لم أعرفه إلا منذ شهريْن أو ثلاثة فقط.. ولكن ها نحن وقد ارتفعت «التكاليف» من بيننا كما يعبّر أولاد البلد وأضْحينا موثقيْن إلى أغلال عاطفيّة قويّة.. وأنا لا أنسىٰ عاطفة أبداً... فما دمت شعرت بها في يوم من الأيام.. فقد نصبت لها تمثالاً من روحي صُغْتُه... وفي قلبي رفعتُه وثبّته إلى الأبد!! وقد يجترف الزمن هذه العاطفة فتمرّ تحت عجلاته التي تدور على كل شيء وتحطّم كلّ

شيء. . . ولكنّه لا ولن يقوى بحالٍ على أن يلمس تمثالها في «معبد قلبي» فهو خالد يستعصي على الزمن. . . مقدّس لا يجرؤ الدهر أن يضع قدمه على عتبته».

يا سلام! يا سلام!

. . .

ديسمبر ١٥ سنة ١٩٤٥ : يوميّات.

ينبوع آخر ينضب رويداً. مياهه تجفّ. تتخبط فوق الصخور. خمس سنوات منذ أن وثب الينبوع في التربة المحترقة الغنيّة السوداء. وكانت أغنيات الينبوع أغنيات مبرقة. ولكن الرياح السّموم عرّت الأرض. والصخور تحطّمت من جوانب الجبل. ودفنت تحتها صرخات البذور. وابتدأ الينبوع يختنق. وابتدأت مياهه الخصبة الرقيقة تجري حارّة متقلّبة مُظلمة. وتتحطّم وتلهث. تنبثق. . تتكسّر. . وتزحف منهكة. وراحت تجفّ. . وهاهو الينبوع ينضب رويداً.

ولكن عليّ أن أدفع الجبل إلى الوراء. أن أزحزح الصخور بذراعيّ. إن حبّة خردل من الإيمان تكفي لأن تقول للجبل انتقل من مكانك فينتقل. وهأنذا أبحث عن الخردلة.

لن أترك نغمات الزيف تنطلق دون صدق. والذكريات القديمة تبتسم في ضباب الفائت. وهي جميلة. . ويخضع المرء لغوايتها.

هل يتزحزح الجبل وتنطلق في الينبوع حياةٌ جديدة؟»

* * *

يوميّات، ١٩٤٥، بدون تاريخ:

«نعم كل شيء يسخر من إنسانيّتنا. حتى هي ذاتها.

تلك الحواسّ التي تحيطنا بعالم هائل من الجوامد والسوائل والوقائع، وذلك العقل الذي يحيطنا بعالم هائل من الروحيات غير المنظورة وغير المحسوسة، من أشياء لا تقع تحت طائلة حسٍّ ما، أشياء هي كل شيء. تسخر منّا.

ليست المادة عنصراً من بروتين، وعنصراً من الكترون، يدوران حول عنصر نيوترون.

كل مجد الإنسانية أنها تستطيع أن تسخر من نفسها أحياناً.

العالم الروحيّ ليس إلا أحد مباذخ القرن العشرين ـ ترفٌ يتمتّع به أبناؤه مرهفو الحسّ الناعمون.

ما أشد القوّة الروحيّة التي يملكها مَنْ فَقَد الإيمان، القوّة التي تستطيع أن تواجه، وحدها، هذا الكون.

كل شيء في هذا الوجود خُدعة. الحسّ. القلب. العقل. الوجود نفسه. وحتىٰ هذه السماء الزرقاء الصافية الشفافة الغاصّة بملايين الملايين من الأكوان.

نعم. لا يمكن التمرّد على الألم. لا حياة متصوَّرة بدون ألم. ومهما كانت بشاعة الألم فهو ضروريّ لوجود الحياة ـ أو هكذا نظنّ. ولكنّ التمرّد ينصبّ على الحياة نفسها. . التمرّد المرّ، قاتل المرارة.

أما الكبرياء، فثمة كبرياء حقاً في نفوسنا، هي كبرياء الألم.

أما المعرفة، فمن نالها؟

***

(٨)

كأس مترعة باللحم الأبيض

محطّة مصر. والشارع الذي تطلّ عليه قهوة الأكتع من فوق منصة عالية تصعد إليها عدة درجات. عَقَدْتُ فيها، من سنين، اجتماعات سريةً، (علانيةً)، على كوب من الشاي، تكلّمتُ فيها بسذاجة وإيمان عميق عن المادية التاريخية والمادية الجدلية وأصل الكون وأصْل العائلة.

ومن الناحية الأخرى أرض براح، في الصيف تُفرش فيها الكراسي الخيزران والموائد النحاسية المدوّرة مقلقلة الأجل، وتُقدّم الطلبات. لقيت فيها حسين علي بن علي، زميلي في الكلية، ابن ملك دارفور، سوداني ناحل طويل عظميّ الهيكل، وجهه الهضيم أبنوسيّ السواد لامع، يتقّد ذكاءً وحَذَراً. لم يكن مقتنعاً قطّ بوحدة مصر والسودان، ولم يستجب قطّ لتحريضي أن ينضم لحركتنا الثورية.

بعدها القهوة الكبيرة التي تتصدّرها لوحة بالألوان الزيتية، صارخة الألوان، مرسومة بالمربّعات، ضخمة هائلة الأبعاد للموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، تسيطر على الشارع.

وبعد ذلك مبنىٰ المراحيض العمومية على تقاطع الشارع الذي يُفضي إلى ربوة مدرسة العباسية الثانوية التي تحوّلت إلى جامعة فاروق الأول في ١٩٤٢، وشارع إيزيس.

هناك سور مبنيّ له كَنَار حجريّ مربع الشكل.

هل كنت في السادسة أو السابعة أو نحوها؟

ما أكاد أصل إلى هذا المبنىٰ ـ ممسكاً بيد أمي ـ حتى تكون قدماي

قد كلّتا، وساقاي تخلخلتا من المشي. أطلب إليها أن تدعني أجلس قليلاً على المرسى الحجريّ المُرحّب.

كان مهرجان مارِ جرجس يبدأ من هنا، حتى آخر غيط العنب، عند جامع سيّدي كريم، وسور خط السكة الحديد، وبعدها شطّ الملّاحة المترقرق الضّحْل.

في أيام مُولد مارِ جرجس أجد الصلبان الضخمة مرسومة، أو مُضاءة بالنيون، وصور الشهيد الرومانيّ العظيم، قد أخرجت من الغرف وعلّقت على الحيطان الخارجية للبيوت، في النوافذ، على الشرفات، وقد أحيطت بالمصابيح الكهربية المدوّرة والملوّنة والفاضحة ـ مدّت منها حبال متأرجحة عبر الشوارع ـ والفارس المدرّع يطعن التّنين المتلوّي على الأرض بالحربة الطويلة مغروسة في الفم الذي ينفث النيران، وهو على فرس بيضاء مرّة، شهباء مرّة، أو صهباء. فِعْل الطعن متكرِّر، بلا انتهاء، من أول شارع ايزيس عبر شارع راغب باشا، ثم الكوبري، وشارع النخيل الذي يقطعه الترام حتى الكراكون وما بعده، وكل شوارع غيط العنب، حتىٰ ذروة المهرجان، بؤرة المولد، في كنيسة مار جرجس عند تقاطع شارع الأنهار وشارع الغدير، تتشعع منها بهجات الإحتفال.

كنت وأنا طفل أبيع طوابع منها ماقيمته قرش صاغ واحد، ومنها ما قيمته خمسة مليمات، وعليها رسم تخطيطيّ تجريديّ ـ بالأحمر أو بالأزرق ـ لواجهة الكنيسة، وأبراجها، وأبوابها المقوّسة العقود، على سبيل جمع التبرّعات للإسهام في نفقات البناء.

وعندما كنا نسكن في ٦١ شارع خفاجة، في راغب باشا، كانت شرفتنا في الدور الثالث تطلّ على البيت الذي أمامنا ـ كان الدور

الثالث فيه أخفض قليلاً منا - عَبْرَ شارع خفاجة الهادىء الخالي تقريباً.

كنت أرى، بسهولة، فَسْحة بيتهم، واسعة، تكاد تكون خاوية، فيها خزانة باب زجاجيّ سميك، على رفوفه تبدو لي تحف كثيرة صغيرة غير مستبينة السّمات، من خشب أو معدن لامع، وأعلام ملوّنة مثلّثة مشقوقة الأطراف مغروسة في قواعد من الأبنوس. وعلى المائدة الرخاميّة الثقيلة كنت أرى كرة أرضية هائلة، ملوّنة، البحار والمحيطات بالأزرق، الجبال والسهول بالبنيّ المتدرّج والأخضر المنبسط.

كانت صاحبة البيت الستّ أم رسميّة صديقة أمي، تزورنا أحياناً هي وابنتها، وكان زوجها رسمي بك قد توفّي من زمان. ظلّت تودّنا حتى بعد أن انتقلنا إلى كليوباترا الحمامات.

مقوّسة الظهر قليلاً، تلفّ شعرها الأملح الجافّ بمنديل يبدو كالح اللون قليلاً، وتلبس السواد باستمرار.

أما رسمية فقد كانت فتاة ملفوفة ومدوّرة وبيضاء، عذبة الابتسامة دمثة الجسم. كلما التقت بي كانت حفاوتها، وإقبالها عليّ، وكل كلمات الإعزاز التي يوشك أن يكون تدليلاً، تُربكني وتُخجلني. وكانت تأتي لي دائماً بألواح شيكولاته شكلها لذيذ وغريب، كادبري ونستله. ولكني لم أكن أستطعمها، أرفض أن أتناولها، رغم الغواية، لسبب لا أعرفه.

كانت أكبر مني بعدّة سنوات، وكان نهداها صغيرين ولكن مترعين بالبضاضة، جامحان قليلاً، تدويرُهما، تحت بلوزتها الحرير، قائمٌ ومتوتر، أحدس بياضهما من نعومة جيدها المسطّح المتحدّر إليهما بانسياب.

وكنت أحبها، وأهرب منها، في وقت معاً.

سمعت الستّ أم رسمية تحكي لأمي أن البحّارة والقباطنة في الميناء كانوا يسمّونها «أم البحرية».

كانت أرملة قبطان شهير ـ رسمي بك ـ من أصل تركّي، كان قد تزوجها شيخاً وهي عيّله تقريباً، أنجب منها رسمية على الكبر، وسرعان ما مات عنها، وتركها فيما يبدو في فقر مدقع، لولا الستر، بعد نغنغة العزّ. وكان قد جاب البحار ـ فيما يُحكَى ـ وشارك وهو شاب ـ فيما يقال ـ في غزوات مشهودة.

وكان يزورهم في بيتهم شبان وشيوخ بالزّي البحّاري الأزرق المميّز، البنطلونات الواسعة من أسفل على شكل الجرس، والكاب، أو طاقية البحّارة البيضاء.

وكنت أستغرب قليلاً ـ ولكني فهمت ـ إذ تُقفل الشرفات والنوافذ بهدوء، حتىٰ في عزّ الصيف عندما يأتي البحارة، ثم تُفتح، بهدوء، بعد انصرافهم.

وفي فترة الإمتحانات، مايو أو يونيو من كل عام، كانت شقة الست أم رسميّة فجأة تغصّ بالستّات، تفتح كل الشبابيك والشرفات، تُوقد المجامر يصعد منها بخور اللبان والمستكة والصندل والكزبرة وتطقطق فيها حبّات عين العفريت.

ويدقّ الزار.

خَبْطُ الطبل الرتيب، ترداد الشعائر بصوت آليّ، عندنا ليلة، عندنا محضر، عندنا شيفار وأخته في الحضرة يحضر، عندنا أومنا وحومة في الميدان تحضر، عندنا شمع الليالي في وسطنا يحضر، الساعات تتوالى، والإبتهالات بنغمة مبحوحة متّصلة لا تتوقّف، والزار لا ينتهي.

أغلِقُ كل شبابيك البيت حتى يخفت الدقّ المتعاقب في مسامعي، أسقط في قبضة صداع لا يرحم، لا يشفع فيه الأسبرو "ي" كان قد نزل الأسواق حديثاً في وسط حملة إعلانية ضخمة في الصحف والمجلات، القلق يستبدّ بي، ويتصاعد كل لحظة إذ تفوتني مراجعة دروسي، والإمتحانات على الأبواب، يُخيَّل إليّ أنني نسيت كل شيء عن هذه الدروس التي أعرفها حقاً، أصوات الزار تقتحمني ـ مهما كانت مخفّفة ـ لها أصداء يُخيّل إليّ أنها تتضخّم باستمرار، لا تكفّ عن الدويّ.

الستات يتراقصن وتهتزّ جوارحهن المترعة أو النحيلة في ملابسهن فضفاضةً ملونةً حريرية طبقات شفّافة فوق أكسية من الساتان، هذا أعرفه، هذا رأيته، هذا لا تفارقني طيوفه.

ملاءة الحرير الهنديّ تلفّ الأجساد المترنّحة، مشغولة بالكنتير الفضيّ، تخشخش بالترتر الأصفر الوهّاج.

الأساور الفضية السميكة تصلصل بأجراس دقيقة رفيعة حول الأذرع المدملجة أو الضاوية التي تخبط الهواء بحركات سكرى.

البدلة البحّاري الزرقاء منبعجة عند الثديين تحت عباءة مزركشة بالقصب الأحمر، غدائر الشعر الأجعد المنكوش تحت الطرابيش الحمراء المكلّلة بحبات اللؤلؤ الصغيرة المدوّرة التي ترتطم بعضها ببعض دون صوت.

مَدَد مدد دستور يا سيادي ياهْل الله نظرة ياسيادي.

الخلاخيل في أسفل السيقان تتجاوب جلجلتها المكتومة مع دقّات الأقدام الحافية على الأرض.

الثوبُ السوداني الشفيف المفهاف يلفّ قاماتٍ متينة مدموكة ، أو ينسدل على قامات عظميّة تكاد تتخلّع أطرافها المتطوّحة .

الخنجر يخرج من غمده ، مصقولاً ، منذراً ، عريض الصفحة ، مقوّس السّنان ، تديره أصابع طويلة مشدودة مصبوغة الأظافر بالأحمر القاني .

شِيخْ مَحْضر يا شِيخْ مَحْضَرَ اللّي عليه عفريت يحضر .

يا عايقه وتعالي يا أمّ دميانه يا ساكنة البراري ، أمّ دميانه

يا بو قلم فَضّة والحبر زعفران والقُول على ماما يا ماما يا سلطان والشمع بات سهران ونَدَهْت السيِّدة زينب رئيسة الديوان يا شيّال الحُمول يا متولّي يا سِيدي المُرسي أبو العبّاس يا شافي العَيّان .

الطُرَحُ الملقاة على الأكتاف تستدير بالأعناق المتوتّرة الممدودة التي تهزج بالتراتيل المزجاة لسلاطين الجان ولأولياء الله الصالحين .

البُرْنُس العربي الأبيض سابغ كأنّه كثبان الصحراء على أجساد قوية سمراء .

العقود ، فضّة وذهب وقشرة ونحاس ، مرجان ولولي ومن قواقع البحر والكهرمان ، تهتزّ على الصدور الناهدة والمرتخية والجسيمة والرفيعة المشاكسة سواء ، إذ تتعرّى في حُمّيا الزار ثمّ تستخفي سراعاً وراء السُدُول .

شَلَغْ يَطَشْ إحّما جِيسا لا إله إلاّ هو الكبير المتعالي ضجّت الملائكة بالتسبيح والتقديس أجِبْ يا عُقاب الجبّارين يا نسر الأرضين اسمع الأمر أقسمت عليك بربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل انطقْ بحقّ من أنطقَ النملة لسليمان بن داوود عليهما السّلام أخرجْ أخرجْ من هذه الجثّة

من هذه العبدة أخرجُ من أيّ مكان إلاّ من العين أو من القلب أو من سرّة البطن بحقّ ما أتلوه عليك الآن الوّحا الوحا العَجَل الساعة بلا توانٍ .

على الأرض هِلْب مقلوب أشواكه المدبّبة الثلاثيّة الأطراف غليظة مرفوعة في الهواء مهدَّدة تنثال عليه أمواج النشوة غير المرئيّة .

رسميّة، أراها، في وسط الحلقة شعرها الأجعد القصير مشعّث مفكوك، قائمة العود. تمايل الغصن الأملود، وجموح الموسيقيّة الأنثويّة .

لم أقوَ قطّ على أن أفتح نافذة أو أُخرج إلى الشرفة عندما تأتي لحظة الذبْح ، يفرفر الديك الأسود أبو علامة بيضاء على رقبته، ويخور العجل اللباني بآخر حشرجة. تسيل الدماء تضمّخ الثياب والسّيقان والأذرع وتنحني الوجوه الفاغرة الثابتة الحَدَق تنهل منهم من دفق السّائل الحارّ القاني وتسقط السّتات ذبيحاتٍ لهنّ شخير الأحتضار الشبقيّ يغبن عن العالم لكي يُفقن بعد ذلك على وشّ الفجر، وقد صمتت خبطات الزار، شاحبات، مطهّرات، مضروبات ولكن هادئات.

الاسكندرية ١٦ يونيو سنة ١٩٤٢

عزيزي وفيق
تحيّة وسلاماً وبعد

أعتذر لك أوّلاً وقبل كلّ شيء عن تأخّري في الكتابة إليك حتّى الآن إنْ كان في الأمر تأخر أو عن إسراعي بالكتابة إليك الآن. . إن كان ثمّة إسراع!

والواقع أنّي الآن وبعد أن شعرت بالوحدة أغرق نفسي في نوبة فوّارة من النشاط المحموم المجنون.

بـدأتُ بكتابـة «جنون» وهـو كتاب يضمّ مجمـوعـة من سخـافـات «جنوني» وقد كنت فيها كتبت فيه حتىٰ الآن مجنـوناً حقّـاً. . إذ نفضت عن نفسي كل آثار العقل والتعقّل وانطلقت أكتب بلغة عجيبة جامحة متحرِّرة من كل القيود. . ألفاظها متطايـرة صاخبـة وألوانها وأطيـافها متمازجة غـريبة. . وفيهـا موسيقىٰ ثـائرة فيّاضة هـائمة منـطلقـة. . معربدة. . وفي نفس الوقت أكتب «أسطورة».

وما دام قدّر لك الا تقرأ «أسطورتي» (الآن على الأقـلّ). . فيحلو لي أن أكلّمك عن «الحب» و«الفن» وفانـلات وشرابات وكـرافتات. . وقمصان وخردوات. . إلخ. . وذلك عن طريق «الأسطورة». .

«الأسطورة» تدور حول شيء واحد: الخلق أو الإبداع

أمّا الخلق الإلهي. . فقد تعلّقت فيه بأذيـال التوراة. . وصغتهـا في ثوب فنّي. . ثم نفضت منها يدي وتراجعت منكمشاً!

وأمّـا الخلق البشريّ. . فقـد ركّزت القصـة كلها حـوله. . . وهـو بعبـارة واضحة يعبّر عن التسامي بـالحياة أو التـطور الـدائم والسعي المتّصل نحو الكمال. . والدور الرئيسي في الرواية يلعبه «إيروس» وهو كما تعرف إله الحب عند الإغريق.

«الحب» هو التسامي عن الحياة كما قلت لك مرة. . فهو قوة خالقة كقوة الفنّ. . والدين. . قوة تسمو بـالنفوس الحسّـاسة النبيلة تسـامياً غير محدود. . وتحـطّم أسوار الـزمان والمكـان. . وتُرْهِف القلوب حتى لتحيلها إلى «مرآة صـافية للوجـود كلّه بما فيـه من عظمـة لامتناهيـة» ولكنّ هنـاك نـوعـاً من الحبّ تصرّ أنت عـلى أن تسمّيــه «الغـريـزة الجنسيـة» فليكن وإن كان في الـواقع ليس مجـرّد غريـزة. . وإذا كـان النــاس كلهم يسمّــونــه الحبّ. . فليكن فليست الأســماء هي التي تهمّنـا. . وللحديث عن هـذا الحبّ أُرْجع بـك إلى يوم نـاقشتـك في

حديقة المدرسة.. وسوف أحاول أن أوجز ما قلته لك كما يلي:
«الحبّ» هنا ضرورة طبيعية للتطوّر وحفظ النوع البشري بين المرأة والرجل «العاديين» تتّحد لذة الفرد هنا بمنفعة النوع فهو إذن شيء لا أقول رفيع جداً إنما هو نافع ومفيد وضروري..

ليست المرأة هنا مجرد «وعاء للحمل الولادة» بل هي أرقى قليلاً إذ هناك عاطفة. هذا «الحب» العاديّ هو في بعض الأحيان الفرصة الوحيدة التي تسنح لكثير من الناس لكي يعرفوا أن لهم «أرواحاً» كما أن لهم أجساداً.. فهم في هذا الطور يحسّون بمجموعة صالحة من الأحاسيس والمشاعر من شوق وقلق.. ومتعة وألم نفساني.. ثم هناك شيء من تأمّل وتفكير.. هذا كله يُشْعِرهم أن هناك في الكون أشياء تُسمّى «العاطفة» و«الروح» و«الجمال»..

وقد يحدث في مثل هذا النوع تضحية وإنْ كانت تضحية رخيصة..

ويجب أن نعرف لهذا «الحب» فضله في هذه الناحية..

هذا الحب قوة خالقة أيضاً ولكن الخلق هنا ماديّ يتجسّد في صورة «النسل» فإذا ما نظرت إلى الأمر من وجهة عامة وجدت أن النسل يرقى دائماً ويتحسّن و«يتسامى» فالبشرية الآن أسمى بكثير من عهد ماقبل التاريخ.

أما ثالث أنواع الحبّ.. فهو الحبّ الأفلاطوني الحقيقي.. حبّ المُثل العليا.. أو حبّ الملائكة.. وهو شيء آخر بالمرة غير الحب بين المرأة والرجل.. فهو حب متبادل بين الإنسان.. و«المجرّدات» نعم المجّردات التي لا تتحقّق في مادة معيّنة، مثل الجمال.. والعلم.. أو الفن.. أو المَثل الأعلى..

من هنا ترى أننا نستطيع إدماج «الفنّ» و«الدين» تحت اسم

«الحبّ». . هذا النوع نلمسه في حياة أفلاطون وسبينوزا وكانْت. . وبيتهوفن. . وشيلي. . وفي حياة المسيح أيضاً. . وحياة الشهداء. .

في هذا الحب لا تجد امرأة معيَّنة. . وإنما تجد معنىً مجرداً عن المادة إطلاقاً. .

هناك «طيف امرأة». . هناك فكرة وصورة جَسَّدها خيال الفنّان. . ثمّ أحبّها بينما هي تَبْعُد عن الواقع بُعداً كبيراً. . لم يحبّ دانتي بياتريس. . لأنه لم يلقها إلا مرّتين. . ولم يحدّثها إطلاقاً فكيف يحبّها!. . إنما هو أحبّ صورة بياتريس متمثّلة في ذهنه الخصب. . أحبّ تمثالاً رائعاً بديعاً. . كما قال ناجي:

أهوى تُرابَ الأرضِ ثمْ
ـتزجاً بألوانِ السّما!

والأديان العظيمة كلها إنْ هي إلا صدىً عميق للحبّ بين «الإنسان». . و«الله». من هذا يمكننا أن نفهم قول المسيح «الله محبة». . نعم إن الحياة كلها ليست إلا حبّاً واحداً عظيماً متّسقاً لامتناهي الجمال. . الحياة حب. .

صديقي العزيز. .

هناك ناحية شخصية بقيت. . في الأمر. .

إنني أشعر أنني مذنب بالنسبة إليك. . وأودّ أن أعترف. .

هل تذكر يوم أن ذهبنا إلى «الشاطبي» في الشتاء. . وجلسنا في ظلال أحد الأكواخ القائمة على الرمال. . ثم اندفعت أنت تقصّ عليّ قصتك الرائعة. . بصوت متهدّج وأعين محترقة. . وهل تعرف أنني حينما كنت أصغي إليك. . إذا بالدموع تصعد فجأة إلى عينيّ فأشحت بوجهي. . وإن ظلّت نفسي ترفرف، وتخفق على أنغام هذا

الحبّ الرفيع.. كأنما لتحرس هذه الظلال النبيلة.. نعم.. تماماً كما يحدث حينما أقرأ تحفة من روائع الفن الصافي.. أشعر بمثل هذه الدموع ولكن.. بعدها.. لكم سخرت منك.. ولكم هزأت بحبّك.. لم يكن ذلك إلا لإخفاء مثل هذه الدموع.. ولم يصدر قطّ عن قلب ساخر هازىء.. والآن.. بعد أن نفضت عن كاهلي هذا العبء يمكن أن نتحدّث بهدوء».

كنا قد أجّرنا شقتنافي شارع الباشا، كليوباترا الحمامات، لعائلة مصيّفين صعايدة جاءوا من المنيا، وذهبنا في شهر أغسطس إلى غرفتين وصالة مفتوحة في الدور الأرضي من عمارة الست أم رسميّة، وكانت مازالت تُبنىٰ بعد، على الكورنيش في سبورتنج.

في الغرفتين ماء وكهرباء، ولكن الحيطان على المَحَارة، كانت الصالة وحدها مظلمة، غير مبنيّة، موحشة بالليل والنهار، تقوم حولها حيطان العمارة العالية وبينها سقالات خشبية وكَمَرات حديد وعوارض وعلى الأرض تلال صغيرة من الزلط والدبش والرمل والطوب الأحمر. كان البناء متوقّفاً - بسبب الفلوس طبعاً - وأعطتنا الست أم رسميّة الغرفتين، هذا الشهر، بلاش.

كانت تزورنا بعد أن عزّلنا من راغب باشا بسنين، هي وبنتها.

على نور مُخايل مُراوغ من قطعة السماء الليلية المحجوزة بين الحيطان القائمة، وفوق تشابيك الخشب والحديد المتقاطعة كان وقع الشِكِرْبينة السوداء في القدمين - لها شريط ذهبي اللون مشغول - على رصيف الكورنيش - له صدىٰ، سرعان ما تُغيّبه الرمال المكوّمة في مدخل العمارة المفتوح.

وَشْوَشَةُ موج البحر من بعيد عَبْر الكورنيش الذي نسمع عليه فَحّة عجلات السيارات تمرق بسرعة وتغيب، وتتعاقب، في ترداد آليّ كأنه

مطلوب، ومضات أنوارها يسطع لها انعكاسٌ سريع في عتمة الإستغراق في سُكْر الحواس.

أنهلُ من كأسي المترعة باللحم الأبيض، مفتوحةً عن نصف قُبة تفيض بالبضاضة اللدنة من حافة الدانتيلا السوداء التي تحبك الأستدارة اللينة. واللؤلؤة الصغيرة تومض في الوهدة بين الكأسينْ المليئتينْ.

ليس من كلمات. لا ضرورة لها.

صامتة. ليس إلا الأنفاس الحارّة المتلاحقة وأعين مشتعلة.

مَتَاعٌ صِرف، مشعشعة، مُشعّة في عتمة السرّ. متعة وليست شيئاً.

القميص النصفي الأحمر الحرير بالحمالات الرفيعة على كتفين ممشوقتين جِلدهما أملس ليس فيه أدنىٰ ترهُّل.

غمْوة الشعر الأكرت جدائله منفوشة حول وجهي ملمسها كثيف.

حَبَاب الكأس يتحيّر في روحي.

بين الذراع المحيطة بي، وجانب الصدر الذي يتلقّى وجهي، أثارةٌ خفيفة من نعومةٍ مصنوعة مجلوية مختلفة عن نعومة البشرة الحميمة.

نبضات إيقاع الموسيقية النسوية، متعاقبة.

سمعت في سَوْرة الخمر الخاصة نداءاً، قريباً جداً، من الجانب الآخر للعمارة على الكورنيش، كأنّه معنا: «لوتريّا.. المواساة.. لوتريّا».

عذبة مُرّة في وقت معاً.

بيت الشهوات المحبّات في سبورتنج بيت الرعب الطفلي في غيط العنب.

الباب الحديدي الضخم موارب، بينه وبين حجر الحائط الضخم فجوة لا أكاد أنفذ منها إلى باحة الأنقاض، أكوام من التراب الذي تصلّب وانعقد وجفّ، نفايات السنين، العُلَب المطبقة الصدئة، كيف أُلقيت هنا؟ قصاصات الورق مرميّة، بلا حراك، في الهواء الراكد، صفايح وحدايد وأسياخ متآكلة يبريها ويُبليها القدم، ريش الطيور المنزوع وقد تقبّض وخفّ وبقايا مصارينها اليابسة المقدّدة، وقشر البطيخ المصفرّ الجاف، وتراب معلّق له عطن نفّاذ حِرّيف، كان السقف هنا أيضاً مفتوحاً، مهدّماً، سقط بعد سنين، بُني من زمان، وتفوّض، السماء المحجوزة هنا، فوق، نهاريّة صافية الزرقة بعيدة، وليست ليلية مُخايلة فوق تَوَاشُجِ خشب السقالات المتصاعدة المحزّزة.

نور شمس العصر ينفذ من السقف المفتوح يَعْلَق بأعمدةٍ مائلة متطايرة من هَبْو تُراب دقيق، مضيئةً بذَرُور لا عداد له من غبار متموج ببطء في قبضة أعمدة النور، بين أنقاض الحيطان الداخلية.

أُمرق بسرعة من فوق أكوام الحجر والنفايات الصلبة، أتفادى بخفّة شِبّاك خيوط العنكبوت الضخمة، رقيقةً ومشعّة من الشمس ومحمّلةً بحبيبات التراب التي تبدو فضيّة.

أخرجُ - أخيراً - من فتحةٍ عاليه قليلاً عن الأرض، على الجانب الآخر.

هأنذا - أخيراً - في شارع ترعة المحمودية، وقد اختصرتُ لفّة طويلة من شارع الكروم إلى شارع الترام وتفاديت الدوران حول القهوة الزجاجية على قمة الشارع ولكن فاتتني نظرةٌ مسحورة إلى تعريشة العنب تتدلّى فروعها وأوراقها الفضّة وبينها العناقيد التي تستوي على مهل تحتجز عصارتها الغنيّة تحت جِلْد الحَبّات السُمْر

المُغَـوِية، متـدلِّيَةً عـلى ألواح زجـاج القهوة المفصَّـل مربّعـات، بضوء بأشعة الشمس في العصر.

هل خرجتُ من البيت المهدوم، هنا أو هناك؟

أم لا طريق للرجوع، عيـون النوافـذ المسدودة تحـدِّق إليّ، سوداء بلا حَدَق ولا بصر. والصرخة المحبوسة لا تنطلق. أريدها أن تنفجـر في هذا العالم المهـدّم ـ أو الذي يُبْنىٰ ـ أريـدها أن تـدويّ فتنسف هذه الأحجار وهذه الجدران الساقـطة أو الصاعـدة سواء، وتتـطاير بهـا في سهلٍ فسيح يغمره ضوء الليل الخافت المفتوح على البحر.

هل انفجرتْ هذه الصرخة، مَرّةً بعد مرة، بلا انتهاء؟

وهل انتُسِفتْ أنقاض الجدران أم هي مازالت رازحة على الصدر، لا تريم؟

«عزيزي

ومـادمنا نتكلّم عن أغـاني الحبّ فإنني أهـديك قصيـدة متـواضعـة كتبتها في هذا الصدد.. وأرجو أن أسمع رأيك فيها:

أيها القلب.. لتتصاعدْ نفثاتك النافحة عطراً..

ولتَذُبْ.. لتتحولْ إلى بخورٍ محترق..

ولترسلْ أيها الرماد السحريّ.. تحت أقدامها

عطورَك الناغمة بأناشيد الهوى..

ولتتموّج حول غلائل عذرائك العاشقة..

ولتُنصِتْ إلى همساتها.. وزفيـ ها الُلتاع

وعندما تشرد خواطرها.. كالظِباء العاجيّة اللون..

تمرح تحت أقدام الطيف المحبوب..

عندئذٍ فلتتسللْ أيها الرماد السحري.

يا رماد الآلهة..

ولتتساقطْ فوق نيران فؤادها

ولكنْ.. لكي تزيدَها اشتعالاً وضِراماً..

ولتنمْ أيها الزفير الناغم.. في ثنايا صدرها الخافق..

ولتهجعْ في سكون.. بين همسات وجدانها الخفيّة..

ولتخرجْ أنفاسُك الحارة.. كمجامر في معبد هنديّ غريب..

ولتعزفْ في أعماق قلبها المضطرب..

نغمات الحنين المجهول.. والرغبات الغامضة..

نغمات الطبيعة الجائعة..

وموسيقىٰ الأحلام التي لن تتحقّق

والأوهام العابرة الجميلة.. التي تشبه عرائس الماء..

موسيقىٰ الخواطر المضطجعة في أبراجها البلّورية الشامخة..

المنيرة أبداً في ظلمة ليلٍ طويل..

الموسيقىٰ التي تشبه نظرة هادئة.. تتراقص في عين واسعة..

ثم تختفي سريعاً تحت ظلال الجفون..

ولتتشنَّ.. أيها الرماد العاطر المسحور..

في أغوار عينيْها البعيدتينْ.. كما تتثنّى ألسنة اللهب في بركان..

ثم لتتساقطْ هادئاً في سكون..

قطراتٍ من مياه صافية..

هي الدموع

(هذه القصيدة من أغنيات «الأسطورة»).

عزيزي

أمّا عن برنامجي.. فهو إلى الآن لم يستقرّ.. على أنني في مدى أسبوعين سوف أذهب إلي «الطرّانة» سوف أبقى هناك حتى تظهر النتيجة ثم أذهب إلى الإسماعيلية في يوليو القادم وأرجو أن نتقابل هناك.. ولا تنسَ أن تخبرني بأحوال الترعة الحمراء.

أما العنوان فهو: ٣١ شارع بحري بك، أمام كوم الناضورة، الاسكندرية.

وأخيراً أطيب تمنياتي وتحياتي وشوقي..

المخلص

!.....

طبق الأصل، مع الاختصار غير المخلّ، فيما أرجو، بعد ٥٢ عاماً.

«أسطورة» طفليّة لا قدرة لها على التحليق، تغرق، جناحاها • فميسان في حمأة شهواتٍ معترف بها ومنكورة في آن.

لا تريد أن تختفي.

«الاسكندرية في ١٩٥٧/٨/٢١ (بعد كم سنة؟)» هل كان هذا آخر خطاب؟

عزيزي..

تسلّمت الدعوة التى أرسلتها إليّ بعد موعد المحاضرة وأسفت

لـذلك لأنني كنت أودّ مقـابلتك. فقـد كنت في القـاهـرة يـوم ١٠/٨ وبحثت عنك في كل مكان فلم أجدك. وكل مكان هذه تعني المقاهي والأزقّـة ومخازن الكتب الصفـراء ولم أستـطع أن أستـدلّ عـلى عنـوان عملك المبجّل.

لـذلـك أرجـو أن تتصـل بي إذا كنت في الإسكنـدريـة قـريبـاً. والموضوع أنني عـلى وشك تعـطّل. صحيح والله. وأقـوم الآن بعملية «مسح للسوق» وأريـد ان اسألـك رأيك في بعض possibilities التي تعرض أو تعّن لي. فالحقيقـة أنني أمرّ الآن بفـترة قلق مزعـج. وأريد من كـل قلبي تغيير نمط الحيـاة التي عشتها طـوال السنوات المـاضية. ولكنني مقيّد بمطالب العائلة المهولة. ولعلّه يسعدك أن تعلم أن الطفل الخامس في الطريق! ماعلينا. المهمّ أنّه تخطر لي خواطر جنونية. كـأن أعمل في الصحافة مثلاً! وأشياء من هذا القبيـل. ويبدو عـلى أيّة حـال، أنني سأضطرّ إلى الإنتقال إلى القاهرة جرياً وراء الرزق الحلال!

ويهمّني أن أعرف رأيك الـراجح، أقصـد المهوّش، في بعض هـذه الهلوسات.

وفي انتظار ردّك أرجو ألا تكون قد تزوجتَ بعد.

وفيق

العنوان: ١٧ شارع فوستر (فيلا)، سيدي جابر - رمل الاسكندرية»

فيلاّ شارع فوستر، تحت خط سكة حديد سيدي جـابر، هـل هي جارسونيرة الشلّة، ليست شقة العائلة؟

من النافذة، وأنا أشرب كوب الشاي ماسخ الطعم قليلاً، وأحسّ أنني لست مـوضع تـرحيب، أرى قطار أبـو قـير يـدقـدق ويـهتزّ عـلى

القضبـان خارجـاً من المحـطة يستجمـع طـاقـة متصـاعـدة، بصخب متصاعد، حتى أسمع وقفته، هامداً، يفحّ ببخاره المهـدور على محطّة الحضرة.

كنت قـد جئت من القاهـرة، فترة نهايـة الأسبـوع فقط، وقـرّرت فجـأة أن أرى صـديق رواق الصبـا القـديم الحميم، وزرتـه في تلك الڤيلاّ التي لا أعرف الآن أين موقعها.

وفيق فتح لي الباب، فوجيء بزيارتي غير المنتـظرة، وكان بالفانلّـة وبنطلون بيجاما مخطّط، منفوش الشعر منتفخ العينين، وخُيِّـل إليّ أن في غـرفة النـوم الداخليـة أحداً، امـرأة في الغالب. لكنـه لم يقـل لي شيئاً، ولم يلّح على أن أبقىٰ، عندما هممت بالقيام.

جـاء قطار مصر منـطلقاً لا يلوي عـلى شيء أشَمّ، رافع الصـدر، يهدر بعزم قويّ.

سمعت عن عربدات هذه الڤيلاّ. حكاها لي وفيق في ساعة رَوَقان ومرارة، وسمعت طرفـاً من أبطالهـا شخوصهـا دُماهـا: أحمد صبـري الـرسّام، صـديقي بلكنته الـتركية الفـرنسية ومصريتـه الأرستقراطيـة البوهيميّة. معاً، كأنّه من عالم آخر وإنْ كان ابن بلد، من هنا، جدّاً. وفوزي المُرّ ساكن شارع الاسكندراني قديماً، مدرّس الإنجليـزي الذي عـانى صدره بما تصوّر أنه اضطهاد منظّم لـه ـ في ظل الثـورة ـ وتحقير مضمَر حيناً وسافر أحياناً لعقيدته وأقلّيتـه، فهاجـر إلى كندا، وتبنّـاها وطناً، على الكِبَر، وكان يـدافع، بحـرارة أكثر من اللزوم قليـلاً، عن «ديمقـراطيتنا في كنـدا» ومـات هنـاك. ثم إيهـاب الحضري الضخم، أسمر داكن الوجه ملامحـه خشنة قـاطعة الحـدود وإنْ كان فيهـا سحر حيويةٍ دافقة وخفّة دم لايَنال منها شيء.

حكىٰ لي وفيق حكايات عن ڤيلّا الشلّة، بلامبالاة، وزارية وسُخرية عاتية اصطنعَها حتى استحالت فطرةً وسجيّة ثابتة.

كيف كانت النسوان - وحتى بنات الكلية وخريجات الفلسفة والإنجليزي - يأتين إلى الڤيلّا، وحدهُن أو جماعات، الهاويات والمحترفات على السواء.

تُقفل النوافذ التي تطلّ على شارع - أو ممرّ - مهجور تحت خط السكة الحديد، وتُضاء الأنوار الحمراء - حتى في عزّ النهار - حسب أصول العربدة الموصوفة. وبالفعل كانت هناك في الفَسْحة الواسعة المفروشة بسجاجيد قديمة ولكن فيها آثارة العزّ، نجفة مصابيحها القوية مصبوغة بالأحمر الكامد، واضح أنه من ألوان أحمد صبري وأنه صبغها بنفسه.

الضوء الأحمر - حسب المجرَّب المأثور - يهيّج معاشق الأجسام المقهورة التوّاقة للجُموح، مع براندي چناكليس الفاخر الباذخ المذاق - الزجاجة كانت بـ ٣٥ قرشاً، غالية، لكن تستاهل - في سطوته تتصاعد سورات النشوة والاستهتار وضَرْب الدنيا بالجزمة، تدفعهم إلى استغراق الحواس في سهادير الهَوَس، غضباً لا متعة، ورفضاً للإنصياع والامتثال.

من حكاياته أن ضفيّة بدر العرب - خريجة الفرنساوي - كانت بعد أن تشرب وتنال حظّها من اللعب، تنام على بطنها، تحت النور الأحمر، وكان أحمد صبري يرسم رسومات شبقية على ظهرها وردفيها بفرشاة رفيعة، بينما وفيق يتلو عليها الأشعار الماجنة، موزونة مقفّاة، بالإنجليزي، لا يكاد أحد يسمعه في وسط الضحك والصخب

المستميت، فوزي المرّ مستلقٍ على ظهره كأنه ليس هناك يحدّق في السقف أو في بواطن خفيّة حتى عنه، بينما إيهاب يرقص حول الجثة الممدودة المرسومة رقصة الهنود الحمر ويطلق - ضروري - صيحاتهم في أفلام هوليوود.

كلهّم بعد ذلك أصبحوا محترمين - فيما عدا أحمد صبري الذي عاش ومات عبقرياً - تزوجتْ صفيّة بأستاذ مصري يدرّس الفلسفة بالفرنسية في طولوز، وانفصلت عنه بالطلاق، بعد لأي، وبعد أزمات عقلية عصبية - دخلت المصحّة وأُجْرَت التحليل النفسي اللازم، وكُلّه - وبعد ولد وبنت أصبحا - طبعاً - فرنسيينْ لا علاقة لهما بمصر، إلا علاقة عاطفية غامضة وحنين ربّته فيهما الثقافة الفرنسية، وربما دماءٌ عريقة، من يعرف؟

قال لي وفيق إن شغلتهم أساساً كانت اصطياد النسوان واستدراجهنّ إلى أحابيل النسيان. هكذا قال.

أين هذا من حكاية كأنّها تماماً من أحابيل أفلام هوليوود في الأربعينات، عن ضوء القمر الفضيّ ونور مصابيح الكورنيش البنفسجيّ الهادىء - في ١٩٤١ - على أمواج سيدي بشر الحالمة المترافصة بزبدها الأبيض، نجوى الحبّ الطاهر، وأحلام الجزيرة النائية الخالية ليس فيها إلا الحبيبان، كأنّها الجزيرة المسحورة التي تحيا فيها - في عتمة صالة السينما، لمدة ١٠٠ دقيقة - حوريات مثل دوروثي لامور أو دلوريس دلريو، مكلّلات بعقود أثيثة من الزهور الإستوائية الضخمة، صفراء ساطعة وحمراء ناصعة تلتّف بالجيد وتنزل على الصدر تُخفيه - هل كانت الصدور عارية؟ - والجونلة ضافية، حتى الأقدام الحافية، مصنوعة بحذق من جدائل رفيعة

مضفورة من سعف نخل الجوز الهندي. الرومانتيكية كان قد عفا عليها الزمن، بسرعة.

تزحف صفيّة بدر العرب على بطنهافي دفء الشهوات الفاخر، ويزحف ما أراه هذه الأيام - مَنْ أراه؟ - على قدميه ويديه، كالحيوان، في شوارع الزمالك، هائش اللحية والشعر المترب الأملح، جلبابه الواسع لا لون له يسقط على جسمه في الشارع. (أتصوّره غير قادر على أن يقيم عوده، من الشيخوخة أو من مرض لا أعرفه) يرفع إليّ عينين لا أطيق نظرة الحيوان الإنسانيّ فيهما: الذلّة والتمرّد والتضرّع ونهاية اليأس على حافة أملٍ غير عاقل، مَن هو؟ ولماذا هنا؟ حرية الزحف على أرض الشارع بين السيارات التي تتفاداه والسيارات المركونة على الجانبين، أهي خيرٌ عنده من سجن دار المسنّين أو المستشفىْ الحكومي الرثّ المهين؟ الزحف على اليدين والقدمين في سورة الشبق أو سورة الإنسحاق، من أجل حريةٍ موهومة، أم لعلّها الوحيدة الحقيقية؟

(بدون تاريخ، وبالقلم الرصاص)

«عزيزي..

لعلّك الآن.. أو منذ عدّة أيام مضت.. تمطّ شفتك السفلىْ في هدوء فلسفي.. وتفكّر متأملاً.. أن الصداقة شيء لا وجود له إلا متىْ وجدت الحاجة إليه.. ونستطيع أن نبرهن على ذلك بالقضيّة التي بين يدينا الآن.. وهي حالة «صديق فَرْضاً» كان يتكلّف هذه العاطفة مادام في حاجة إلى استثمارها لفائدته من جميع النواحي.. كالاحتيال غير الشريف مثلاً.. والاحتيال الأدبي.. والاحتيال الفلسفي.. (إوْعَ سامي يشوف الجواب ده)! ولكنّه بمجرّد أن انتهت حاجته إلى فوائد التظاهر بهذه العاطفة بانتقاله إلى جوٍّ آخر.. كفّ

عن هذا التظاهر، ممّا يثبت صحّة القضيّة التي بين يدينا. .

هذا ما يُخيَّل إليّ أنك تفكر فيه الآن يا حضرة الفلفوس المحترم. . ولكنك مخطىء إذا تخيّلت ذلك لأن خطابك لم يصلني إلا أمس. . وأرجو قبل أن تسمع الشرح التالي أن تُسقط من حسابك عبقرية أكاذيبي المشهورة!

لقد أرسلتَ خطابك إلى صفط في يوم ١٦ أو ١٧ الماضي أليس كذلك؟ حسناً! إني تركت صفط إلى السويس العامرة يوم ١٤ تماماً، وعلى ذلك لم أستلم خطابك وطبعاً أنت أعلم مني بعقول الصعايدة. . وتبعاً لهذا العلم تستطيع أن تستنتج دون عناء أنّ. . أهلي في صفط لم يهتمّوا بإرسال الخطاب لي إلى السويس. وكنت أنا واثقاً أنك أرسلتَ لي خلال هذه المدة فأرسلتُ لهم خطاباً أطلب فيه تحويل خطابك إليّ. . هل تعلم ماذا كان الردّ؟ «ولماذا نرسل لك الخطاب. أتنوي أن تمكث في السويس أكثر من ذلك»؟. . فأجبت أنني حرّ أن أبقىٰ في الجحيم حتى إلى مالانهاية. . ومالْهُمْش دعوة بسّ يبعتوا الجواب!.

وبعد أخذ وردّ كالمراسلات المصلحية تماماً تمّ إرسال الخطاب المسكين مع وافر من الشتائم على عدم الطاعة والجحود. . إلخ.

وهأنذا بمجرد وصول خطابك أُسرع بالردّ عليك. . والواقع أنني أعترف بأنانية غير مباشرة بإسراعي بهذا الرد. . فإنني قبل أن أهتمّ بالرد عليك سريعاً لأجل نفسك، أُسرع في ذلك لأنني أشعر بحاجة شديدة للكتابة إليك ياصديقي. . وأنت لا تجهل هذا النوع من الأنانية بدون شك. والواقع أنك صعبان عليّ.

. . .

عزيزي . وصديقي المحبوب . .

. . ليس هناك ماهو أشد إيلاماً للنفس الحسّاسة من أن تكتشف أشياء لم تكن تودّ رؤيتها في يوم من الأيام . . هناك بعض النفوس . . لا تهتمّ كثيراً ولا تتأثر بما تصدمها به الحياة من صدمات متتالية ، فهي تتقبّلها خضوع حيوانيّ ساكن . . وأذكر أنك في خطاب من خطاباتك الماضية ذكرت لي مثلاً شبيهاً بذلك ، هو «حمار السبخ» . .

أما تلك النفوس الحسّاسة اللعينة المجنونة . . فإنها تثور لأقلّ شيء ، ويؤلمها أقلّ شيء وتوجعها أتفه الأشياء! أليس كذلك ياعزيزي؟

لست أدري ـ ولا أهتمّ ـ إذا كنت أكتب كلاماً معقولاً أم لا ـ فما يهمّ هو أنني بهذا الكلام لا أفعل أكثر من التعبير عن مشاعري الحالية . بكل بساطة وهدوء .

. . اسمع ياصديقي ! يُخيّل إليّ أنني بسبيل أن أُفضي إليك بأشياء قد تدهشك وقد أكون متسرّعاً في الإفضاء بها ، فقد أكتشف فيما بعد خطأي فيها . . فأندم . . ولكنّ ذلك لا يهمّ مادمتُ بهذا الكلام أسرّي عن نفسي . . بذكر هذه الأشياء ، التي تؤلمني . . في قلبي . . قسوة غريبة . . يخالطها ـ وتَصوّرْ الجنون ـ شيءٌ من اللذّة الغريبة الخافتة! إنني مجنون ياصديقي . . ولم أَنَمْ أكثر من ساعتين ليلة أمس! .

. . .

لست أذكر لمن قرأت مرة وصفاً دقيقاً يشبه حالتي الآن تمام الشبه ، وصف إنسان محموم يتنقّل دون انقطاع في فراشه باحثاً عن مكان رطب قليلاً يخفّف فيه حدّة آلامه . . ولكنه لا يجد أبداً . . إذ ينسىٰ أنه أينما ذهب . . ينقل معه الحمّىٰ التي يهرب منها . أظنّني أذكر ذلك في قصة فرتر التعس ، نعم . . تماماً .

هذه هي حالتي تماماً ياصديقي.. إنني أهرب من الحمّى القاتلة التي تهرأ نفسي بقسوة مخيفة. إنني شبه عليل مذعور يهرب من دائه.. وهو في كيانه، محاولاً أن يعالج نفسه، وأن يخفّف آلامه أو يتناساها!.

آه ياصديقي لو أستطيع أن أعبّر لك تعبيراً كاملاً عمّا في نفسي.. ولكن!. ألا تذكر كلمة جبران.. وكيف وصف الكلام بأنه ولو كان ذهباً.. فهو سلاسل وقيود! إنني أتألم في عنف إذ أجد نفسي عاجزاً عجزاً غريباً عن تصوير أشياء أحسّها تملأ حياتي.. وتندلع فيها لهباً وضراماً.

ألأنّ كل هذا الذي أشعر به بعيد عمّا يشعر به البشر وعمّا يحسّونه؟.. ألأنّ هذا غريب عنهم وبعيد عن دنياهم؟.. ألهذا لا أجد في لغتهم اللعينة.. وحروفها الصمّاء العجماء.. ما يُعبّر عن أصطخاب الريح الدامية التي تزأر وتثور في أعماقي؟.

.. بي رغبة أليمة في البكاء ياصديقي.. ولكنّ هذه الرغبة ذاتها تبعث فيّ شعوراً عميقاً بكراهية لا حدود لها.. وحقد عميق مخيف.. والمُصاب.. أنني لا أعرف إلى أين تتّجه هذه الكراهية أو إلى أين يندفع هذا الحقد الأسود المجنون.. لا جهة معينة.. ولا مصدر معروف.. إنها شبه شيء مخيف ثائر مهول يندفع في كل اتجاه وكل مكان ياصديقي.. دون أن يذهب إلى أيّ اتجاه أو أيّ مكان، دون أن يتوقّف لحظة أو يستقرّ ثانية.. وهو في أثناء هذا كلّه.. لا يني عن نزيف ممتدّ وزئير مخيف.. محطّماً.. مدمّراً متّقداً.

.. إنها حالة مخيفة ياصديقي.. يُخيّل إليّ أنك مُتعجّب.. دهش ولكنْ.. إنّني مثلك تماماً إنْ كنتَ كذلك أيها العزيز!..

...

إنني أجّن ياصديقي . . لماذا أتألم هكذا؟ ولأيّ غرض أو سبب؟

لست أدري لماذا ترتسم أمام عينيَّ الآن كأنما بحروف من دم ونـار كلمات ناجي المخيفة :

« اطْحـني يـا سِـنين
مَـزِّقـي يـا جِـرابْ»
«كـلُّ بـرقٍ يَـبـينْ
وامضٌ كسرابْ»!

. . .

يا إلهي . . إنّ صوراً بشعة تراود ذهني ليلَ نهارَ . . وأشكالاً مخيفـة لانهايـة لهـا ولا حَصْر لا تني عن تمـزيق خيالي المتّقـد، بـأسنّتهـا الدامية . .

ويُخيَّل اليَّ أحياناً انني أعمىٰ . . محترق . . نعم . . تمـاماً . . تصوَّر إنساناً أعمىٰ . . وهـو يشتعل بلهب هـائل لا ينـطفىء يبعث فيه كـل مايمكن أن تتصوُّره الأبالسة من عذاب . .

هـذا الأعمىٰ . . يسير مترنّحاً . . متعثّراً . . وقـد أحـرقت النـار جفـونه المُغْمَضَـة . . وقد فـرد ذراعيه المحـترقتين كـأنّما يتسـانـد عـلى الهـواء . . . وقـد انسلخت من جسـده المحـترق شرائـح من اللحم المحترق أخذت تنضح دماً . . وناراً .

أهي النهاية يا صديقي؟ لماذا تنفجّر هـذه الصور المخيفـة في مخيّلتي بهـذا الشكل الـرهيب؟؟ . لقـد كنت أحسّ منـذ زمن طـويـل بشيء غامض لا أدري كُنْهَه . . كنت أحسّ أحياناً بأنني ميّت بارد متعفّن . . وأحيـاناً أحسّ بـأنني تحت رداء الموت البـارد هـذا أحـترق في سكـون مخيف . . ولكني لم أكن أدري أو أتصـوَّر كُنْـهَ مشـاعـري حينـذاك . .

فهل هذه المشاعر التي كانت غامضة عليَّ في وقتٍ ما هي هذه الأشباح المخيفة التي تقتلني الآن رويداً؟.

لست أدري أأشكر الرّب أم ألعن قَدَري إذ أزاح ذلك الغطاء!..

...

ما هذا ياصديقي؟ لماذا نعيش؟. هل هناك حقّاً أبديّة؟. وإذا كان، فأيّ معنىً هناك لحياتنا هذه؟. لست أدري. ولست أهتّم كثيراً.

كم أنا بعيد. مُقصىً. مَنْفِيّ. سجين!. أتفهمني أنت على الأقلّ ياصديقي° ولكن!! لا ياصديقي!. لا تفهم شيئاً.. لست أطلب منك ذلك لأنني لا أفهم أنا نفسي شيئاً.. إنّني لا أفهم شيئاً على الإطلاق. ولن أفهم.. أبداً. أبداً...

.. إن بعض الدموع تجول في عينيّ.. ولكني أسرع بتجفيفها بوحشية غريبة.

لماذا أطلب من الناس أن يفهموني ياصديقي. مادمتُ أنا لاأفهم شيئاً. ولاأرى شيئاً على الإطلاق؟..

.. أفكّر في الإنتحار كثيراً.. ولكن هل أنوي أن أنتحر حقّاً؟.

.. أذكر كلمات «هاريت شِلي» إذ تقول.. «فكّرت في الإنتحار كثيراً بإلحاح.. وكثيراً ما كنت أستيقظ في صميم الليل.. وفي نفسي غصة أليمة وتصميم عميق على الموت.. فأنظر خلال النافذة إلى الكون وجمال الليل فأودّعهما ببعض الدموع.. ثم أتلفّت حولي مودِّعة الفتيات النائمات، بألَم.. وبعد ذلك.. أذهب إلى فراشي كي أنام إلى الصباح»!..

.. هل ترىٰ معنىً هذا؟

إنني أكره الناس جميعاً بحدّةٍ وجنون. .

هناك إنسان واحد يُخيَّل إليّ أنني أحبّه.

ولكنّ الغريب أنني أشعر نحوه بسبب هذا الحبّ بـالكراهيـة ذاتها وبالحقد نفسه. . إن نفسي مُسمَّمة.

يقولون إنّ الألم يصهر النفوس ويُطهِّرها. .

فما له لم يبعث في نفسي غير السموم؟.

إنني كنت مجنوناً ولقد بنيت شيئاً هائلاً. وها هو ذا يسحقني.

أتذْكُر قصّة ذلك الطبيب الذي خلق مسخـاً؟ وأحيا ميتـاً. . قصّة «فرانكشتين» أتذْكُر كيف انطلق هذا الوحش في أثر من خلقه فحطّمه وسَحَقَه سحقاً. . يُخيَّل إليّ أنني كذلك خلقت وحشاً.

وأن هذا الوحش ينطلق في أعقابي. . إنني طريد.

أفهمتَ شيئاً ياصديقي؟.

خيرٌ ألا تفهم. . ولكني بالرغم من ذلك أنتظر منك. . بل أتوسّـل إليك أن تتكلّم. وألاّ تؤلمني ياصـديقي، ولو دفعـك هذا إلى الكـذب عليّ.

نعم لا تُؤْلمني. . فكفـاني نفسي. . وكفاني خيـالي. . وكفاني ليـاليّ الطِّوال.

. . .

أين أنت الآن ياصديقي؟

إنني في حاجة مخيفة إليك ياصديقي المحبوب.

إنني في حـاجـة إليـك أيهـا المـلاك الهـادىء النقيّ البسيط النفس والقلب.

يـاإلهي . . كم يُخيَّـل إليّ أنني طفــل صغـير يحبــو . . وأنـك لي أب حنون! عطوف!

وكم أشعر بلذة غريبة لمجرد هذا الشعور.

تذكَّر ياصديقي . . إنني خلقت وحشاً وهو يقتلني الآن رويداً فإياك أن تخلق أنت شيئـاً . . فلتَمُتْ بسكـون . . بعيـداً . . في صحـرائــك الجميلة المادئة بوحشتها . »

من يجـرؤ أن يكتب الآن بهذه الحـرقة الـدفْق غير المحكـوم ، بهذه العاطفيّة التي لا تخجل من نفسها؟ ومن يستطيع ؟

الآن؟ في عصر ثورة المعلومات والتكنـولوجيـا العاليـة ، في القريـة الكـونيـة الـواحـدة ، في عصر الأقـمار الصنـاعيـة ، في عصر مـا بعـد الإمبريالية ، مابعد الصناعة ، ما بعد الحداثة ، مابعـد الحرب البـاردة ، مابعد التوازن النووي ، مابعد تفكُّك الإمبراطورية الســوفييتية ، كـأنّما هو عصر مابعد الحياة نفسها.

ولماذا ندين هذه الكتابة ـ أو ننظر إليها من علٍ ؟ ألأنّنـا نخشاهـا ، أو نتوجّس من وخيم عقابيلها؟ .

ما شأن ذلك كله بأيّ شيء؟

وكيف أستطيع أنا أن أبعث هذه «الوحوش» بعد نومهـا الطويـل ، وأن أخلق «رواية» كأنها هي فرانكشتين الـذي يتحدّث عنه صديقي القديم . وحوش الكتابة الرابضة .

هـا هوذا «النّص ـ الـوحش» يعكف على ذاتـه ، على مـرآةٍ لانهاية لترداد صورته فيها . أعمدة المِلْح متكرِّرةً حتى المدىٰ .

«والآن لنتحدَّثْ . . عنك أنت ياصديقي . وكفاني أنانية!

بإجمال واختصار أخبرك أني أعجبت، هذه كلمة سخيفة. . إن كل ما كتبته في خطابك البديع الماضي، كل ماكتبت «بشع». . إلى أقصىٰ حدود «البشاعة» أخالك نسيت معنىٰ هذه الكلمة! . . البشاعة عندي هي أقصىٰ الجمال!

. . أنت ترىٰ ياصديقي أن قلبي مُثْقَل وليست مشاعري في مكانها. . وفي خطابٍ قادم سوف أتحدث معك حديث العقلاء. . إذا شاء الربّ.

عنواني هنا ـ هو: صبحي أفندي حنا عبد الملك ـ شارع عباس، ميدان الكّسار، منزل عبد الرحمٰن أبو الخير الدور الرابع ومنه ليد وفيق.

منتظر ردّك سريعاً. وإلى اللقاء. .

وفيق»

المَلاك النقيّ البسيط القلب؟ صحرائي الحادثة بوحشتها؟

مَنْ؟ أنا؟

أهكذا كان يتصوّرني وفيق؟

٦ مارس ١٩٤٥ : يوميات :

«. . . الربيع قادم. والعلماء يقولون إنها يقظة القوىٰ الداخلية في كل ربيع. والجوّ على أي حال لا يمتّ للربيع بقريب أو بعيد فالسماء تملؤها السحب البيضاء الباردة. والرياح تَعْصِف وتَصْفِر. وأنا مُصاب ببرد.

أحداث كثيرة مرّت. ولكني ماأزال كما كنت. لم أتغيّر كثيراً. يُخيَّل إليّ أن مرور الأيام لا قيمة له. مازلتُ نفس الشخص المريض

شديد الأثَرة. مظلم النفس. مازالت أقل بـادرة تحطّم جزءاً في النفس الهشّة التي أقضي معها أيام هذا الوجود. وثمة أحداث كبيرة تمرّ وكأنّها الـزّبَـد. نفس المتنـاقضـات. نفس الشرارات المتّقـدة من اللهب ثمّ الهمود الطويل بين وحل المستنقعات. نفس الأغاني الرثّة البالية تدوّي في نفسي. ومـازلت أحبّ قليـلاً من الجـمال. وأتلمّسـه في أيّ شيء. ومازلت أحسّ العالم غريباً بعيداً. وكل يوم يزيد في يقيني أنّ أحداً لا يهتمّ. ولن يهتمّ. إنّ كـل امرىء يمـوت وحـده. ويعيش وحـــده.. وحـده. كذّب في كهف. فـإذا كان دبّـاً مريضـاً فهو يحبّ الـظلمـة. وليس من القطيع. وهو أيضاً مصاب بالبرد...

كان ينبغي أن أذهب للدرس الذي أكسب منه قِرشين، ولم أشعر بقـابلية لهـذا. كان كـل شيء يبدو تـافهاً ولا طعم لـه. تلك النـوبـة القديمة التي كدت أموت منها مَضَضاً وسأماً. والتي مازال أحسّها أكثر مـرارة. وعندمـا حـاولت أن أراجـع قليـلاً من المحـاضرات أخـذت الوالدة تشكو وتتبرّم. بعد أن نلت نصيبي اللازم من التقريع. لماذا لا أذهب إلى الدرس؟ ولماذا لا أتعهّد موارد رزقي؟

وكانت في الحجرة المجـاورة ولست أدري إنْ كان الكـلام مقصوداً أن أسمعـه أم لا.. لماذا لأؤدّي هـذه المهّمـة الصغـيرة وكـل النـاس يجرون وراء الرزق يسعون لأكل العيش. وهـو ـ ليست تدري لمـاذا ـ خايب بهذا الشكل..

وكنت أكتب وَثمّ دمـوع.. صعـدت بهـدوء.. بهـدوء إلى عينيّ. كنت أبكي. نعم وجدت نفسي أبكي بهدوء رائـع. رائع. هـل أحد يـدري هذه السكينـة العميقة التي لاعمق لهـا والتي تتولّـد من حـزن ثابت وراسخ ولا تفسير له.. ومع ذلك فكـل شيء كان تـافهاً. هـذا الحـزن الهاديء السـاكن. تلك الدمـوع التي تنبعث عن كآبـة لا حدّ

لها. وهذا التوبيخ الذي لا معنىٰ له. هـذه الشكوىٰ العـادية المـألوفـة التي لا تنطوي على شيء. كلّهـا تافهـة. هذه الكتـابة وهـذه المشاعـر الحمقاء التي تفيض على نفسي كآبة أشدّ حقاً.

كلُّ امرىءٍ يعيش وحده. متىٰ أستطيع أن أفهم هذه الحقيقـة، أن أدركها بكل مداها؟ يحدث أن يسألني أشدّ الأصدقاء إخلاصاً واهتماماً بي، وتتفتّح نفسي وأنا أجيب بصـدقٍ وبحرارة، عنـدما أحسّ فجأة وبقـوة لا تَرَدّ أنـه لا يهتمّ في الحقيقة مقـدار ذرّة. أنه لا يهتمّ. ولمـاذا نفرض فيه أن يهتمّ؟ إن كلّ امرىء يعيش وحده. من العبث أن ننسىٰ أو نتناسىٰ هذه الحقيقة الكبيرة في علاقات الناس. وإذا كنت أنا أهتمّ بأحد فربمّا كان هذا لأنني مريض أو أبله أو أي شيء من هذا القبيل. وربمّا كان هناك أمل في أن أقلع في يـوم من الأيام عن هـذا النوع من الإرتباط بالنـاس. . حسناً. لمـاذا أبكي إذن؟ لماذا أحسّ بشيء عـزيز يدمىٰ عندما أجد شخصاً لا يهتمّ؟ ولا يعني أن يتعرّف أين أنـظر وما هو الحافز الذي دفعني؟ وما هو الضوء الذي أتعرّف أو أحسّ أو أفكر في ظلاله؟

ليس هناك داعٍ البتّة. إن كـل امرىء يمـوت وحده ويعيش أيضـاً وحده».

. . .

طبعاً.

وبعد طول تجوال هاقد وصلتُ ويدي خـاوية إلى مـرسىٰ حجريّ، مؤقتٍ جداً، عند تقاطع طرق منشعبة، وشتىٰ.

وعلى رغم كـل الكؤوس المُتْرَعـة بـالحبّ وبـاللهفـة وبـالأشـواق وبالسخرية المرّة، ومع ارتشاف عذوبتها ومرارتها معاً، فهذا الأمر كله معروفٌ ومفهومٌ وقديم:

أننا وحدنا .

وأننا لانريد ـ أبداً ـ أن نكون وحدنا .

أذلك يجعله أقل إيجاعاً؟

* * *

(٩)

يوميات منمنمة، صارخة، وربما مؤلمة قليلا

١٦ سبتمبر ١٩٤٢، الإسكندرية

عزيزي وفيق

تحياتي وأشواقي

لست أجد في الواقع مبرّراً لغيبتي الطويلة عنك وتأخّري في الردّ على خطابك اللهمّ إلا الحقيقة العارية.

كنت قد أخبرتك أنني أعيش في حمّىٰ من النوع الخطر، بين أشباح المجانين، وأنت تعرف أن كل حمّىٰ يصحبها هذيان، وبالطبع كنت أهذي، ولكن، كان لابدّ أن يعقبها ردّ فعل عنيف، كنت أخشاه حتىٰ وأنا في غمرة الحمّىٰ.

وهكذا حصل، فمنذ أسبوعين، وأنا فريسة لنوع قاتل من السأم المختنق البارد. . لا أطيق أن ألتقط القلم، ولا أستطيع أن أكتب حرفاً واحداً. . وتكاد تحيط بي غشاوة كثيفة ساحقة، غشاوة الجسد الذي كنت نسيته. . نعم ياصديقي. . فأنا حين تمرّ بضعة أيام دون أن أكتب، يهاجمني شعور ثقيل ساحق، شعور بأنني حيوان. . ولست أدري لماذا أشعر بقساوة هذا الشعور، ولست أدري بالأكثر لماذا يهاجمني فجأة، وبعنف، وباستمرار، فينغّص عليّ كل شيء، والكارثة أنني لا أستطيع دفعه أو الإبتعاد عنه. . لأنني لا أستطيع أن أكتب، فليس أمامي إلا الإستسلام الصامت لهذه القدم الساحقة التي تضغط عليّ، بطغيان.

ولكن، مالنا ولكل هذا . . إنني أريد أن أعتذر، فلِمَ كل هذه الثرثرة؟ . .

معذرة إذن ياصديقي مرة أخرىٰ . . فهكذا حياتنا على رغم كل شيء: تعاسة مركّبة . .

أخي العزيز

ابتسمت حين قرأت المقدمة الظريفة التي بدأت بها خطابك، فأنت هو أنت، ولست أدري لماذا ارتسم في ذهني على الفور بيت لناجي:

ضحكتي ثورتي . . وقهقهة السُخر
عندي تمرّد البركانِ

إنها حماقة . . أليس كذلك؟ . . لماذا يرتسم هذا البيت أمامي . . حين أقرأ مقدمة بريئة لخطاب من صديق؟ . . لاشيء بالطبع . . مجرّد حماقة . .

ثم قرأت خطابك، خطابك الرائع، بل المروِّع . . لست أدري . . هل هناك ضرورة كي أصف لك مشاعري إذ ذاك . . فقط أخبرك أنني - في تلك الليلة - كنت أنتبه فجأة، فإذا القوم يحملقون فيّ، سألوني لماذا لا أجيب؟ ولماذا لم أردّ على أسئلتهم - التي لم أسمعها -؟ . . وأخيراً يئسوا من هذا الوجوم المستعصي . . وهي حالة ليست، على كل حال، بالغريبة عنهم . .

صديقي العزيز

كل ماأرجو أن تكون هذه الأزمة التي أملت عليك خطابك . . قد انقشعت الآن، وزالت آثارها، فخطابك هذا كان أشبه بشريحة من ذلك الأعمىٰ المحموم . . . كأنّه قطعة من روح تلتهب، مزّقتها أصابع جبارة . .

لم أكن أنتظر شيئاً كهذا مطلقاً.. لذلك كان لابدّ أن يحدث الأثـر العميق، الذي حدث، وحدث بقوة مرعبة، كانت كافية لانتشالي من حمّاي القديمة، لتقـذفني في ذلـك الضجـر الصـامت.. الـذي يجثم فوقي.. الآن أو منذ أيامٍ كثيرة، حتى مساء الأمس، على الأصحّ..

هل أذكّرك ياعزيزي بسليهان الحكيم؟.. ذلك الرجل الذي جمـع في قبضتيه عصارة مـايتوق البشر إليـه في أحلامهم؟.. ذلـك الملك، النبيّ، الحكيم، الشـاعر، الثـريّ، الجميـل؟ الـذي أغـدق عليـه الله كـل شيء، دانت له اليهـودية بـأبنـائهـا الـذين «هم أكـثر من رمـال البحـر».. ودانت له أجمـل المخلوقـات، ملكـة سَبَـأ؟.. ودانت لـه الحكمة والفن والثروة، بل دانت له العناصر كما قالوا.. فأوتي القدرة على تسخير الجنّ والحيوان؟ هل تعرفه؟.. افتـح التوراة، تجـد مايلي «باطل الأباطيل.. هكذا قال الجامعة.. الكل باطل.. وقبض الريح» .. هـذا الرجـل الجامعـة.. الذي حسـدتـه الأقـدار.. لم يخلص من كـل حيـاتـه الحـافلة إلا بكلمـة واحـدة: «الكـل بـاطــل.. وقبض الريح»..

ياللمرارة.. كم عذّبتني هذه الكلمة.. ولكم قذفت بالوقود الحيّ في ثـورات لياليّ.. ومـزجت بالسم أحـلى كؤوسي: «الكل بـاطل.. وقبض الريح»..

إنني أنـاضـل بعنف لكي أحتفظ بشيء من هـدوء.. أو اتّـزان.. ولكي لا أسلم روحي للحراب القديمة، القاسية، تمزّقها، وتلقيها إلى الرياح.

أخي التعس، نعم التعس، أليس الشقاء يوحّد بين قلوبنـا.. ولو أحياناً.

أليس الدموع تقرّب من روحينا.

إنك كتبت خطابك بدماء قلبك.. كتبته صرخات ممزّقة قويّة، وبعد ذلك تسألني.. بسذاجة.. «أفهمت شيئاً»؟.. ليس عسيراً عليّ يا أخي أن أفهمك..

ولكن.. أنت مجنون..

إنك تتكلّم عن بناء هائل شيّدته، وعن وحش هائل خلقته، وعن حُمّاك التي تطاردك، وعن صحرائي الموحشة الخالية...

وأرجو من أعماقي أن تكون نسيت كل هذا، ومرّت السحابة، كما تمرّ بعض السحب الرصاصية اللون في شفق غروب صيفيّ.

ولكن لماذا لا تتكلّم بصراحة.. إن البساطة والصراحة خير ألف مرة من خيالاتك الحمقاء التي لاتزيدك إلا عذاباً، ولهباً..

دَعِ الأبالسة، والوحوش، ونيران الجحيم، دَعْها.. وتكلم بصراحة وبصدق كما لو كنت تُلقي اعترافاً لقسّ في محراب بعيد.. هادىء..

لست أدري إن كان لي مثل هذا الحقّ.. ولكني أدري أن هذا يسرّي عنك.. أنت المجنون المنفعل، أنت الأعمىٰ المحترق!

ياأخي.. تذكّر أنّه في الأرض مازالت الزهور تبسم، وتنفح عطرها، دون أن تصرخ طالبة المزيد من الماء، والضوء، والنسيم..

وتذكّر أنّه في السماء، مازالت النجوم ترنو، وتبعث نورها، هادئة صامتة، مغلّفة بعباءتها الزرقاء الداكنة، دون أن تطلب المزيد من اللهيب.

قال المسيح «اطلبوا تجدوا. اقرعوا تُفْتَحْ لكم الأبواب».. أما أنا فأقول: «أعطوا.. ولا تأخذوا.. ودعوا أبوابكم مفتوحة لعابر السبيل، بل اجلسوا بجانب مواقدكم على قارعة الطريق، وغذّوا

اللهيب بقلوبكم. . فالموت بين نيران موقد مضطرم، على طريق موحش بعيد، هو كل شيء. . مادام كل شيء باطلاً. . وقبض الريح».

لا تظنّن هذه خيالات قلب أحمق، أو ظُنّها، فلست في حاجة لإقامة الحجّة والاستشهاد بالمنطق، وبراهين العقل. . هكذا أحسّ، وهكذا أبذل جهدي. . ولهذا فقط أعيش. .

أمّا أنا، فإنني في بوتقة، بوتقة هائلة، يضطرم فيها كل ما يمكن أن يخطر بالذهن. . بوتقة يموج فيها كل شيء، ولا يثبت شيء. . بوتقة من أمواج عارمة موضوعة فوق لهب جبّار. . وفي العُباب مخلوق ضعيف، بين سحب من البخار والضباب والنار، والرماد.

من العبث أن أستنقذ نفسي. . لست أستطيع أن أغوص. . لكي أدفن نفسي في الطين الأسود الذي يرقد في قاع البوتقة. . الهائلة.

ويُخيّل إليّ أنني سأقضي حياتي، مصارعاً أمواج اللهب والدخان، صائحاً كما أصيح الآن، محترقاً بصمت، كما أحترق في الليالي الساكنة اللانهائية، باكياً كما أبكي على مرأى من عيون الظلام، والظلام وحده.

نعم. . يُخيّل إليّ أنني لن أصل أبداً إلى شاطىء، ولن أقف أبداً على صخرة، ولن أجد أبداً حبلاً، بل ولا قشّة. . أتشبّث بها. . ولو دقيقة واحدة. . نعم، لك. . أن تسألني هل تعرف «يهوه»؟. . أو هل تعرف «الله»؟ إنني أعود أيام كنت طفلاً، كنت طفلاً تقياً شديد الإيمان بالله. . ألم أر النور الساحق النقيّ، عندما غمرتني مياه العماد؟

هذا النور العظيم المقدّس. . ألم يكن إلا خيالاً بعثه «العقل الباطن». . في المخيّلة النشطة المتفعلة. . أهكذا قد يقول العلماء. . وهكذا، برغمي، قد أُصدّقهم، بشكّ يسير.

ولكنْ، لقد تحطّم كل ذاك، وماتت هذه الأحلام، وخمدت هذه المشاعر، واستحالت إلى رماد غريب، كالجثث المحترقة، تفوح منها رائحة عَبِقة قويّة نفّاذة.. فلماذا نعود إليها؟.. نعم. دَعِ الماضي يدفن موتاه.. ولننظرْ إلى الأمام.

أخي العزيز..

تسأل.. لماذا خلقنا، أنت وأنا، لماذا؟.. وهل هناك حقاً أبديّة؟ ثم تقول: هذا سؤال عويص.. ولكن الجواب ليس ببعيد ياصديقي.

فماذا تعني.. أيها الأحمق العزيز؟..

أراك تتكلّم عن الإنتحار، وعن الموت، فاليك إذن ما كتبته أنت بقلمك منذ عام:

«ولكن ياصديقي لِمَ الموت؟ إن الحياة ليست بشعة إلى هذا الحدّ؟. هناك أشياء كثيرة تُغري على البقاء، هناك الجمال، والحبّ والفن، هناك السموّ الذي تستطيع أن تجده في أشياء صغيرة تافهة وسط الحياة»؟..

«ثمّ ما أدراك ياصديقي أن هناك عالماً آخر حقّاً.. ومن أدراك أنّك لن تتعذّب في هذا العالم الآخر، لو وُجِد، أضعاف أضعاف ع ـابك هنا»؟.

«نعم.. لِمَ الموت، إن الموت هذا تقديس للحياة لا تستحقّه، ورفعها إلى مكانةٍ من الرفعة غريبة عليها»..

هكذا كتبت أنت منذ عام.. فيا لسُخر القدر.

أيها الصديق.. من العبث أن نتساءل ومن العبث أن ننتظر

الجواب، على رغم أننا لا نملك فراراً من التساؤل.. ومن الإحتراق لهفة إلى الجواب.

إننا أرواح مريضة ياصديقي، أرواح هائمة، أشبه بالزبد المتكسر على أسنّة الصخور، الضائع في صفير الرياح، الغائر بين أطباق الرمال..

أليس من عزاء.. إلا هذه التضحية للفن، لمعبود لا وجود له، وليس لنا من غذاء.. إلا هذه الأفكار.. الحائمة كخفافيش في الظلام..

إننا نجري وراء الأوهام، حتى تنقطع أنفاسنا، وتدمىٰ أقدامنا ثم نسقط. نرمي المتع الرخيصة، وننفر من الحياة التافهة، وهي التي يعتبرها كل امرىء «حقائق»، لكي نجري وراء الأوهام..

ألم يقل الكثيرون إنّ الحياة حلم؟

مع تحيات وأشواق..

المخلص

......

يوميات منمنمة:

«يناير ١٩٤٣

لم أستطع ان أحدِّد تماماً كُنْهَ ذلك الشعور الذي دفعني في غسق الأمس، بقوة أصيلة لا تقاوم، إلى أن أقترب من المياه الدافئة الهادئة التي تتكسّر ببطء على رمال الشاطىء لكي أقترب، وأقترب، وأنحني.

وبعد دقائق كنت أغوص بقدميّ العاريتين، وقد شمّرت عن ساقيّ في الرمال الدافئة، في آخر الأصيل، الغارقة تحت المياه. ورحت أتقدّم قليلاً قليلاً إلى الداخل بحماقة. وراحت المياه ترتفع. ثم وقفت..

وكـان منير وبـدوي، وقدال قـد صاحـوا في بـادىء الأمـر. مـاذا حـدث؟ وراحوا يتضـاحكون. لكنّهم صمتـوا. لأنني كنت صـامتـاً. ولأنّ أحداً منا لم يجد في نفسه تلك الحيوية الفتيّة التي تدعـو للضجيج والمرح.. كأنّما انطوىٰ كلّ منّا على نفسه فجأة وغاص في أعماقها.

نظرت إلى السماء، والنسيم، والسحب، وحتى في تلك الصحبـة، كـانت في عينيّ دموع معلّقـة، متحجّرة، ولكن لم أتمـالك أن أبتسم، ابتسامة ممزّقة، مُخَنّقة وساخرة.

نظرت إليهم وأنا مازلت في الماء. أحترم آلامي؟ كان منير ينظر إليّ بهـدوء، بعينين مـدفونتـين، مضـطرمتـين، يعيش فيهـا حـزن قـديم عميق. وحتى قدّال لم يهزّ رأسه بإنكار، ولم يذهـل من الدّهَش. لقـد تفتّح في عينيه هو أيضاً عمق جديد.

وكـان كل شيء ـ أيّ شيء ـ يبـدو طبيعيـاً ومعتـاداً في ذلـك الجـوّ الغسقيّ الغريب. العَبِق بشذىٰ مسحور.

تـركت نفسي في نور العتمـة.. أُحـدِّق إلى السـماء البـاهتـة بلونها الموحش.

كنت طوال حياتي أحسّ نحو المياه بذلك الشعور الآسر المجتذب. الشعور المثقل المبهم. مزيج من السحر والشوق. لقد سمعت مرة في طفولتي ـ وكم سحرتني ـ قصة الجنية التي تعيش في الميـاه.. في الليالي المقمرة.. تستلقي على الشاطىء.. على فراش من غدائرها السـوداء الـطويلة النـاعمـة.. تُحدِّق إلى عـابـر السبيـل.. بعينـين واسعتـين عميقتين يتركّز فيها سحر.. لا يقاوم.. كنت دائماً أحسّ بشعور عابر السبيـل التعس حينما تجتـذبه العينـان الـواسعتـان الغـامضتـان قليـلاً قليلاً.. وتتّسع العينان.. ويتّسع الكون كلّه.. يضطرم في أعماقهما،

ويبرق في أغوارهما نور ألِق.. يفيض على الوجود كله.. ويغرقه.. ويلاشيه.. وينتهي كل شيء..

ويرتمي النعس أخيراً باستسلام حبيب رغم إرادته بين ذراعَيِ الجنيّة المُهْلِكة. لكي تغوص به.. وتفنيه في ظلمة المياه العميقة.. كنت دائماً أرهب المياه.. وأحبّها. تجتذبني. وأخاف منها. ودائماً كان في أعماقي شوق طاغٍ نحو المياه. ومازال أحس بغموض واستسلام بأنّ مصيري مرتبط بالماء. على نحوٍ ما.. مصير عابر السبيل.

ومازال أذكر تلك القصّة في صباي الباكر عندما كنت في «الطرانة» قرية جدّتي أماليا. على أطراف القرية كانت تجري ترعة صغيرة جميلة تحنو على حفافيها الأشجار المتهدِّلة التي تضفي ظلّاً رقيقاً متراوح الموسيقىٰ على مياه الترعة الداكنة، محمّرة اللون، عند فيضان النيل.

يقولون إنني - لست أدري لماذا؟ - كنت دائماً أجري إلى الترعة. بعيداً عن أكواخ القرية. كي أجلس على حافّة جسر صغير صنع من جذور الأشجار الضخمة. ثم أدلي بساقيّ إلى أطراف الماء من حافّة الجسر. وأترك الأمواج الصغيرة تصطدم بقدميّ وتمرّ، في دوائر تتّسع وتتّسع، والتيار يسير حاملاً معه عُشْبة، أو زهرة، أو قطعة خشب، أو سمكة منقلبة مائتة.

كان يلذّ لي أن أرقب المياه. والظلّال. وصورتي منعكسة في الأعماق. وأسراب الإوزّ السابح بهدوء تنعكس أجنحتها البيضاء في المياه. ويلذّ لي أن أسمع موسيقىٰ الحقول، وخرير الأمواج، ونغمات الظلّ المتلاعب فوق سطح الترعة.

كانت تلك الساعات تغمر قلبي بشعور عذب ممتع مريح. وكنت

أحسّ من ذلك كلّه بدوار عذب وبغيبوبة حلوة هانئة خاصة. فأفيء قليلاً قليلاً إلى ذلك الخَدَر اللذيذ.

لم أكن قط طفلاً مرِحاً عابثاً لاهياً.. أتصوّر أني كنت دائماً طفلاً صموتاً. هادئاً، أحب الوحشة والكآبة، والمياه والظلال.

وفي يوم من أيام أغسطس ـ كانت الترعة تمور بمياه الفيضان ـ شعرت بنفس الشعور الذي دفعني، بالأمس، لأغمر قدمّي في المياه. لكي أفنىٰ في ذلك الخَدَر الموسيقيّ المُشْبَع بالظلال.. في ذلك الإنتشاء المُسْكِر الغافي الجميل..

ويبدو أن الحرارة والهدوء. وموسيقىٰ الخرير وتلك الوحشة التي كانت تملأ قلبي، تضافرت كلّها فحملت إلى نفسي ذلك الشعور بالسكينة والغيبوبة. وحملت إلي عينيّ ما يشبه غياب النوم.

لم أشعر حينما ترنّحتُ من على حافة الجسر.. وحينما سقطتُ في المياه. لم أشعر بشيء على الإطلاق.. ربّما خُيِّل إليّ أنني في حلم، لست أدري، أو أنني في كابوس.. لكني لم أعد تماماً إلى يقظتي..

وكانت الظهيرة حارّة. والحقول ساطعة ساكنة خالية. فلم يحسّ بي أحد.

غير أن أحد القرويين ـ لحسن حظي. أو لسوئه ـ كان يسوق حماره للترعة، في تلك اللحظة تماماً، ليستقي بالقرب من الجسر..

واقترب الحمار ببراءة بخيشومه الكبير من الترعة، متلهّفاً على الماء بعينيه البّراقتين. لكنّه تراجع فجأة، وزفر بعنف، ولم يمسّ المياه بخطمه. وغضب القرويّ الطيّب القلب. ونخس حماره ودفعه إلى الماء، وقد حزم أمره على الاستقاء. لكنّه للمرة الثانية رفع رأسه بغتة قبل أن يمسّ الماء. وزفر بعنف متزايد. ثم اندفع ينهق باحتجاج، بضيق وتحمّس.. ورفض بكل إباء أن يقترب من الماء مرة أخرىٰ..

وحار القرويّ في فهم هذه الظاهرة.. لكن التفاهم التام كان متبادلاً بين الفلاّح وحماره.. وكان شديد الثقة بحماره. وبحسن نيّة هذا الحمار، فلم يبقَ إذن إلا الماء.. نعم.. إن السرّ كلّه في الماء..

ـ لازم اللّومَيّة هيّ اللي زفرة!..

واقترب الفلاح بعينيه. وانحنىٰ ليرىٰ الماء.. ولحسن الحظ كانت الترعة قليلة العمق. وكنت قد هبطت إلى القاع منذ لحظة واحدة..

قالوا إنني انتُشِلتُ بسرعة. كنت شاحباً لا أتنفس. وقد امتلأت بالمياه. أفقت إلى نفسي. لأجد نفسي على شاطئ المياه مرة أخرىٰ. أشعر بالأمواج الرفيقة تتدافع بين قدميّ العاريتين. على رمال «الشاطبي». في غسق مُخْتَضر موحِش.. ابتسمت للغسق. تلك الإبتسامة المرفوعة إلى القوىٰ الطاغية التي ينسدل عليها قناع أبديّ.. الإبتسامة التي لا ترتسم، ربّما، إلا على أوجه المجرمين، والتعساء، ابتسامة الثورة والنقمة والاستسلام معاً.

لو لم أجد في حياتي هذه اللحظات السعيدة بكآبتها، من جمال الغسق، والدموع، لما كنت إلا مجرماً، أو راهباً.

إنني أريد أن أقنع نفسي بأنني حقّاً ساخر ومستهتر. ولا يهمّني شيء.. ولكن هذا غير صحيح، إنني على الأصح غير سعيد وهش الحساسية.. وتلك القوىٰ الغريبة تعذّبني. تلك القوى التي تسخر من نفسها وتزعم أنها إنما تسخر من كل شيء..

يناير:

احسست بعد ذلك ـ طبعاً ـ ببرودة في قدميّ، وهززت رأسي بعنف، كأنما أستفيق من كابوس.

ونظرت إلى السماء. كان الغسق مايزال موحشاً. والليل لم يتقدّم

كثيراً بعد. وهذه الخواطر والذكريات يشتملها شعور واحد مُبْهَم عميق، إحساس لا يستغرق كثيراً من الوقت، وإنما يستغرق كياني كله: موجةٌ من الكآبة الذابلة، كتلك الأمواج الهادئة المظلمة.. التي تلوح عند الأفق البعيد.

واقتربت نوريس. تحدّدت وتركزّت، وسطعت أمام عينيّ. وسطع في عينيّ ضوء، ويأس، وشرود.

عرفتها.. لا يهمّني متىٰ. ولا كيف ـ فأيقظتني، وهزّت وجودي كله، وملأت حياتي بالعذاب.

وبمجرّد نظرتها، وصفائها، انتشلتني من الحمأة التي كنت أتردّى فيها، بتفاهة، ودون أن أدري.

عدت مع الشلة.. (لبست الشراب على قدمين مبلولتين، والجزمة) وعاد صدىٰ أقدامنا يرنّ على الأسفلت ممتزجاً بمياه النافورة وتخيّلت، بحماقة، أننا أربعة من الرفاق ضالّين في قصةٍ من قصص الغابات الغامضة. نضرب في طريق لا نعرف له نهاية، تحت أشجار مقبّبة الأضرحة، مثقلين بشعور مُرّ، فيه يأس، وظلال..

يناير:

بعد أيام قليلة كانت نوريس هي كل شيء في حياتي، وفي الحياة. وذلك الركود الذي كان ينسج خيوطه كعنكبوت هرم في أركان حياتي المعتمة، أضحىٰ أفقاً ساطعاً شاسعاً، ناغماً بالنور.

وهكذا عشت، أحبها في أحلامي، داخل غرفتي المقفلة..

لم أبُحْ لها قطّ بحبي في ألفاظ. فقط عيناي المحترقتان، وصوتي المتهدّج حين أكتب عنها، وذلك الإشعاع الخفيّ الذي ينبعث من كياني. وتلك التفاهات الصغيرة: نظرة عابرة عابدة، وقوفي مع الشلّة

أسمع ولا أتكلّم. فقط كنت أبوح لها بحبّي في شيء أعلىٰ وأسمىٰ وأكثر وداعة من مجرّد الكلمات. أمّا الآن. فلا شيء. سوىٰ الظلمة الموحشة.

الحلم الذي عبدتُه نمتْ على قدميه الطحالب، والتمثال الذي أقمتُه أخذ يتداعىٰ، ويغوص في أكوام من التراب.. كإله وثنيّ يُحتضَر. لا أعرف كيف حدث ذلك؟ إنني أحسّه. وأنا مؤمن بإحساسي.. ولكني مع ذلك.. ماأزال أحبّها.. رغم أنه لم يبق منها غير الأنقاض.. والسحب المعتمة تنطلق في نفسي، وأماني النور اتّشحت بالسواد..

لقد عرفت العذاب الصامت، عذاب الغرف المقفلة. والتضحية بالذات، غير الضرورية، المنطوية على ذاتها. تنفث سمومها في أحشائها.

اليأس اللاذع المثقل، اللوعة المدفونة الضائعة، الدموع الخانقة التي تُذرَف في الظلام، والسيول السوداء التي تُغرق النفس. وتُذهِلها. عرفت الإحساس المقيت بأن الحياة مُرْهِقة وقاسية. ولا معنىٰ لها..

إنني مُتْعَب. أنسحق تحت وطأة هذه المشاعر. مُتْعَب ومنهوك..

هذه الوحشة المعذِّبة التي تملأ قلبي.. أمّا لها من نهاية؟

يناير:

إن هذا «الحبّ»، هذه «النوبة»، تملأ حياتي بالسموم، وبالأشواك، وكلّها دفينة، لا ترىٰ الشمس ولا النور.

لماذا أفكّر فيها دائماً، ودون أيّ بارقة من أيّ نوع من الأمل؟ ولماذا أنفخ في لهب آلامي؟ ألم يكن عذابي المستوحِد، المجرّد، كافياً حتىٰ

يـأتي هذا العـذاب الجديـد؟ أم أنني في الـواقـع . . أُعـطي الأمـر من الأهمية أكثر ممّا له حقيقة؟

لست أدري. كل ما أعـرف أن كل هـذا الشقاء يضيق بـه قلبي، وتزدحم به روحي، وتكاد تتمزّق. فمتىٰ ينجاب الشِتاء؟

يناير:

كم هي هـائلة، ومميتة، تلك الـوحدة المُطْبِقـة. حـاولت مـراراً، حاولت كثيراً، أن أحس بـالله، أن أرتفع إلى الجـو الأسمىٰ. حاولت كثيـراً أن أومن. . أن أومن بـأيّ شيء، أن أجـد أيـة صخـرة. أُسْنِـد إليها قدميّ، بين كل هذه الأمواج.

ولكني فشلت، دائماً، وفي كل مرة. .

ومع ذلك، فليس لي أن أيأس، لماذا؟ لست أدري.

الإيمان؟. . . يا إلهي!. . .

مـرض آخر يعـذّبني، هو أنني دائـماً ساخـر من ذات نفسي، مُحَقِّـر لذات قلبي. . وعواطفي، وآلامي. نعم، لو كانت تلك الآلام آلام «الحب»، آلام «الإيمـان»، هي كل شيء، إذن لكـان لي العزاء بـأنها نبيلة، سامية. ولكنني أسخر من كلّ ما فيَّ.

هنـاك الآلام الإجتماعيـة. . الآلام المادية. آلام عدم التـوافق مع النـاس، مـع المـال، آلام الفقـر، والكـدّ من أجـل لقمـة العيش، والامتهان. وكل تلك الآلام، التـافهة. وإلى هـذه التفاهـات المزرية فقط أُرْجِع، بقسوة، أسبابَ تعاستي.

حتى هذه التعزية، تعزية أنّ لي آلاماً نبيلة، هـذه التعزيـة التافهـة ذاتها، لست أجدها.

نفسي مليئة بالظلمة، بالوحول، وليس ثمّ أمل.. وليس ثمّ يأس أيضاً.

هناك شيء واحد مؤكّد.. هو أن الموت مريح، نعم، الموت شيء جميل.

يناير:

بالأمس، قبيل الغروب، كنت أستذكر دروسي، وأطوي صفحات طويلة. كثيرة. متتابعة، من مواضيع جافّة. لا نهاية لها.. وفجأة، وقع بصري، على قطة صغيرة لنا. حديثة عهد بالحياة: مخلوق ضعيف. وديع. مستكين..

كانت مستلقية في أشعّة الأصيل الخابية. تستمدّ منها شيئاً من الحرارة لكيانها الهزيل. الذي يصارع الوجود ببسالة. وكانت تلهث، فيهتزّ جسمها كلّه اهتزازات سريعة، متتالية، كأنّها هي ذبالة عنيدة تخفق باستمرار، وتأبىٰ إلا أن تعيش. تحت آخر نور الشمس، في الشرفة المطلّة على الشارع الهادىء.

حدّقت إليها هنيهة، وشرد ذهني، ثم عدت إلى كتبي، وصفحاتي. وفجأة نظرت إليها ثانية وحدّقت بحدّة. وأظن أنه ارتسمت على شفتيّ بسمة محزونة فيها كآبة وسخرية. نعم، أيتها القطة الأخت، كلانا يلهث بعنف في هذه الحياة، ليطيل أمد وجوده فيها دون أن يدري لماذا. ما أشبهنا! أنا أطوي صفحات لا نهاية لها، من أشياء كثيرة معقّدة لا معنىٰ لها، لكي أبني على هذه السخافات المدرسية حياة، وأنت تلهثين. وتَسْتَجْدِين أشعة الشمس.. وتُصارعين الضعف والإهمال وقسوة الوجود، لكي تطيلي بهذا النضال حياة.. حياة أُلقي عليّ، وعليك عبؤها، دون أن ندري لماذا، ودون أن يكون ثمّ معنىٰ.

ولاشكّ أن طول تحديقي إلى الحيوان المسكين نبّهها إليّ. فرفعت إليّ عينين يبرق فيهما تألّق يكاد يخمد، تغطّيهما سحب مُعْتِمة، وارتسمت فيهما نظرة وادعة، مقدِّرة. كأنما فهمت أخيراً أن هناك مخلوقاً مثلها، وأن لها رفيقاً.

وأنّت أنيناً ضعيفاً في مواء خافت، فلم أتمالك من الضحك، كأنّما كانت تحدّثني. وعدت أطوي الصفحات، وأبتلع أشياء مدرسية جافّة كثيرة معقّدة، لانهاية لها. وعادت تلهث، وتضع رأسها على الأرض، وتستجدي أشعّة الأصيل الخافتة، الجافّة، التي توشك أن تُحْتَضَر.

ماتت القطة الصغيرة، في الليل، بهدوء، دون أن يحسّ بها أحد. وعندما أشرق الصبح كانت جثة هامدة، مفتّحة العينين، وفيهما نظرة متألّقة، جامدة، كأنما تشرف على عالم بعيد.

أيتها الأخت.. ماأسعدَك.. لقد انتهت ساعات عذابك، عَبَرْتِ الوجود الأرضيّ، في أيام قليلة، وانتصرتِ الآن. بأنْ مُتِّ. لم يعد يجديك الآن أنك كنت تتمدّدين في الشمس، وتستجدين الحرارة، والحياة. تلك النظرات المحزونة التي كانت تطلّ من عينيك. لقد هدأت الآن، ولانت، واستراحت.

أمّا أنا..

أنا مازلت أصارع الحياة.. وأستجدي شيئاً من الهناء، مازالت الدموع تملأ حياتي، ومازال التعس يُثْقِلني.

متىٰ؟ متىٰ تنتهي ساعات عذابي، أنا أيضاً؟ حتىٰ ينتهي كل شيء، في ساعة مظلمة هادئة عميقة، من ساعات الليل. وعندما يشرق الصبح...

ماجدوىٰ كل ذلك! كل تلك الأماني الممزقة. التي تسقط إلى

التراب إلى جنب آلاف الأماني المحطّمة، المحتضَرة، كل هذه العواطف العواصف المتسايلة المنهارة التي تكاد تبدو مضحكة وبعيدة. كل هذه الصرخات غير المهمّة على الإطلاق. ليس ثمّ جدوى. أليس

وهذا التوق العنيف للموت سيلقىٰ مصير آلاف الأحلام التائقة، سيتلاشىٰ في النهاية هباء. وسيضيع. كما يضيع صدىٰ الدموع.

يناير:

أتساءل أحياناً ـ دائماً ـ ماقيمة هذه الحياة؟كل هذه الحياة؟

أتساءل بهدوء، واستسلام، ويأس.

واليوم. بعد عمل طويل. تركت نفسي عند الغسق، أحدّق من شرفتي، في شارع ابن زهر، إلى السماء الباهتة بلونها المُعْتِم الموحِش.

تركت النسمات تهبّ على وجهي. وكانت نجمة بيضاء تتألّق أمامي. فوق الأفق.

كان كل شيء يوحي بهذا السؤال: ماقيمة هذه الحياة!

وكل شيء كان يجيب، بهدوء، ويأس، واستسلام: لا شيء، مجرد لاشيء.

هذه الحياة في صراعها الذي لاينى لحظة واحدة، وهؤلاء الناس، يعيشون. ويموتون، يحبّون ويكرهون ويَشْقَوْن ويعملون، هذا الموكب العابر أبداً، الذاهب إلى لانهاية مجهولة بعيدة. ماقيمة كل هذا؟ ماقيمته؟

لاشيء. وضوء الغسق القاتم يُضفي على الوجود هذا اللون الشاحب الصدىء، وتلك السماء الموحشة هادئة أبداً تطلّ على هذه

الحياة، وستظلّ تفعل ذلك إلى أن يختفي كل شيء في لانهاية بعيدة مجهولة، في لاشيئية مطلقة غامضة.

الوحدة والشقاء علّماني أن أنظر إلى كل شيء بلا كبير مبالاة، بيأس واستسلام. علّماني أن أنظر إلى كل شيء بهدوء وبحنوّ. وبسخرية رقيقة أيضاً.

رقيقة رقّة نسمات الغسق. وموحشة كسماء الغسق. وهادئة هدوء النور الذي تُشِعُّه تلك النجمة البيضاء، نجمة الغسق.

يناير:

إنني أختنق..

يناير:

سأمة قاتلة، ولاشيء غيرها.

كل ما هو عزيز لديّ أصبحتُ لاأطيق التفكير فيه لحظة واحدة. أصبحت أنظر إلى كل ماضيَّ نظرة شخص ينظر الى شيء حبيب مات، وانتهىٰ تماماً، ما الفائدة؟

إنّها ساعات السأم تلك التي تجعل كل شيء باطلاً، وقبض الريح.

وحتىٰ ألسنة اللهب المقدّس التي تصعَد في روحي، وتلتهم كياني كله، أحياناً، وتجعلني كتلة متقدة من النور والحياة الحقّة، تخمد بسرعة، تختنق بين أسوار نفسٍ مُغْلَقة. خلف شفتينْ مُطْبَقَتَينْ.

انحصرت حياتي الآن في حدود إشباع المطالب الدنيا. والذبول رويداً رويداً في سحابة من السأم. أصبحت أنظر إلى كل شيء بعينين فوقهما غمامة، بلامبالاة. وأنا مُثقل. مُثقَل بما لا أطيق تحمله. هذه الحياة ستقضي عليّ.. لقد وصلت إلى مرحلة مخيفة مميتة.

لاأريد أن أموت، لاأريد أن أنتحر. ومع ذلك، لَشَدَّ ما أنا خائف من نفسي، وإذا انتحرت ـ في يوم ما ـ فذلك لن يكون بإرادتي.

سأنتحر رغماً عنّي.

هل هنالك ماهو أهول من هذا الموقف؟

إنني أموت تدريجياً. هذه الوحدة تقتلني، لأنّها تُفنيني بالجنون، وبآلاف الخواطر الحمراء. الآن لاشيء سوىٰ أنني أموت في وحدة قاسية. خانقة. لاشيء سوىٰ دموع التفاهة. وآلام الضعف المُخْجِل الشائن. لاشيء، سوىٰ أنني أنسحق باستمرار، شاعراً بكلّ ما في هذا الانسحاق من صَغار وحقارة..

إن المريض الذي يدرك مرضه، ويحسّ آلامه، وينسحق تحت وطأة عذابه، ثم لا يستطيع أن يفعل شيئاً على الإطلاق، رغم كل جهوده المستميتة، لايستطيع أن يُشفىٰ من مرضه ولا أن يدعو أحداً لشفائه، بل يستمرّ مريضاً، منطوياً على نفسه في كبرياء مخبولة، ويظلّ يعيش متألماً، متأوّهاً، متمرّداً على مرضه وعلى ضعفه وعلى الوجود كله، يستمرّ يبكي ويختنق، ويجاهد لإلتقاط الهواء في غرفته المُقْفَلة، ثم يسقط مُنْهَكاً يمزّق جروحه بأصابعه، هذا المريض، هو شخصٌ تَعِسٌ حقّاً.. ومُضْحِك مع ذلك، ويستحق الرثاء، وربما لا يستحقه.

يناير:

مرة أخرىٰ عدت إلى عالمي القديم.

عالم الفن النقيّ الصافي، عالم التحليق بعيداً في الأجواء اللامتناهية الزرقاء التي تضمّها دفّتا كتاب.. عالم الخفقات النابضة الحيّة، عالم

الحياة التأملية الحلوة السامية، عالم الدموع الهادئة العذبة، لا تلك الدموع المريرة. المحـ ـرقة الساخرة الملحّة، دموع المرارة والانسحاق بين الوحول..

مرة أخرىٰ، عدت أقضي الساعات الطِوال، الطِوال، غارقاً في كتاب، أو بين أشعار. في سعادة هادئة ساذجة يسيرة صافية، عذبة مع ذلك، متناهية العذوبة.

مرّة أخرىٰ، عدت أرشف كوباً من ماء بارد صافٍ، بعد احتراق الظمأ المُلهِب القاسي الذي يشقّق الحلق، ويجفّف القلب على وهج ناره الجافّة.

انقضت تلك الفترة المحمومة، انقضت. ياإلهي!... انقضت، ذهبت، ولكنّها مع ذلك لم تَمُتْ، ولَشَدَّ ما أخافها، لَشَدَّ ما يُرعبني أنها قد تنتفض، فجأة، حيّة.. دافقة بالحياة.. أنها قد تمدّ أظافرها، في أية لحظة، لكي تمزّق كياني في ضحكة وحشية مدوّية ساخرة.. هذه الجحيم خامدة فقط، إنها تغفو قليلاً، ولَشَدَّ ماأخاف يقظتها. لكن، ومع ذلك، أستطيع الآن أن أنظر إليها، في هدوء اللّامبالاة.

* * *

فبراير:

ـ «إنني ـ أنا الجبال ـ مازلت ذلك المشعال القديم.. ولكن أين الفَراش الذي يجرؤ على الموت في ضوئي.. ولهيبي»؟

ـ هأنذا..!

١٦ مارس:

لعلّها بداية المهزلة الحقيقية، أو ختامها، لست أدري. هل هي مهزلة حقّاً، أم مأساة، أم مزيج مرعب من كلاهما؟ في جيبي قروش

قليلة، وفي روحي ثورة لاحدّ لها، ومرارة لاحدّ لها، ويأس لاحدّ له.

وفيق يُشفي على النهاية، وفيق يسير في طريق ...ف، لا أجسر على النظر إلى نهايته.

وأنا..؟.. هل أُشفي على النهاية، أم على البداية، بداية حياة حافلة بالجنون، وبالتشرّد، وبالعذاب، وبالسرور أيضاً، والمرح الذي لاحدّ له، والحرية، والفوضى؟ لست أدري.. إنني أدري شيئاً واحداً، أنني يجب أن أتحرّر، يجب أن أحطّم الأسوار، وأن أمزّق القيود، وأن أنطلق.. ولو كان الإنطلاق إلى الدمار، أو إلى العدم. ماذا يهمّني.

الليلة، أودّع كل شيء عرفته، منذ سبعة عشر عاماً. وأترك كل شيء ألفته،واستنَمتُ إليه، وأشرف على عالم جديد.. مليء بالأنقاض والوحول، والعجائب.. وعليّ، أنا وحدي، أن أشقّ طريقي في هذا العالم الجديد الغريب، ومن يدري، قد تكون به النهاية قريبة جداً، أقرب ممّا أظنّ، ولكن، ماذا يهمّني حقاً.. لاشيء.

مروّع.. ألّا يهمّ المرءَ في هذا الوجود الفسيح شيءٌ على الإطلاق.

على أيّ حال، سأنطلق، سأنطلق.. سأرتفع من الحمأة التي تمرّغت فيها مدى سبعة عشر عاماً. من يدري، قد أقع في حمأة أشدّ غوراً، وأكثر امتلأً بالوحول.. لست أبالي.

إنه مخلوق خطير ذلك الذي يستطيع أن يختار بملء حرّيته بين الحياة والموت. الحياة.. والموت؟...

كلاهما شيء مروّع، مليء بالمجهول، بالعجيب، وبالبَشِع.. ولكن للحياة حدّها الأقصى، وبعدئذٍ، ما أسهل الإنزلاق إلى الشاطيء الآخر. من حسن الحظّ أن الموت دائماً سهل، ويسير.. ولم

لا؟ . . ألا ينتحر الناس، في كل يوم، بالآلاف؟ . . حسناً. إذن. . شيء واحد قد يكون يهمّني، قليلاً. هو أن جثتي لن تُوارىٰ في أرض. ولن يُصلِّ عليها قسيس، ولن يبكي عليها أحد. ما أفسح البحر، وارهبه، واروعه، وأحناه. البحر. . الذي أملت، ومازال، أن أعبُره، حيّاً، ممتلئاً حياة إلى عالم آخر، مليء بالمسرّات، وبالسعادة، والسموّ. قد أعبُره، على أيّ حال، إلى عالم آخر، أيضاً. عالم آخر، قد يكون مليئاً بالمسرّات، وبالسموّ، وقد يكون مليئاً بالعذاب، والجحيم، وقد يكون عدماً خالصاً. ولكن على كلّ حال، عالم آخر.

لن ألجأ إليه. إلا بعد أن أعرف جيداً هذا العالم.

مارس:

لاشيء، لاشيء على الإطلاق. .

انفضّ المولد، وانتهىٰ الأمر إلى مهزلة أخرىٰ، تافهة، صغيرة، غثّة. . وهذا هو «كل شيء»، هذا «اللاشيء» الجديد. عدت ثانية إلى القيود التافهة الخشنة، وإلى الحماة الضحلة. .

أما وفيق فهو من صنف آخر من الناس. صنف يستطيع أن يعيش، بين الناس، كالناس. يستطيع أن يغرق نفسه الكبيرة بين تفاهات المجتمع المسلّية، في الخمر، والمجتمعات، ودُور اللهو الرخيص. نعم، إنّه لايحيا آلامه، بكل قسوتها، ومرارتها، وهولها. بل يستطيع أن ينسىٰ أو يتناسىٰ، في كأس من الخمر، أو في إطار الشاشة البيضاء. يستطيع أن يندمج في حياتهم، أولئك الناس. يستطيع أن يحيا حياته، يوقف حياته الداخلية عند حدّها، ولا يسمح لها بالخروج من الورق. أمّا أنا؟ . . إنني أغبطه على تلك المقدرة. إنني شخص تطغىٰ عليه حياة من نوع آخر. إنني شخص أعيش في

عالم آخر. ولن أستطيع قطّ أن أخرج منه إلى العالم الذي يعيش فيه الناس.

من الخطر أن يعيش المرء هكذا، جامداً، ميتاً، غريباً، في عالمهم. يعيش في الوقت نفسه معذباً، صارخاً، متمرّداً، مجنوناً، تتلوّى في أعماقه حياة أخرى، جارفة مكتسحة، داخلية. مَخْفِيَّة تماماً.

لذلك.. فإنني لا أجد وفيق إلا في كتاباته، وفي تلك اللحظات القليلة التي يَدَع فيها حياته الداخلية تنطلق، وتخرج إلى النور. هنا فقط، أجده. أما في الخارج، حين يعيش كالناس، يتكلم مثلهم، ويندمج في مجتمعاتهم، عندئذٍ،كم يصبح سطحياً، وحقيراً، ومقيتاً. أليس هذا عجيباً؟.. لا أكاد أطيقه حين يندمج في حديث عادي تافه، أو في حين ينطلق في تلك الحياة العادية التافهة. لا يصبح عظيماً، ورائعاً، إلا حين يتسلّل إلى العالم الآخر، العظيم، الرائع. في كتابته أو في بوحه الحميم. هنا فقط، يصبح صديقاً، يصبح شيئاً نادراً، ثميناً، لا يُقَدَّر.

كانت تلك الرحلة إلى القاهرة، رحلة اليوم والليلتين، درساً مفيداً بعض الشيء. درساً عرفت منه أنه لايزال ينقصني الكثير كي أصبح من سكّان هذا العالم. الإرتباكات التي لا حصر لها، السهوم في غير موضع، الصمت بلا مبرّر، الصراحة القاسية. النظرات الغريبة التي يحدجني بها الناس كما يحدجون مخلوقاً عجيباً لا يُستطاع فهمه. كل ذلك ينطق ويصرخ: إنني غريب وإنني أعيش أجنبياً بين الناس.

الكارثة أن العالم الآخر، العالم الذي أعيش فيه ليس بالشيء المفرح أو المسلّي.

إنّه عالم حافل بالألم، بالمجاعة الروحية العميقة، المتغلغلة، المميتة. عالم أعيش فيه بمفردي. وذلك الصديق. إنه لايكاد ينير ركناً

صغيراً فيه، إنه لا يتسلّل إليه إلا نادراً. وهذا، في حدّ ذاته، ليس بالقليل.

إن شيئاً لابدّ أن يحدث، شيء آخر، رائع، قويّ، مخيف. حالة الموت هذه، حالة العذاب المكبوح، الخامد، المتلظّي تحت الرماد، لا يمكن أن تدوم. لايمكن أن تدوم.. لايمكن، بأيّ حال.

مارس:

ما أتفه حياتنا، نحن، وما أتفه الأشياء التي تتكيّف طبقاً لها هذه الحياة! مجرّد نظرة، ومجرّد فكرة، كافية لأن تملأ حياتنا بأروع الألم أو بأسمى السعادة. ولكن من يدري ماذا يمكن أن تفعل الفطرة المجرّدة، والفكرة المجرّدة؟

مارس:

الثقة...

ربّاه كم هي رائعة وعذبة. تلك الثقة! الثقة التي يستطيع المرء أن يستند إليها في اطمئنان سلس بسيط، في هدوء.

لماذا خلقتُ وفي نفسي كل هذا القدر من التشكّك؟ الشكّ في كل شيء، كل شيء على وجه الإطلاق. إنه أحد العناصر السامّة التي تملأ حياتي بالتعس، والظلام. هل هو مرض؟ أم ضعف نفسيّ؟ هل هي روح صغيرة حمقاء زائفة؟ أم جرأة متقحّمة؟ أهو مزيج من الفضول، والوقاحة؟.. ذلك الشكّ؟ لست أدري.

لا أريد أن أعرف إنما أريد عزيمة، إرادة قوية، صامدة. إرادة تستطيع أن تنفُذ في هذه الحياة. حياة الإحتضار المستمّر. بين الأحلام الهبائية المتلاشية. رأسي ينزّ بالخيالات الحارّة المضطجعة المتشابكة. بالأفكار المنبثقة المتطلّعة نصف الناضجة، وبالخطط نصف المطبوخة.

ولاشيء غير إرادة قوية تستطيع أن تقف في وجه كل هذا. أريد أن ألمّ أنقاض حياتي.. من جديد. أريد أن أصنع لنفسي إلهاً جديداً.

مارس:

هناك شيء آخر، خطر، في حياتي. تلك الحساسية المفرطة بـ «الجمال»، دون نظر إلى أيّ نوع من الجمال. الشيء الجميل يدهشني. ويروّعني. ويطغىٰ على وجودي كله في لمح البصر إلى حدّ مُكتسِح، جارف، عجيب. حتىٰ لو كان هذا الجمال خفياً، تحت قناع من التشوّه. سواء كان الجمال يتمثّل في امرأة، أيّاً كانت، أو في زهرة، أو في حقل، أو في غروب، أو في لوحةٍ أو نغمة، أو في مجرّد الزرقة التي للسماء، ومجرّد ركن في الشارع.

وأمام «الجمال» أنسىٰ كل شيء، كل شيء، إلى حدّ مخيف، وتمتلىء نفسي بشعور فذّ، معتصِر، شعور يُحيلني صامتاً، مبهوتاً.

أليس هذا شيئاً خطراً. ونزْقاً؟

مارس:

أعيش، كأفعوان جريح. في كون مظلم موحش، أعيش في ذبولي وكآبتي، وتهريجي الضاحك المرّ، وتوقُّدات روحي المنطفئة. أراها من بعيد، كل يوم، أكثر نضرة. وحيوية، وروعة. أعيش لأرقب حياتها من بُعْد، أرقب جمالها المتمرّد بكبرياء. يخلق حوله وهجاً وضجيجاً، وينطلق في طريقه المحتوم. هل هذا «حب»؟

مجرّد نوبة شغف، نوبة مرض، وستمرّ.. ولكنّها لا تريد أن تنتهي.. لا أعرف الحب كما يعرفه الناس الأصحّاء، بل أخافه. أليس الخوف شيئاً أصيلاً في نفسي.. أخاف واقعيّته، أخاف أن أصطدم به، أخاف أن تتحطّم على صخرته كل الأحلام الجميلة التي

أحيا بها. أليس هذا بالذات هو ما حدث؟ ومع ذلك فقد بقيت لي الأحلام، أحلام أخرى، مُرّة، مهشّمة، أحلام مولودة ميّتة، رغم كل عذوبتها.. ومُرّة، مُرّة، مُرّة قاتلة.. أعيش في جحيم أخلقها لنفسي بنفسي.. جحيم عذبة مريرة معاً.

ودائماً، سأعيش، كموقد مجهول مَنْسِيّ، يحترق بصمت في ركنه البعيد المتّشح بالظلال. موقد يتلهّب بعنف مضطرم، تخفيه طبقة من الرماد الساكن البارد بجمود. موقد ثائر أبداً، صامت بجنون. وإصرار، كبركان مدفون، يرسل النار في شراييني، ويتوقّد في عينيّ بغتة، ثم ينسحق.. يسقط وهج ناره على أحلامي. فتتلوىّ تلك الأحلام، وتئنّ، وتتمزّق رويداً، ثم تسقط في أكفان رمادها الأبيض الناعم وتتلاشىٰ هباء.. وعندما تحتضر تروح تنظر إليّ بعيون ملؤها نور يائس، ودموع السكينة. الجحيم حينما ينطبق عليها القبر، الشيطان حينما يعيش في قمقم.

ماذا يُجدي كل ذلك؟..

إنها حلقة مفرغة.. تدور بصمت، وسكون، وتوقّد، في سلسلة ألم لانهاية له، ولا قرار.

مارس:

الدموع المدفونة، الدموع التي لاتنسكب قطّ أشدّ هولاً ومرارة من أي شيء في الوجود. إنها تثقل النفس وتسحق الروح، ولهب الموقد المجهول المَنسِيّ لا يتغذّى إلا من دموع الروح التي لا تنسكب. الصمت، واليأس، والشغف، والسخرية، والدموع كلّها تنصهر في هذا الموقد الرجيم. فتشبّ ألسنة نارها من جديد، بعد أن تخمد، باستمرار، باستمرار. ألا نهاية لهذه النغمة الرتيبة المملّة؟

ومع ذلك فلست أجسر أن أسمّيه «الحب»، ولست أدري. بل

هي عاطفة حمقاء معطوبة، لا معنىً لها، رغم كل عذابها ومرارتها وجحيمها. إنني الآن أقاوم رغبة عنيفة ممضّة في السخرية. السخرية من نفسي، ومن أحلامي، ومن بلاهتي. هأنذا أسهر إلى الفجر أكتب لها، من أجلها، كما يفعل المحبّون في القصص. لست أجِدُ إلا أن أصيح مرّة أخرى: هذا غير صحيح.

أفيق فجأة، من ذهول النشوة الساجية، أرتفع من بين أحلامي المحطّمة، لكي أطلق ضحكة ساخرة، ضحكة وغدة تحوم حول أنقاض أحلامي. تحوم، وتُحلّق، ثم تتداعى.. أسخر بأحلامي، وأرسل في وجهها الضارع بقهقهات وقحة، في غير اكتراث.

لكنّك ماتزالين تملأين أحلامي، وتسخرين أنت بي، وتوقظين آلامي الغافية.. تبعثينها وتملأينها، بالجموح وبالقسوة والجنون.. أنت أيتها الغريبة عني، أيتها التي تعيشين فيّ.

مارس:

لماذا ألعن دائماً كلّ ما أحبّه؟

ألعنها باستمرار، ألعنها لآلاف الأحلام الهنيئة التي تعيش فيّ والتي ماتت فيّ. ألعنها لآلاف الكوابيس تملأ وحدتي بالعذاب والتي توحيها، هي، إليّ. ألعنها ليأسي، لضحكاتي الهستيرية، المجنونة، الدامعة. ألعنها لأنها لاتدري بشيء، ولا تحسّ، ولن تدري، ولن تحسّ.

واليوم، في الصبح، كنت أفكّر كالعادة وأحلم، وأنا سائر في طريق طويل جنب مقابر الشاطىء، وأهذي، وفجأة توقّفت في الطريق. لاحظت أنني ـ في كل الشهور الماضية ـ لم أحسّ قطّ بشعور سعيد، أو بالأمل، وارْتَعْتُ. ليس في سجلّ حياتي، كل هذه المدة التي لانهاية لها، أمل. كل آمالي يائسة، قاتمة، مجلّلة بالسواد.. وأروع

آمـالي، هو أن أمـوت. ولكن مادمت لم أمت بعـد، فهـل هنـاك أيّ أمل؟ لا، وإنما هنـاك الأحلام التي لاتـرتفع قطّ إلى مـرتبة «الأمـل»، وأروع أحلامي. أحلامها. أحلام تُولَد، وتحيا، وتموت، في الظلام، تَعْبُره منيرة متـألّقة. سـاطعة، كتلك الشهب التي تسـطع في قلب ليلة حالكة.

الشهب تموت، والظلام يبقىٰ.

مارس:

حياتي؟.. ما حياتي؟

كم هي مقفرة، غثّة. تافهة، مملوءة بالوحشة، بالدموع القاحلة.

وحبّي؟.. هذا الحب الصامت المُقْفَل المدفـون.. ليس إلا مزيجـاً من الحلم، واليأس، وليس ثَمّ شيء آخر.

إنني مخلوق مـريض، وملعـون، وأنـا الـذي جلبتُ عـلى راسي اللعنة، والمرض. وعـليّ أن أحمل لعنتي، خـلال حياتي، أحملهـا بكل ثقلها، أجرّر قدمي. ليس أمامي إلا الظلام.

إنني مخبول، مخبول يمزق صدره بأظافره، ثم يرشف الدم المتساقط من جرحه، في فرح صارخ شرس، في ضحكةٍ ملتذّة، وتتسـاقط على ضحكتـه دموع ملحـة، تلذع الجروح الفـاغرة المتنفضـة، كمن يمزّق أحبّ الأشيـاء إليه بـأظافـره، وينهش بأسنـانه أشـلاء جثّتهـا بجـذلٍ منتجِر طعين.

مارس:

خطر لي اليوم خاطر مضحك. لو أنني وُلِدتُ في العصور المظلمة، لما كنت إلا راهبا. هذه النفس المنطوية على ذاتها، تعيش في صومعتها الموحشة، سعيدة وشقيّة بوحدتهـا، صامتـة أبداً. وحتىٰ حبي.. إنني

أحب من صومعتي، دون أن أبوح لأحد، مثل حبّ الرهبان للكنيسة.

العصور المظلمة؟ في طفولتي لم أكن أتمنّ شيئاً سوى أن أصبح راهباً. وكم راودتني، عندما كنت في العاشرة والحادية عشرة من عمري، أحلامُ حياةٍ رائعة مستوحدة قدّيسة، في قلب صحراء. وحتىٰ الآن.. أنا لا أعيش بين الناس، في هذا القرن العشرين. إنما أنا أعيش في «عصر مظلم» أخلقه لنفسي، وأقضيه راهباً، ولكن لِمَنْ، لِمَ رهبنتي؟

دائماً أوثر الهدوء. والصمت، والظلمة، ويُخيَّل إليّ أنها كلها مظاهر ثلاثة لشيء واحد، خفيّ، خافل بالرؤىٰ.. ولكنّ الراهب في صومعته، في قلب الصحراء ليس أشدّ وحدةً منّي. إنه يعيش مع الله. أما أنا، فحياتي لاتدور بها إلا أطياف محطّمة، أنقاض متراكمة تكوّم عليها الغبار، والطحلب، والوحل. ذلك هو الألم الحقيقي، الحياة في عالم غريب واسع صلب جافّ، عالم مليء بالغرباء، عالم مقفر موحش.

مارس:

مازلت أفكر فيها.. مازلت حتىٰ الآن. لماذا؟ لست أدري.. مازلت أعيش بأوهامها، كنبات طُفَيْليّ، يستمدّ حياته من كائنٍ جميل، وشاهق في روعته.

أذكر ذلك الصباح حين رأيتها أمامي بغتة.. تقف لتحدّثني قليلاً. خفق قلبي بعنف، وحدّقت فيها بعينين أحسستها مظلمتين، مدفونتين. كانت مفاجأة، تأتي لتقف أمامي بهذا الشكل، على قِيد خطوة واحدة، وفي صورة مباغتة. إنني وقفت إليها مراراً، ولكن لم أحسّ قط بهذا الشعور الغريب. كانت فاتنة، رائعة، مخيفة. نعم

مخيفة. ارتعت. ولأول مرة أدرك أنّ لها وجوداً ماديّاً ملموساً. كانت تبدو لي دائماً كفكرة. كرمز. كحلم مشعّ متفجّر بالنور، بعيد. ذلك اليوم فقط أحسست أنّ لها كياناً جسدياً، مرهوباً، متحفّزاً بنوع من الحرارة والفتن الغامضة. وانفجر الإحساس في نفسي. وأغرقها. وطغىٰ عليها كأنما أزيح فجأة عن عينيّ ستار من الضباب المتألّق الجميل لأرىٰ أمامي الواقع. إنني دائماً أمقت كل ماهو حِسيّ صارخ المادّية. دائماً أعيش في جّو من الأحلام، والأطياف، والكائنات الخفيّة الرقيقة الهامسة. لذلك ذعرت قليلاً، وانكمشت إلى نفسي. وانتابني نوع من الدوار. وعندما مضت. أحسست بنوع عجيب من الراحة وشيء من الأسىٰ. لقد ابتعدتِ الآن، لقد عادتْ فكرة، وحلماً، وطيفاً متفجّراً بالنور. مرة أخرىٰ. واختفىٰ ذلك الوجود الماديّ الصارخ، ذلك الجسد المرعب الحافل بالسطوع المذهل الحارّ، فقط. تلك النظرة العميقة في عينيها. لم تختفِ.

تلك النظرة التي تحوم في أحلامي، التي تبدو، وتقوىٰ، وتسطع وتتجسّم في كل كابوس يُراودني، تلك النظرة العميقة. العميقة التي لاقرار لها. أدركت في ذلك اليوم فقط، بعنف، أنني لم أكن أحب قطّ إلا حلماً. وطيفاً، ومجرّد فكرة.

يروعني ذلك الحب الذي يعرفه كل الناس، المزاج الصحيح الجميل من الروح والجسد، وأشعر برهبة غريزية أمامه. ويستمر طيفها، مجرّد هذا الطيف، يراودني ويملأ أحلامي. سيستمرّ ينير وحدتي، ويوقدها بالألم، ويغذو روحي بالعذاب الذي كأنه مطلوب. مجرّد هذا الطيف؟ ولكن الإنسان الحقّ.. الواقعي؟..

لا ألومها.. ولست ألوم أحداً.. لا أبالي..

***

أبريل:

طمـوح.. ومتشائم.. مخبـول.. تعس.. ومتناقض مـع نفسي. أطمح إلى أن أؤدي للناس شيئـاً خالـداً، أطمح إلى «الخلود»، ولكني يائس.

كذلك تماماً، أُحبّها، وأحلم بها، ولكن بيـاس. جميلة، وجَسُور، ومتفجِّرة بالنور. من انا حتىٰ أريـد أن أحبّها؟.. لا.. إنني يـائس، كل اليأس. متىٰ ينتهي كل ذلك؟ متىٰ؟. كل هذا التَّعْس، كـل هذه الظلمة، كل هذه السيول السوداء التي تتفجر في نفسي وتغرقها. إلامَ تنتهي؟

هل هذه حياة تستحقّ أن تُحيا؟

لا.. بالتأكيد.

لكنْ مازلت أحياها.

وهاأنذا أنتهي كما ابتدأت.. اصارع الظلمة، في الوحول، بيأس. وبلا جدوي.

أبريل:

رجعت اليـوم، اقفلت بـاب غـرفتي، واستـدرت بخـطوة مثقلة، وسقطت على مقعد.

هـذه هي إذن نهاية اليـوم: ذلك الإحسـاس بالغـربة التي لانهايـة لهـا.. مهـما أغـرقت نفسي في المـرح والضجيـج، بـين الأصـدقـاء، الإحسـاس بالـوحدة المميتة التي تمـلأ الـروح بـالجليـد. الإحسـاس بـالإنفراد الـدائم، بـالحنـين إلى «الـوطن» الـذي أحمله في قلبي، ولا وجود له، إلى الدفء والراحـة، إلى المحبّة الصـافية، وذلـك العذاب الخـامد المكبـوح المتلظّي تحت رماد كثيف، عـذاب المشرّدين في عـالم

غـريب، العـذاب الضَجِـر، الملول، المستنقعيّ الـذي تتمـدّد فـوق سطحه الآسن طحالب الموت.

وبـدون أن أعيَ تمـامـاً ـ في تعبي ومللي ـ ارتسمت أمـامي صـورة البـداية، بـداية اليـوم. كنت قد استيقـظت متأخـراً، وفتحت عينيّ، وجدت نفسي أحملق إلى السقف، وأنا أفكّر في لاشيء. وفجاة. سطع في ذهني كـل شيء. . وثبتت حدقتـا عينيّ في ركن السقف. وتنهّـدت متمتماً لنفسي كالأبله:

ـ لاشيء. . هـذه ليلة أخـرىٰ ضـاعت. دون أحـلام. . ولا حلم واحد!

أشعر بضيق وحـزن حينما أستيقظ في الصبـح لأجد نفسي قـد عبرت ليلة فارغة مظلمة، كليالي القبـور، ليلة لم يبرق خـلالها التـماع حلم، أو لم تزحف في طيّاتها ظلال كـابوس. أربـأ بليالي أن أقضيهـا خامداً، ميتاً، لا أحبّ النوم العميق. أريـد ليالي حـارّة حيّة ـ مـادام نهاري مقفـراً موحشـاً ـ إمّا أن تسـطع فيها الأحـلام. . أو ترتفـع في ظلامها مَرَدَة الكوابيس.

حينما استيقظت بـالأمس، ابتسمت فجـأة، ابتسـامـة هـادئـة فيهـا سعادة، وفيها مرح صبيانيّ ممزوج بكآبة هادئـة، وتمتمت كعادتي دون أن أُدرك تماماً أنّ أصواتاً تخرج من فمي:

ـ كم كان حلواً. . ذلك الحلم. . كم كانت جميلة فيه. .

أغمضت عينيّ لأتمثّل الحلم مرّة أخـرىٰ، ورايتها، كـما رأيتهـا في الليل، من أسفل مرتفع صغير، تلّ معشوشب. تمشي في أعلاه، عند الأفق، وخطوط قوامها الرشيق واضحة في زرقة السماء، والهواء النقيّ يهبّ فيعبث بشعرها. وهي تحادث صديقة لها. كم كنت سعيـداً، في الحلم، وأنا أرقبها، وهي لاتدري.

فتحت عينيّ مرة أخرىٰ، وتنهّدت، لا أستطيع أن أراها كـما كانت

في الحلم. بمثل ذلك الجمال. ألوان الحلم، عادة، تطغىٰ عليها الظلمة التي تقترن في ذهني دائماً بالليل. أمّا في ذلك الحلم فقد كانت الخضرة يانعة حقّاً، والزرقة صافية عميقة، ووجهها ساحر في نضارته، وشعرها بلونه الكستنائي رائع. ولكني في الصباح لا أستطيع أن أتمثل كل ذلك إلا أشباحاً رُسِمتْ بقلم فحميّ. الألوان تذوي وتذيل نضرتها.

لماذا؟. . لعلّني لا أستطيع أن أتمثّل أيّ شيء في الليل إلا وقد سرت في حواشيه الظلمة والسواد.

تقلّبت في الفراش، وتدحرجت، ثم انسكبت من حافة السرير، وهببت واقفاً وفي ذهني دوار، وفي روحي تلك الكآبة الخرساء التي طالما أحسست بها إثر اليقظة، واغتسلت وأفطرت وارتديت ملابسي وخرجت، في شرود، دون أن أنطق كلمة واحدة، كمن يسير في النوم، وفي عينيّ تحوم ظلال الضجر.

هأنذا في الليل.

أبريل:

في الغسق استبدّ بي ذلك الإشمئزاز المريض من وجودي. ذلك الوجود الذي يشبه بضع أوراق انتزعها طفل عابث من رواية مفجعة، وهازلة كتبها مؤلف مخمور ممسوس، ولعبت بها يد الصدفة الساخرة، فملأتها بالأشباح، والهذيان، والحكمة، بالويل، والجمال، والجنون. صدفة ساخرة؟ لا. لا. ليست ساخرة، ولا هي مُشْفِقة، وليست عطوفة ولا ناقمة ولا مُدْرِكة، ولا أي شيء.

إنها مجرّد. . مجرّد صدفة. كم تلوح هذه الكلمة جامدة قاسية. تُحدّق إليّ بعينين جليديتين. لكنّها كلمة بريئة، بسيطة، مجرّد صدفة.

أبريل:

أريد أن أفقد هذه الحساسية المُرْهَفة. بوحدتي.. بعذابي. بسخرية وجودي. أريد، أريد أن أجنّ، أو أن أموت.

«أريد»؟ يا للسخرية.

«أريد».. ماقيمتها؟. هذه الـ.. «أريد»؟

أليس ثَمّ شيء آخر، أليس هناك وسيلة أخرىٰ، غير الإستسلام، والإنسحاق، في النهاية؟ أليس يُجدي - أبداً - ذلك التمرّد المجنون.. تلك الثورات الساخرة المسمّمة. ذلك الخبال؟ أَحَتْمٌ أن يحمل المرء طول ساعات شقائه الأرضيّ حزمة آلامه فوق ظهره. حتى النهاية؟ أَحَتْمٌ أن يرشف كأس مرارته، قطرة. قطرة. حتىٰ الثمالة؟ نعم، نعم، يلوح لي.

ليس يُجدي التمرّد، وليس يجدي اليأس. فلأحطّمْ كؤوسي ماشئت، فلأذرِفِ الدموع، ولأنشِجْ، ولأصرخْ، ولأمزّقْ كل شيء، ولأجنّ. فلأصرخ، ولأزحفْ في التراب، ولأغنّ، ولأسخرْ، ولأحيَ، ثمّ لأمُتْ. ليس ثَمّ جدوىٰ. هذا هو كل شيء، في نهاية الأمر. فلَأحْيَ حياتي الموحشة، فلأدفنْ نفسي في الأحلام، ولأفِقْ، ثم أعود ثانية للأحلام، ألف مرة في اليوم، نهاراً بعد نهار، وليلة بعد ليلة.

تمرّ الأيام، والأسابيع، والسنوات، والعذاب لا يمرّ، ولا ينتهي. أكوام الظلمة تتراكم، الجروح تتسع، وتفغر أفواهها أكثر وأكثر. ولا تُشفىٰ قطّ، ولا تستريح. أعوام طويلة، طويلة، طريق لا نهاية له، موحش. مقفر. أجرّر فيه قدميّ، بمفردي، حتىٰ أسقط. ثم.. ينتهي كل شيء.. ينتهي. الموت. ما أجمل!. ما أجمله عندما يأتي!. وما أحلىٰ أن يحلم به المرء!.

هذه هي الحياة . . فلأنتحرْ ببساطة .

فليس للأمر كلّه أهمية ، والمسألة في غاية البساطة . وستستمر هذه الحياة على هذا النمط إلى أن تنتهي ، هذا هو كل شيء . وليس هناك ما يربطني بهذه الأرض ، ولا بغيرها ، وليس ثمّة رابطة تربط قلبي الموحش المتحجِّر . الميت من آلامه بأيّ قلب ، ولا بأيّ شيء . ليس هناك ضرورة ! . . الحب ؟ سخرية ! . . الصداقات ؟ وَهْم . وخُدعة ضخمة . وقتل للوقت . الحياة ؟ كلها قبضة من التفاهات ، حفنة من الهراء .

ومع ذلك ، نعم ، مع كل ذلك ، تومض في نيران هذه الجحيم السوداء ومضات من الجمال ، كتألّق نجم ينعكس على موجة سوداء في ليلة مظلمة هادئة ، كساق عارية تلمع في ظلام غرفة داخلية ! هذا هو كل العزاء ، عزاء حزين .

لم أكن أعتقد أن في الحياة كل هذا العذاب .

السعادة ؟ حلم دائم ساخر . الفكر ؟ الإنسانية ؟ ألفاظ ، جوفاء ، سمجة ، سخرية أيضاً .

وهذا الحب ، هذه النوبة التي تملأ حياتي بالسموم والأشواك ، ظلمة دفينة ، لا تحسّ الشمس ولا النور .

لماذا إذن ؟

أم أنني في الواقع ، أعطي الأمر كله ، مرة أخرى ، أكثر ممّا له من الأهمية حقيقةً ؟

الحياة مجيدة مع كل ذلك ، ومقدسة . وكل كبريائها في تعسها وشقائها ، وجنونها . كل قداستها ومجدها في ومضات من الشرر .

ومضات توجد، وستتلاشىٰ، دون معنىٰ، دون مبرّر، وبلا قيمة على الإطلاق.

الحياة ليست إلا جريمة ضخمة. مبتسمة. خادعة. تُلقي في هذا الوجود بكل هذا القدر من الألم.. من القسوة. من الخبال.

لا توجد إلا سخرية الإنسانية القصيرة.. التي لا معنىٰ لها.

أبريل:

ومع ذلك كلّه.. فقد كانت ساعة يأس.. ثم ماتت.

وجودي كلّه سلسلة من الشرارات المتّقدة المتتابعة السريعة المذهلة، وفي كل شرارة تتوقّد الجحيم كلّها وتتواثب أبالسة الوجود. ثم تنطفىء جهنّم، ولا يبقىٰ منها غير مستنقع آسن بارد، ورماد.

نزوات ملهبة، تضطرم وتنطفىء باستمرار، وتتجدّد، وتخبو.

تُرىٰ ماذا سيصيبني؟ هل يموت هذا الحب عقيماً. كما تموت زهرة صغيرة في الصحراء؟ أم يظلّ حياً. كشوكة تخِزُ قلبي حتى الموت؟ أم سيُثمر في الصيف، ويسقط في الخريف، ثم يُدفَن في الشتاء؟ هل يطرح من كيانه بذرة حيّة، أم يتلاشىٰ في التراب المُجْدِب؟ هل يظلّ يتوالد، ويتكرّر، «فينيق» مستمرّ؟

من يدري؟.. ثم.. ماذا يهمّ؟

***

مايو:

منذ حواليّ أسبوع قابلت سامي صدفة وقضيت معه قليلاً من الوقت. وفي الحديث سألني عن أحوالي؟ وبالطبع أجبته الإجابة المعتادة. إن أحوالي لابأس. لست أدري لماذا لا أستطيع قطّ أن أتحدّث إليه كما يتحدّث الصديق إلى صديقه. والمفروض أن ثمّة

تشاركاً وجدانياً أو نوعاً من الإرتباط العميق بيننا. كلا إنني لا أستطيع أن أحكي له كل شيء. وفي الحقيقة ماذا أنا قائل له؟ كيف أقصّ عليه قصة الأحزان والآلام والأوجاع التي لا تنتهي؟ كيف أقول له إن حياتي ليست إلاّ عبودية ضخمة ومهزلة صارخة؟ أليست هذه في النهاية صبيانيّة؟

ومع ذلك فلست أريد أن أشكو. لست أريد أن أئنّ. كيف أستطيع؟

الإجابة المحتومة للسؤال عن أحوالي. الإجابة المحتومة. طَوال النهار في عمل مُجْهِد. وآليّ. ومميت عند البحرية البريطانية في المخزن رقم ٦، كفرعشري، القباري.

ذلك القطيع من البشرية القذرة البائسة. تلك الموجه القذرة من الناس ينام بعضهم على بعض في الشمس. ثم ينهضون لينقلوا صناديق البضائع وهم يهرشون ويشتمون بعضهم بعضاً. والعمل آليّ. ميت. ليس معنىٰ هذا أنني لا أحسّ أنه شائق أحياناً ـ كما يكون الأفيون شائقاً. مخدِّر. ينسىٰ المرء أشياء كثيرة. ولكن تلك اللحظات التي ينجاب فيها أثر التخدير. ويصحو المرء. ذلك الشعور الذي لا يُطاق. لايُحتَمَل. من التفاهة والموت. الشعور بأن أيّ شيء لاقيمة له.. ذلك التَّعْس الذي لايُتصوَّر. وفي البيت هنا آلاف الواجبات. دراسة مُملّة قاتلة. ولا تنتهي.. الناس يعيش بينهم المرء بلا محبّة بلا معنىٰ. هم لا يعرفونني وأنا لا أعرفهم. وكلّنا بؤساء. كلنا غارقون في دموع مُوجِلة. هم لا يحاولون قط ولا يمكنهم كما يُخيَّل إليّ أن يفهموا اتجاه نفسي. يعتقدون أن الكتب والكتابة. والموسيقىٰ. تلك الحياة الرائعة الخالدة كلّها، حياة الفن والفكر، ليست إلا نزوة طيش من نزوات الشباب. «كلّ الشبان لهم طيشهم. بعضهم الخمر وبعضهم

النساء وأنا ذَيْلي الكتب. وسوف يمرّ هذا سريعاً عندما تكبر بي الأيام عندما ينضج إدراكي للأشياء. فقط ينبغي أن يبذل كل امرىء جهده حتى لا أنساق. ليس من الضروري أن أقرأ في الليل. ليس من الضروريّ أن أمدّ يدي إلى كتاب، لأن ورائي الرزق، ورائي أن أعول الأسرة، وينبغي أن أحافظ على صحتي».

كم يبدو كلّ شيء ساخراً وتافهاً وأنا أكتب عنه. ولكن أيّ عمقٍ من المرارة يحتويه. أي عُمق من الألم النذل. وتلك الكلمات التي يقولونها. تلك الدعوات التي يصبّونها على رأسي. ذلك الحقد والوجيعة اللذان أحسّها في نبرات صوتهم - صوتها - حينها يستبدّ بها الشعور بأنني ولد عاقّ. لا أسعى وراء رزقي ولا أعيش بينهم كحيوان.. ولا أطيع تعليماتها كطفل. ياإلهي. كم أنا مريض. أي نوبات من الهستيريا المريضة تدفعني إليها هذه الأمّ التي تحب ابنها أكثر بكثير مما ينبغي، لذلك تسعى أن تملكه، أن تدمّره كي يصبح لها تماماً. ومع ذلك فهي تعسة. إنني أعرف ذلك. إنني أعرف أنها تألّمت كثيراً. وأنها كانت في يوم من الأيام سيدة كريمة. أما الآن.. ياإلهي.. هذا الوَسَط الذي أعيش فيه.

ليس ثمة ليلة هادئة الآن. كل لياليّ مظلمة مُرةّ. حالكة. وأيّ مقدار من المرارة والقذارة والبؤس! ومع ذلك فلست أريد أن أشكو. لست أدري أن أئنّ. أبكي برغمي. كي لا أنفجر. لكي لا أقع على الأرض وأدفن وجهي في التراب.

وكيف أحكي لسامي عن هذا كله أو أحكي لأي شخص آخر؟ بينما لكل شخص كونه الذي يحتشد بالوجيعة.. والألم. لكلٍ منا حياته التي يكفيه تعقّداتها وشقاؤها. لأننا نعيش في عصر ملعون. لأننا أناس. لماذا لم نكن أيّ شيء آخر غير الناس. لماذا كتبت علينا

لعنة «الإنسانية»؟ لا أدري. مللتُ من هذه النغمات التي بليت الآن والتي أدمت نفسي حتى جمّدتها لحدّ الموت. ومع ذلك فلشدّ ماترتجف تلك النفس من نبرة الصوت، من كلمة قاسية. هشّ. هشّ. ضعيف كالذبابة.

مايو:

يجب أن أضحك، على الأقلّ، وأنا أحمل صليبي، تحت ثقل اللعنة، وإلا لما استطعت قطّ أن أحمله.

يجب أن أسخر من هذه الحياة: تلك السخرية الكبيرة ذاتها، يجب أن أرقص، لكي أخفي الدموع الصارخة التي تتلوّى في أعماقي كالأفاعي، وإلا لما استطعت قطّ أن أحيا. وأنا ماأزال أحيا! . . .

فلأرفعْ إذن إلى السماء. إلى الحياة. إلى النور والنسيم والسُحُب وجهاً باسماً. وعينين فيهما تألّق. . تألّق ليس يدري أحد أهو تألّق ابتسامة. أم هو دموع.

يجب أن أسير، أن أضرب في هذا الطريق الطويل، أن أُغمض عينيَّ أحياناً، وأن أخدع نفسي قليلاً، وعلى أطراف شفتيَّ أغنية، إذا استطعت، ولأحاولْ، بأيّ شكل، أن أقضي حياتي، هذه التسلية القاسية الكبيرة، هذه السخرية.

لأحلمْ أحياناً. . ولأعْبُدِ الجمال أحياناً. ولأضيءْ روحي بما تركته لنا الأرواح الكبيرة، حتى أموت.

فلأُغمضْ عينيَّ، على بقايا الدموع، ولأبتسمْ، في الظلمة.»

* * *

يا خبر! . . كل هذه الصرخات! . .

هذه اللوعات والاندلاعات التي لا ضابط لها ـ هل فيها أيضاً،

خداع مُحْرِق للنفس؟ وأكاذيب هي الصدق بذاته ـ، كيف أمكن أن تحدث؟ كيف أمكن أن تُكْتَب؟

هل اندثر كاتب هذه اليوميات، ذلك الصبيّ الطفل الكهل، في السادسة عشرة من عمره أم في الستين؟ أم لعله رابض في داخلي، عميقاً، لايريد أن ينمو ولا أن ينضج، صبيّ شيخ رومانتيكي جداً، خائفٌ ومستهتر بنفسه وبالعالم معاً.

كل هذه العاطفية والسذاجة ولذعة لذّة تعذيب الذات!

أظن أن بَعْث وحوشٍ كتابةٍ قديمة ـ كأنّها من زواحف ماقبل التاريخ ـ تأكيدٌ لها، حتى مع إنكارها. بل كأنه ترحيبٌ بها بعد طول هجوع.

* * *

في الآخر:

لماذا لم أكتب من قبل؟ إنّ منير عندما جاء يزورني قبل أن يقتل نفسه بليلة واحدة، ألحّ عليّ أن نخرج، وتمشّينا حتى محطة الرمل. كان النهار قد غاب، والسحاب على البحر في «الميناء الشرقيّة»، ينسكب في حمرة الشفق الإسكندرانيّ، والنخيل السلطانيّ يتماوج سَعْفُه في الهواء الرطب، بحفيفٍ كأنّه موج سمائي لاقوام له، وكان منير صامتاً، كعادته، ولم أكن قطّ ممّن يستطيعون أن يملأوا فجوات الصمت بالأحاديث «الصغيرة» كما يُقال أو بأيّ دردشة ممّا يتيح لنا أن نجتاز فتراتٍ صعبة.

واقترح منير أن ندخل محلّ الفيّومي الشهير، وطلبنا «الهريسة» المشهورة، وكانت، مصداقاً لشهرتها، لذيذة حقّاً. ورفض منير أن أدفع.

قلت في نفسي: كأنما كان من واجبه أن يؤدّي ثمن هذه المتعة العارضة، والأخيرة. وبالطبع كان ما قلت لنفسي - شأن كل شيء عندي في تلك الأيام - أكثر فخامة بكثير، وأقوى جلجلة، ولعله أدقّ نمنمةً، ممّا كان حادثاً بالفعل. ألم يكن ذلك هو سِمة ماكان يملأ رأسي - وربما روحي - ممّا كنت أسمّيه «عذاباً» و«وحشة» و«سخرية»؟

كان، ياما كان.

أم لعله مازال؟

لم أدخل الفيّومي بعد ذلك سنوات طويلة. لفتة لا معنىً لها طبعاً. كم في سلوكنا اليوميّ من لفتات لا معنىً لها؛ ولا معنىً - حتى - أن نقول إنها لا معنىً لها.

في اليوم التالي جاءني استدعاء النيابة لأدليَ بأقوالي في «الحادثة». أنا وبدوي، فقط.

مايو ١٩٤٥، مبنى النيابة العمومية مَهيب، ونظيف جداً، ويهبّ عليه هواء «الميناء الشرقيّة»، الممرّ الواسع الخالي، ونحن ننتظر على الباب الضخم المقفل، والعسكري في ملابسه السوداء، وطربوشه، أنيق، ومنضبط وفخور.

لم أكن قد دخلت، من قبل، مبنىً مؤثراً على هذا النحو.

كان وكيل النيابة شاباً أكبر منّا بسنوات قليلة، ومتفهّماً، ويريد كما هو واضح أن يُغلق الملفّ الذي أمامه، بأقلّ قدر ممكن من الألم لعائلة منير ولأصدقائه وأقلّ قدر ممكن من الضّجة.

لم يكن مألوفاً، ولا مفهوماً جداً، عندئذٍ أن ينتحر طالب في ليسانس الآداب قبل تخرّجه بأسابيع قليلة، ولم يكن وكيل النيابة حريصاً جداً على تعمّق أسباب هذه النهاية الفاجعة، واكتفى بأننا أجبنا - على اتفاقٍ مسبّق بيني وبين بدوي - أننا لا نعرف سبباً لما

حدث، وأن صديقنا كان دمث الخلق، لا عداوة بينه وبين أحد، وأنه فقط كان يمرّ بأزمة نفسيّة لا تفسير لها، فيما نظن.

أفرد أحمد الصاوي محمد عموده بالأهرام: «ماقـلّ ودلّ» لكلمةٍ عن هذا كله. كان مثل ذلك الأمر يستحق عندئذٍ عموداً في «الأهرام» من كـاتب مرمـوق. لم يعد الآن مهـماً. مكانـه خبر في صفحـة الحـوادث بالكثير.

(عـرفت بعـد ذلـك بسنوات طـويلة أن صبحي ـ زميـل سُمَيَّـة وحبيبها ـ كان قد مات. هل كان لصبحي أيـة علاقـة بما فعـل منير، حقاً؟ ثم عرفت بعد ذلك أن سُمَيّة لم تتزوج قطّ.

يعني، ماأهمية ذلك؟)

فتح وكيل النيابة الملفّ الذي أمامه، على المكتب العريض اللامـع المكسو بلوح سميك من الزجاج المتألّق، في الغرفة الواسعة الهادئة، لم يكن على المكتب شيء آخر، وكان في الغرفة خزانة لها باب زجاجي، مقفلة، تبدو منها كتب القانون المجلّدة المـرصوصـة بنظام، والملفّـات موضوعة أحدها فوق الآخر بترتيب مريح.

وأخرج ورقة، عـرفت خطّ منير عـلى الفور، لكن الكتـابة كـانت مهوشّة قليلاً ومتناثرة، وغير مكتملة.

في الورقة اسم بـدوي ثلاث مـرات، واسمي عدة مـرات وأمامـه «أصيب بالجنون المُطْبِق». وعلى الشمال، في أعلىَ الـورقة، بخط كبـير مفـرّغ مجوّف ومعتنىً بـه «أنا هـارب» وتحتـه خطّ مقـوس تنبثق منـه، وتعدو عليه، أشعـة من خطوط منشعبـة منفرجـة في نصف دائرة غـير كاملة، وبخطٍ أقلّ عنـاية «من الشقـاء المُطْبِق». وعـلى اليمين كلمات مضطربة غير واضحة تماماً، بـالإنجليزيـة: «كل واحـد يجب أن يفكر فيما هو غير المعتاد». وفي وسط الورقة بالإنجليزية أيضاً: «كان ينبغي

أن أفكّر في أن ذلك غير مقبول، كان ينبغي أن أفكر. . .» وتحتها إلى اليسار: «وعلى هذا النحو كان مستطيعاً أن يهرب». .

ردّ وكيل النيابة الورقة إلى الملفّ.

حفظتُ شكل الورقة، والكتابة، وأعـدت تشكيلها، بخـطّي، كما رأيتُها، تماماً.

كلّ واحد يجب أن يفكّر فيما هو غير المعتاد.

ادوار الخرّاط

القاهرة

٢٩ برمودة ١٧٠٩

٧ مايو ١٩٩٣

***

الفهـرس

صفحة

صفحات رومانتيكية قديمة ٥
قصاصات رومانتيكية أيضاً (جافّة وذابلة الشّكل) ٢٩
هذا الورق القديم ، هذا الصّخر القديم ، له سطوة ٤٧
مراكب جانحة في التّرعة الحمراء ٧١
في بطن شجرة عتيقة ٩٥
سوناتا رومانتيكا . . بدون تعليق ١٢١
سلسلة حديد تسدّ الطّريق ١٤١
كأس مترعة باللّحم الأبيض ١٦٣
يوميات منمنمة ، صارخة ، وربّما مؤلمة قليلاً ١٩٥

يا حنزا ... كل هذه الصرخات!

هذه اللوعات والاندلاعات التي لا ضابط لها ـ هل فيها أيضا خداع يُحْرِق النفس؟ وأكاذيب هي الصدق بذاته ـ؟ كيف أمكن أن تحدث؟ كيف أمكن أن تُكتب؟

هل أنذا كاتب هذه الترنيمات، ذلك الفتى الطفل الكهل، في السادسة عشرة من عمره أم في الستين؟ أم لعله رابض في داخلي، عميقا، لا يريد أن يشفى ولا أن ينضج، صبي شيخ رومانسي حقا، خائف ومستهتر بنفسه وبالعالم معا.

كل هذه العاطفية والسذاجة ولدغة لذة تعذيب الذات!

أظن أن بعث وحوش كتابة قديمة ـ كأنها من زواحف ما قبل التاريخ ـ تأكيدٌ لها، حتى مع إنكارها، بل كأنه ترحيبٌ بها بعد طول هجوع

دار الآداب

ردمك [illegible]

ص.ب ١١-٤١٢٣ بيروت